بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلّف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف خلقه

محمّد وآله الطاهرين

وبعد : فإنّ القرآن الكريم المعجزة الخالدة لنبيّنا محمّد صلى الله عليه وآله ، قال تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾(١) ، وله الأثر الكبير على حياة الانسانيّة جمعاء ، بإيصالها إلى شاطئ الأمان وساحل النجاة ، قال تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ﴾(٢).

وقد حفظه الله تعالى فلا يستطيع أحد أن يحرّف فيه بالزيادة أو النقصان . نعم ، قد يفسّر آياته بخلاف ظهوره ، غير أنّ ذلك لا يضرّ من أمعن النظر ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾(٣).

وهو كتاب هداية ، ومنهاج حياة يوصل الإنسان إلى السعادتين ،

---

(١) الإسراء ١٧ : ٨٨.

(٢) المائدة ٥ : ١٥ و ١٦.

(٣) الحجر ١٥ : ٩.

بالخصوص من آمن به ، وطبّق أحكامه على نفسه، قال تعالى: ﴿إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾[١].

وقد أولاه النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام عناية كبيرة ، فأوضح صلى الله عليه وآله أنّه المخرج من الفتن ، الذي يقود إلى الجنّة ، قال صلى الله عليه وآله : «فَإِذَا الْتَبَسَتْ عَلَيْكُمُ الْفِتَنُ كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فَعَلَيْكُمْ بِالْقُرْآنِ ، فَإِنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ ، وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ ، وَمَنْ جَعَلَهُ أَمَامَهُ قَادَهُ إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَنْ جَعَلَهُ خَلْفَهُ سَاقَهُ إِلَى النَّارِ ، وَهُوَ الدَّلِيلُ يَدُلُّ عَلىٰ خَيْرِ سَبِيلٍ»[٢].

وأبان عليّ عليه السلام أنّه الحبل المتين ، أي الذي لا ينقطع ، الشفاء النافع ، وهو عصمة ونجاة لمن تعلّق به ، قال أمير المؤمنين عليه السلام : «وَعَلَيْكُمْ بِكِتابِ اللهِ ، فَإِنَّهُ الْحَبْلُ الْمَتِينُ ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ ، وَالشِّفَاءُ النّافِعُ ، وَالرِّيُّ النّاقِعُ ، وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ. لَا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ ، وَلَا يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ»[٣].

ووصفه عليه السلام بأنّه ربيع القلوب ، وأحسن الحديث ، قال عليه السلام : «تَعَلَّمُوا الْقرْآن فَإِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ ، وَتَفَقَّهُوا فِيهِ فَإِنَّهُ رَبِيعُ الْقُلُوبِ»[٤].

وقد حضّ الأئمّة عليهم السلام على تعلّمه وفهمه ، قال الصادق عليه السلام : «يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ لَا يَمُوتَ حَتّىٰ يَتَعَلَّمَ الْقُرْآنَ ، أَوْ يَكُونَ فِي تَعَلُّمِهِ»[٥].

وأوضح بأنّ القلب الذي وعى القرآن لا يموت ، قال عليه السلام : «اقْرَأُوا الْقُرْآنَ

(١) الإسراء ١٧ : ٩.
(٢) الكافي : ٢ : ٥٩٩ ، الحديث ٢.
(٣) بحار الأنوار : ٨٩ : ٢٣.
(٤) نهج البلاغة : ١ : ٢١٦.
(٥) عدّة الداعي : ٢٦٩.

وَاسْتَظْهِرُوهُ ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالىٰ لَا يُعَذِّبُ قَلْباً وَعَى الْقُرْآنَ »[١] .

وهكذا حضّوا عليهم‌السلام على قرائته وترتيله ، وأنّ ذلك من أفضل الأعـمال ، فعندما سئل الإمام زين العابدين عليه‌السلام عن أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : « الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ. قُلْتُ : وَمَا الْحَالُّ الْمُرْتَحِلُ ؟ قَالَ : فَتْحُ الْقُرْآنِ وَخَتْمُهُ ، كُلَّمَا جَاءَ بِأَوَّلِهِ ارْتَحَلَ فِي آخِرِهِ »[٢] .

والقرآن الكريم مليئ بالعقائد الحقّة ، والأخلاق الفـاضلة ، وقـد عُـنيت بتفسيره بنحو ميسّر يتناسب مع الطبقة المتوسّطة من الناس (الجماهير)، وركّزت في التفسير على جنبتي الأخلاق والعقائد لما لهما من أهمّيّة فائقة في حياة الإنسان في الدنيا ، وفي معاده في الآخرة ، وسمّيته :

البيّن المفيد في إيضاح كلام الله المجيد

سائلاً من الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه ، وأن يتقبّله بقبولٍ حسنٍ

الشيخ حسين العايش البرّاك

---

(١) بحار الأنوار : ٨٩ : ١٩.

(٢) الكافي : ٢ : ٦٠٥ ، الحديث ٧.

سورة الفاتحة

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾(١)، وقال تعالى: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ**﴾(٢)

صدق الله العليّ العظيم

القرآن كتاب هداية

إنّ المهمّة الأساسيّة للقرآن الكريم هي الهداية للتي هي أقوم كما بيّن ذلك، فهو يهدي إلى الصراط المستقيم، وهو نور يستضيء به الإنسان في الظلمات المدلهمّة، وما أكثر ما تمرّ على الإنسان ظلمات، لكونه بطبيعته منغمس في الجهل، قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾(٣)، وبجهله يتخلّف عن كثيرٍ من

---

(١) الإسراء ١٧: ٩.

(٢) الحشر ٥٩: ٢١.

(٣) الأحزاب ٣٣: ٧٢.

الأُمور التي توصله إلى الصواب والسداد، وترفع من مستواه، ولهذا كان الدور المؤثّر والكبير لأنبياء الله ورسله ولأئمّة أهل البيت عليهم السلام هو إيصال الإنسانيّة جمعاء إلى النور والهداية، غير أنّ الأنبياء كلّ ما لديهم من معارف وعلوم، وكذلك ما لدى الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام، جُمع في القرآن الكريم، فقد جمع الله تعالى فيه ما يريده للخلق من هداية.

كيف نستفيد من القرآن؟

ينبغي أن نلتفت أنّه عندما نقول: إنّ جميع ما يريد الله تعالى في القرآن ليس ذلك بمعنى أنّه شرعة لكلّ وارد، ويستطيع كلّ أحد أن يفهم ما يريده القرآن، فإنّ الأمر ليس كذلك؛ إذ كما نعرف أنّ كلّ مفردة ـ وإنْ كانت بسيطة ـ فإنّها تحتاج إلى جهد كبير، والإنسان لولا العلم والمعارف والمهارات التي يتقنها فلن يستطيع أن يحصل على ما يريده، والأمر كذلك في القرآن الكريم، فهو بحر يحتاج الإنسان فيه إلى سفينة ومجاديف حتّى يستطيع أن يشقّ عبابه، وقد شرح النبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام السبل والطرق التي من خلالها نهتدي بالقرآن، وقد أشار العلماء في تفاسيرهم المتعدّدة والقيّمة ـ التي يحتوي كلّ تفسير منها على مجموعة من المعارف ـ إلى كيفيّة الاستفادة من القرآن لكونه كتاب هداية، ونور يستضيء به الإنسان في الطرق المظلمة، وأهمّ الأُمور ما ركّز عليه العلماء للاستفادة من القرآن الكريم أمران رئيسيّان:

الأوّل: تزكية النفس

فإنّ من لم يزكِّ نفسه لن يستطيع أن يستفيد من هداية القرآن الكريم، والتزكية صعبة شاقّة تحتاج إلى جهد منذ أن يعي الإنسان أهمّيّتها، وأنّ النفس تحتاج إلى جهاد حتّى يُلحَد المرء في قبره، وذلك يعني أن يبقى يصارع نفسه ويجاهدها

إلى أن يلتقي بالله تعالى، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ**﴾(١).

إذن فإنّ الأمر الأوّل الذي يحتاجه الإنسان للاستفادة من القرآن الكريم هو تزكية النفس، وشهر الصوم يزكّي فيه الإنسان نفسه بنحو طبيعيّ، أي أنّه لا يحتاج إلى جهد كبير لكون الصوم تزكية للنفس، ومن تأثيراته طهارتها، وإيجاد الاستعداد والقابليّة لتلقّي المعارف الإلٰهيّة والاستفادة منها، والرقّيّ بها؛ إذ به يحصل للصائم عروج روحانيّ، وينفتح قلبه على القرآن الكريم، ويفهم كثيراً من المعاني في شهر رمضان، وكذلك ينفتح قلبه وعقله على الدعاء، وعلى ذكر الله تعالى، وعمل الخير، فمن صامه وفّق إلى كثير من الخيرات التي لا يوفّق إليها في غيره.

الثاني: العلم والمعرفة

يحتاج الإنسان أيضاً إلى العلم، ويحصل له ذلك بالتعلّم والسؤال والقراءة والبحث، أي بالطرق المتعارفة، فإذا قرأ وسأل، أو استمع إلى المعرفة، سوف يأخذ شيئاً من العلم، ذلك أنّ العلم لا يتأتّى إلّا بالتعلّم، ومن أراد أن يتعلّم شيئاً فإمّا أن يستمع فيعي بالاستماع، أو يقرأ فيفهم، أو يذهب إلى المدارس والجامعات والحوزات العلميّة، فيتعلم المعارف والعلوم ويأخذ شيئاً منها.

إذن هناك أمران رئيسان يستطيع بهما الإنسان أن يستفيد من القرآن الكريم: التزكية والعلم والمعرفة.

القراءة التدبّريّة للقرآن

من وسائل التعلّم في عصرنا الاستماع إلى المذياع أو التلفاز، ولله الحمد فإنّ

(١) الانشقاق ٨٤: ٦.

كثيراً من الإذاعات تعرض برامج القرآن الكريم ، أمّا قراءة أو تجويداً أو تفسيراً ، ومن خلال ذلك يحصل للمشاهد والمستمع معرفة وعلم ، إذن بات تحصيل العلم في أيّامنا بنحو من السهولة واليسر .

إنّ من أهمّ الأُمور في شهر رمضان قراءة القرآن الكريم ، قال ﷺ : «**وَمَنْ تَلَا فِيهِ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ خَتَمَ الْقُرْآنَ فِي غَيْرِهِ مِنَ الشُّهُورِ**»[1] ، غير أنّه لا يراد بالقراءة القراءة دون تدبّر في معاني القرآن .

نعم ، قد يحصل من يقرأ القرآن بالقراءة العادية على الثواب ، لكن هناك شيئاً أعظم من الثواب ، وهو أن يؤثّر القرآن الكريم على باطن الإنسان وداخله ، فذلك أعظم من الثواب ؛ لأنّ الثواب قد يزول ، فإنّ الحسنة إذا لم تتبع بسيّئة تبقى ، لكنّها إذا أُتبعت بسيّئة زال أثرها ، والعمل الصالح كذلك إذا اقترن بإعجاب زال تأثيره وأُحبط ، ولهذا فإنّ الأهمّ من الثواب هو ما يحصل عليه الإنسان من تأثير المعارف على واقعه وروحه ، أي على الجانب المعنويّ من شخصيّته ، فذلك أهمّ من الثواب .

يستمع المؤمن في شهر رمضان إلى تلاوة القرآن ، وقد يستمع إلى تفسيره ، أو يقرأ بتدبّر ، فيحصل على حالة معنويّة تؤثّر في شخصيّته فتصقل روحه ، وتجعلها متألّقة ومتعلّقة بالله تعالى .

المعارف العقديّة والأخلاقيّة في القرآن

جميع ما يحتاجه الإنسان من المعارف العقديّة والأخلاقيّة في القرآن الكريم ، وقد جمع كلّ ذلك في فاتحة الكتاب .

إنّها حاوية لمعارف جمّة وكثيرة ، ولها تأثير كبير على شخصيّة الإنسان ،

---

(١) أمالي الصدوق : ٩٥. عيون أخبار الرضا عليه السلام : ١ : ٢٩٦.

ولهذا جُعلت الصلاة بها ، جاء في الروايات : «**لَا صَلَاةَ إِلّا بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ**»[١] ، ولها تأثير في جنبتين :

الأُولى : الجنبة العقديّة ؛ إذ يتعلّم الإنسان من خلالها كثيراً من المسائل العقديّة .

الثانية : الجنبة الأخلاقيّة والروحانيّة ، وهي حقيقة وجود الإنسان ، ذلك أنّ الإنسان بروحه وبشخصيّته المعنويّة .

البسملة

بدأت الفاتحة بالبسملة ، ولها أهمّيّة كبيرة ، وقبل أن نوضّح معناها نشير أنّ البحث فيها سيقتصر على جانب محدّد ومعيّن لا يشمل الأبحاث اللغويّة والنحويّة والبلاغيّة الموجودة في البسملة ، ككون الباء هاهنا وردت بهذا المعنى ؛ إذ أنّنا لا نبحث لغويّاً ولا نحويّاً وإنْ كنّا نحتاج إلى ذلك كثيراً لكون البحث اللغويّ يوضّح لنا كثيراً من الحقائق ، ويسلّط لنا الأضواء عليها ، غير أنّ ما يهمّنا هو النتيجة ، ولذلك سنهتمّ بالجنبتين اللتين ذكرناهما آنفاً وهما : الأخلاقيّة والعقديّة ، وبقيّة المعارف قد تأتي تباعاً لهما .

جانب الخلود في البسملة

ذكر العلماء أنّ من طبيعة الإنسان التوق للبقاء والاستمرار وتخليد الأشياء ؛ لأنّه طُبع في كنه وجوده حبّ الاستمرار والبقاء ، أي أنّ الله تعالى أودع في وجوده غريزة الخلود ، فيتوق بطبيعته إلى أن يخلّد جميع الأشياء ، ولذلك يربط الأشياء بالأُمور التي يرى أنّها باقية فيربطها بشيء كبير أو عظيم ، لما يرى من تأثير وعظمة له كي تبقى ببقائه .

---

(١) عوالي اللئالي : ١ : ١٩٦ .

إذن السبب لربط الأشياء بالأمور الهامّة والكبيرة هو تخليد تلكم الأشياء، والبسملة فيها جانب الخلود لكنّه خلود معنويّ يتعلّق بالبقاء الأزليّ والسرمديّ الذي لا يتناهى، وهو الحقّ تعالى، ولذلك أشارت الروايات إلى هذا المعنى قائلة: إنّ كلّ عمل لا يرتبط ببسم الله فهو مقطوع أبتر(١)، أمّا الأعمال التي ترتبط باسمه تعالى فسوف يكون لها الخلود من الناحية المعنويّة، وهنا نلتفت إلى جنبة رئيسة وكبيرة وهامّة في شخصيّة الإنسان تتّفق مع طبيعته وحقيقة وجوده من أنّه يريد أن يخلّد ما يصدر منه، والرواية تحثّه على ذلك وتنصحه أن لا يعمل شيئاً إلّا بادئاً بالبسملة(٢).

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

البسملة آية من آيات الفاتحة لأنّ القرآن صرّح أنّ الفاتحة سبع آيات، والبسملة واحدة منها، وابتدأ بها على نسق ما يبتدأ به في الأعمال الكبيرة والصغيرة، ذلك أنّ صاحب كلّ عمل يبدأه على ما يعتقد أنّه يؤثّر فيه، ويربط ذلك العمل بما يوجب له البقاء والديمومة والاستمرار.

باء البسملة

قال العلماء: إنّ للباء هاهنا معانٍ، من جملتها الاستعانة، أي يستعين القارئ

(١) في الرواية: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُذْكَرْ فِيهِ بِسْمِ اللهِ فَهُوَ أَبْتَرُ**» تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٢٥.

(٢) في الحديث: «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُذْكَرْ (بِسْمِ اللهِ) فِيهِ فَهُوَ أَبْتَرُ**» تفسير الإمام العسكريّ عليه السلام المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام: ٢٥، وفي تفسير الصافي للفيض الكاشانيّ: ١: ٨٢ عن الإمام الباقر عليه السلام: «**سرقوا آية من كتاب الله بسم الله الرحمن الرحيم**، وينبغي الإتيان بها عند افتتاح كلّ أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه».

ببسم الله الرحمن الرحيم ، وقيل : إنّها ترتبط بنفس المعنى الذي ارتبطت به ، ومعنى بسم الله الرحمن الرحيم ابتدائيّ بالبسملة ، وقد شرحه السيّد الطباطبائيّ بتتميم الإخلاص في مقام العبوديّة بالتخاطب مع الله تعالى(١).

معنى الاسم

للاسم معنيان :

الأوّل : أنّه بمعنى السمة ، وهي العلامة .

والثاني : الرفعة من السموّ .

ويمكن أن يراد به أحد المعنيين ، أو كلٌّ من المعنيين ، والمعنى هو إمّا أن نقرن العمل بالرفعة أو بالعلامة ، وتعطي العلامة معنى الارتفاع ، ولذلك نرى المولود وقت ولادته يبادر إلى إطلاق الاسم عليه ؛ لأنّ وضع سمة وعلامة له يميّزه عن غيره ، وبتلك العلامة والسمة يرتفع شأنه . إذن الارتفاع والسموّ يمكن أن يكون من المعاني الملازمة للسمة ، ولمّا نقول إنّ الاسم بمعنى السموّ ، سيكون السموّ من المعاني الملازمة للسمة أيضاً .

لفظ الجلالة

لفظ الجلالة للباري تعالى ، قال العلماء : إنّه مأخوذ من أَلَهَ بمعنى عبد أو تحيّر ، وعليه فإنّ أَلَه أو الإله سيكون بمعنى المعبود المتحيّر في إدراكه ، قال علماء الكلام : إنّ لفظ الجلالة هو اسم للحقّ تعالى يستجمع جميع صفات الكمال التي تلازم الذات في تعبير ، أو أنّ الذات تدلّل عليها بتعبير آخر ، بمعنى أنّ الله تعالى هو اسم للذات المقدّسة يدلّل عليها وتدلّ هي عليه .

---

(١) تفسير الميزان : ١ : ١٧.

الله اسم للذات المقدّسة

وينقدح هنا سؤال إذ عندما نقول : إنّ الله هو اسم للذات المقدّسة ، فمن سمّى الله تعالى به ؟ أي من أطلق الاسم على تلك الذات ؟ وبهذه الحروف ألف ولام ولام وها (الله) ، هل هو أطلق لفظ الله على ذاته لكونها مستجمعة لجميع صفات الكمال ومنزّهة عن النقائص ، ومستحقّة للعبادة دون ما سواها من بقيّة الذوات ؛ لأنّ بقيّة الذوات باطلة ، وليس هناك إلّا ذات واحدة هي للحقّ المطلق الذي لا بطلان له ، ولهذا ورد عن النبيّ ﷺ عندما سمع كلمة لبيد :

أَلَا كُلُّ شَيْءٍ ما خَلا الله باطِلُ وَكُلُّ نَعيمٍ لَا مَحالةَ زائِلُ[١]

قوله ﷺ : إنّ هذه أصدق كلمة قالها شاعر[٢] ، (ألا كلّ شيء ما خلا الله باطل) لأنّ كلّ شيء سيؤول إلى البطلان والزوال وعدم الاستمرار ، أمّا في الشطر الثاني (وكلّ نعيم لا محالة زائل) فقد قال ﷺ : إلّا نعيم الجنّة فهو باقٍ[٣] ، وذلك لأنّه يرتبط باسم الحقّ تعالى .

الاقتران باسم الله

في الأعمّ الأغلب لا يُعمل عمل دون أن يوضع عليه سمة وعلامة تدلّل عليه لأنّه دون ذلك سيبقى العمل مبهماً ، والله تعالى يعلم الإنسان هذا النسق الفطريّ الموجود ويوجّهه على أنّه يجب أن يكون متّجهاً إلى الله تعالى بأن يقترن ببسم

---

(١) بحار الأنوار : ٢٢ : ٢٦٧ .

(٢) مسند أحمد : ٢ : ٣٩٣ . صحيح البخاري : ٧ : ١٠٧ .

(٣) في الرواية : « **يا عليّ ، كلّ نعيم يزول إلّا نعيم الجنّة** » كنز العمّال : ١٦ : ١٠٠ ، الرقم ٤٤٠٥٩ . وفي رواية أُخرى : «**كلّ نعيم زائل إلّا نعيم أهل الجنّة** » كنز العمّال : ٦ : ٥٩٧ ، الرقم ١٧٠٤٧ .

الله الرحمن الرحيم.

البسملة قبل زمن نزول القرآن

البسملة قبل أن يُنَزَّل القرآن الكريم كانت موجودة عند بعض الأنبياء، وقد أشار الذكر إلى ذلك قال تعالى: ﴿**إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ**﴾(١). إذن وجود بعض آيات القرآن أو بعض الحقائق القرآنيّة لدى بعض أنبياء الله تعالى أمر ذكره القرآن.

العلاقة بين البسملة والاسم الأعظم

أشارت الروايات إلى أنّ البسملة هي اسم الله الأعظم، أو أنّها أقرب إلى الاسم الأعظم من سواد العين إلى بياضها(٢)، ذلك أنّ الاسم الأعظم يُطلق في الروايات ولا يراد به الألفاظ، أي أنّ ألفاظ الإنسان إذا قرأها أو قالها لا يتحقّق ما يصبو إليه أو ما يريد أن يصل له، وعليه فإنّ الاسم الأعظم ليس بمعنى الألفاظ المجرّدة، بل أنّ معناه كما قال بعض العلماء: إنّ معنى البسملة لمن أدركها يوصله إلى ما يبتغيه في عمله وإلى حقيقة الشيء الأعظم الذي أراده الله تعالى للعبد في اتّصاله به، أي أنّ الاسم الأعظم هو حالة معنويّة وهمزة وصل بين العبد ومبدئه، وإذا تحقّق الوصل أو الصلة بين العبد وبين الله تعالى استطاع العبد أن يحقّق مراده ولا يتوقّف ذلك على الألفاظ وإنّما هو بالمعاني.

وفي الروايات أنّ البسملة تتضمّن معاني الاسم الأعظم، وذلك ما نشاهده في لفظ الجلالة الذي هو اسم للذات المقدّسة.

---

(١) النمل ٢٧: ٣٠.

(٢) قال الإمام الرضا عليه السلام: «**إِنَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ أَقْرَبُ إِلَى اسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ مِنْ سَوَادِ الْعَيْنِ إِلىٰ بَيَاضِهَا**» أمالي الصدوق: ٦٤٢. عيون أخبار الرضا عليه السلام: ٢: ٥.

وقال بعض العلماء : إنّه علم على الذات المقدّسة ، إلّا أنّه أشكل بعضهم في إطلاقه على الذات لكونه يقتضي التحديد(١).

ولسنا بصدد الإشكال على ذلك ؛ إذ أنّه حتّى لو أطلقنا أنّه علم على الذات المقدّسة فلا يراد به التحديد بل الإيماءات والإشارة بأنّ الله تعالى هو الذي وضع الأسماء للدلالة على ذاته المقدّسة التي لا حدود لها لكونها واجبة الوجود . إذن عندما نطلق لفظ الجلالة على الذات لا نريد به المعنى الذي يلزم منه التحديد والتقليل للذات المقدّسة لأنّ كلّ من يؤمن بأنّ الذات المقدّسة للحقّ تعالى لا حدّ لها ينزّهها عن ذلك .

الارتباط بين الاسم والمسمّى

وبهذا نصل إلى ما ألمحنا إليه ، وهو أنّ حقيقة البسملة فيها شيء من الصلة بين المسمّى ـ وهو الله تعالى ـ وبين الاسم ، ومن هنا أيضاً ندرك معنى قوله صلى الله عليه وآله : «**كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَمْ يُذْكَرْ (بِسْمِ اللهِ) فِيهِ فَهُوَ أَبْتَرُ**»(٢) ، أي أنّ العمل سينقطع إذا لم يبدأ ببسم الله ، لكونه لا بقاء له ولا ثبات ، بخلاف ما رُبط بالله تعالى من قول أو عمل ، سواءً كان العمل مادّيّاً أو معنويّاً ، فإنّه سيدوم مستمرّاً .

وقد ذكر أمير المؤمنين عليه السلام أنّ ذلك يختصّ بالمؤمن لأنّ غيره إذا لم يبدأ عمله ببسم الله الرحمن الرحيم قد يكون لعمله شيء من التأثير ، أمّا المؤمن فإنّه إذا لم يبدأ عمله ببسم الله فقد تترتّب عليه آثار وضعيّة ، قال الصادق عليه السلام : «**وَرُبَّمَا تَرَكَ بَعْضُ شِيعَتِنَا فِي افْتِتَاحِ أَمْرِهِ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ فَيَمْتَحِنُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ بِمَكْرُوهٍ لِيُنَبِّهَهُ عَلىٰ شُكْرِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ ، وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ ، وَيَمْحَقَ عَنْهُ وَصْمَةَ تَقْصِيرِهِ**

---

(١) عدّة الداعي : ٥٥ .

(٢) شرح أصول الكافي للمازندراني : ١ : ١٨ .

عِنْدَ تَرْكِهِ قَوْلَ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ...»[(١)].

وفي رواية: «**لَقَدْ دَخَلَ عَبْدُ اللهِ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ع - وَبَيْنَ يَدَيْهِ كُرْسِيٌّ فَأَمَرَهُ بِالْجُلُوسِ عَلَيْهِ، فَجَلَسَ عَلَيْهِ فَمَالَ بِهِ حَتّىٰ سَقَطَ عَلَى رَأْسِهِ، فَأَوْضَحَ عَنْ عَظْمِ رَأْسِهِ وَسَالَ الدَّمُ...»**[(٢)].

وهذا أحد المعاني لقوله تعالى: ﴿**كُلّاً نُّمِدُّ هٰؤُلاَءِ وَهٰؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً**﴾[(٣)]، أي أنّ الله تعالى يعطي المؤمن لكن بالنسق الذي يصبّ في المجال الإيمانيّ، ويعطي غيره بالنسق الذي يصبّ في المجال غير الإيمانيّ، فيتيح الظروف التي يختارها المرء لنفسه. ويتلخّص من أطراف الحديث: أنّ البسملة لها أهمّيّة كبيرة في ربط الإنسان الذي آمن بالله تعالى بإيصال أعماله إلى حالة من البقاء والديمومة والاستمرار؛ إذ لا تزول بل تبقى في عالم الخلود، ولا تنقطع، وهذا له درجات متفاوتة تختلف بقدر ما يخلص فيه الإنسان، أي أنّه من المعاني التشكيكيّة، وبقدر إخلاص الإنسان ببسملته لله تعالى، واعتقاده بتأثير الله تعالى يكون لعمله الثبات والبقاء والاستمرار.

الرحمانيّة والرحيميّة

وهنا يحسن التنبيه على مسألتي الرحمانيّة والرحيميّة لله تعالى، فهو رحمن ورحيم بعباده، ورحمانيّته بمعنى سعة الرحمة لكلّ شيء، أمّا رحيميّته فهي لطفه الخاصّ بعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾[(٤)]، والرحمانيّة هي سعة العطاء لكلّ الموجودات؛ لأنّ الله تعالى رحيم بعباده، سواءً

---

(١) بحار الأنوار: ٨٩: ٢٣١.

(٢) بحار الأنوار: ٨٩: ٢٤١.

(٣) الإسراء ١٧: ٢٠.

(٤) الأحزاب ٣٣: ٤٣.

كان العبد كافراً أو مؤمناً ، فإنّ رحمته تسع جميع عباده ، لكنّ رحيميّته خاصّة بعباده المؤمنين الذين يرتبطون به ، ويتوقون إلى فضله ، ويستمطرون عطائه ، وقد وردت بعض الآيات التي يظهر منها شمول الرحيميّة لغير المؤمنين ، قال تعالى : ﴿**إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾(١) .

الرحمن صفة لله مختصّة بالذات

جمعت البسملة ثلاثة أشياء :

١ ـ لفظ الجلالة .

٢ ـ لفظ الرحمن .

٣ ـ لفظ الرحيم .

أمّا لفظ الجلالة فقد شرحناه ، وذكرنا أنّه دالّ على استجماع الذات لجميع صفات الكمال والجمال ، وتنزّهها عن جميع ما لا يليق بقدسيّتها من النقائص ، ونريد أن نعطي هذا المعنى شيئاً من الإيضاح في الأبحاث الآتية .

وأمّا لفظ الرحمن فهو كلفظ الجلالة ، أي أنّه من الأسماء التي لا تطلق على غير الله تعالى ، قال تعالى : ﴿**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾(٢) ، وقال العلماء : إنّ الرحمن صفة عامّة لله تعالى مختصّة بالذات المقدّسة ، ولا تطلق على غيره تعالى .

أمّا الرحيم فهي صفة عامّة ، تطلق على الله تعالى وعلى غيره ، وكلّ مَن عنده شفقة على غيره يوصف بالرحيم ، بمعنى أنّه يشترك مع الله تعالى في الاتّصاف بهذه الصفة وإنْ كان أصلها منه تعالى ؛ إذ أنّ كلّ كمال وجودي حقيقته

---

(١) البقرة ٢ : ١٤٣ .

(٢) الإسراء ١٧ : ١٠٨ .

من الله تعالى ، ولكن عندما نقول إنّ الرحمن صفة مختصّة بالله تعالى لكونها لا تطلق على غيره تعالى ، أمّا الرحيم فإنّها صفة تطلق عليه وعلى غيره .

أثر صفتي الرحمن والرحيم

إذن الرحمن صفة خاصّة لله تعالى ، ولا يوصف بها غيره تعالى ، فلا يصحّ إطلاق الرحمن على غير الله تعالى ، بخلاف الرحيم فإنّها صفة عامّة يصحّ إطلاقها على غير الله تعالى ، والأثر للصفتين أنّ الرحمن يشمل جميع وجملة مفردات عالم الوجود ، أمّا الرحيم فإنّ أثره يختصّ بمن سار على طريق الهدى .

أثر الدعاء بالرحمانيّة

ذكر الله تعالى الرحمن والرحيم في آيات متعدّدة ، وفيها إشارات وإيماءات لإيصال من أراد أن يستفيد من الاسمين إلى الله تعالى ، قال تعالى : ﴿**قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَانَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾(١) ، وأمره تعالى بالدعاء بالاسمين له ميزة ، أمّا الدعاء بلفظ الجلالة لأنّه أعظم الأسماء ، وأمّا الدعاء بالرحمن فإنّ ميزته الخاصّة تهمّنا في بحثنا الذي نركّز فيه على المسلك الأخلاقيّ والعقديّ ، وذلك أنّ من أراد أن يصل إلى الله تعالى ، فإنّ عليه الدعاء بالاسمين المباركين أوّلاً باسمه الرحمن ، ومن ثمّ باسمه الرحيم .

قد يتساءل بعض لماذا يكون الدعاء باسم الرحمن يوصل الإنسان إلى الله تعالى ؟

والجواب : لعدم اختصاص أثره بالمؤمن ، ولا بالمطيع ، ولا بمن سار في الصراط المستقيم ؛ لأنّ الرحمانيّة عامّة ومددها شامل لجميع وجملة مفردات الوجود ، فإذا حصل تقصير من الإنسان ودعا الله تعالى برحمانيّته فقد جعل نفسه إحدى مفردات

---

(١) الإسراء ١٧ : ١٠٨ .

الوجود التي تشملها الرحمانيّة، وحينئذٍ يكون قد حقّق التأهّل وجعل لنفسه قابليّة تلقّي الفيض الإلـٰهيّ، أي أنّه عندما دعا بالرحمانيّة أصبح دعاؤه بالرحيميّة مؤثّراً وموجباً لحصول الفيض الخاصّ بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾(١)، وهذا مطلب جدّ هامّ، يستفيد العلماء منه في أبحاثهم الأخلاقيّة.

استيلاء الله تعالى على الخلق برحمانيّته

أفصح القرآن الكريم عن معنى استيلاء الحقّ تعالى على الخلق بالرحمة الرحمانيّة، قال تعالى: ﴿**الرَّحْمٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾(٢)، والاستواء في الآية بمعنى الاستيلاء، وقد جاء ذلك في الروايات، والتعبير جدّ لطيف يشرح سيطرته تعالى على جميع مخلوقاته برحمانيّته لأنّه تعالى هو الذي أمدّهم وأعطاهم وليس هناك موجود لا يحتاج إلى مدد وعطاء، وعطائه تعالى برحمته الرحمانيّة.

الارتباط التكامليّ بالعلم

الثاني العلم الذي يوجب تقدّم الإنسان وارتباطه بالرحمانيّة، ﴿**الرَّحْمٰنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ**﴾(٣)، أي خلقه تعالى وعلّمه البيان، قال تعالى: ﴿**خَلَقَ الْإِنسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾(٤)، وللرحمانيّة تأثير في الجانب التكامليّ لكونها ترتبط بالعلم، ولا يمكن للإنسان أن يرتقي دون علم، ولهذا فإنّ استيلاء الله تعالى على الخلق برحمانيّته، وتعليمه لخلقه برفع مستواهم برحمانيّته أيضاً، وفي القرآن الكريم إشارات لهذا المطلب، وكذلك في أدعية أهل البيت عليهم السلام إبانة وإفصاح له، خصوصاً

---

(١) الأحزاب ٣٣: ٤٣.

(٢) طه ٢٠: ٥.

(٣) الرحمن ٥٥: ١ و ٢.

(٤) الرحمن ٥٥: ٣و ٤.

ما جاء في دعاء كميل : «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**» ، فإنّ الرحمة هنا ليست الرحيميّة الخاصّة بالعباد المؤمنين السائرين في طريق الهدى وإنّما بالرحمانيّة .

كيف تحقّق آثار الرحمانيّة

ولهذا كثر في تعبيرات الأدعية يا رحمن يا رحيم ، وفي بعض الأدعية يكرّر ذلك سبع مرّات أو عشر مرّات ليكون للدعاء أثر استجابة ، وذلك أمر طبيعيّ ؛ لأنّه بالرحمانيّة يحصل التأهّل فيستجيب الرحيم إذا دعاه العبد سبعاً أو عشراً قائلاً : « **يا رَحْمٰنُ يا رَحِيمُ** » ، وكذلك جاء : « **يا رَحْمٰنَ الدُّنْيا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُما** » إنّ الله تعالى رحمن بنحو مطلق في الدنيا والآخرة ، ورحيم أيضاً ، غير أنّ الرحيميّة لها شرائط ، منها : الاستجابة للطاعة لأنّها لا تستحقّ إلّا لمن تأهّل بخلاف الرحمانيّة ، فهي فيض عامّ يشمل مفردات الوجود ، وعليه نتعلّم من البسملة مطلباً أخلاقيّاً سلوكيّاً وتربويّاً في إيصالنا إلى الله تعالى عبر دعائه والتوسّل به ، وأنّه بمجرّد أن يضلّ الإنسان طريق الصواب يتاح له بدعائه بالاسمين أو بالصفتين الرجوع إلى الهدى .

الفرق بين الاسم والصفة

يحسن هنا أن نوضّح الفرق بين الاسم والصفة ؛ إذ يتكرّر عندنا الأسماء والصفات ، صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى ، ما هو الفرق بينهما ؟ يرجع الفرق إلى اللحاظ ، فإذا أطلقنا الاسم فيراد به معنيان :

الأوّل : التدليل على الذات بلحاظ اتّصافها بوصف ، أي أنّ الاسم دلّ على ذات متصفة بوصف من الأوصاف ، وذلك هو الاسم .

الثاني : لا يلحظ فيها التدليل على الذات بل على الوصف مجرّداً .

وعليه فإنّ الفرق بين الأسماء والصفات لحاظي ، ولهذا ورد أنّ الله تعالى يُدعى بصفاته وأسمائه أو بأسمائه الحسنى وصفاته العلا .

أمّا الصفة فعندما تطلق فإنّ المراد بها معناها بغض النظر عن أن يكون الوصف دالّاً على ذات من يقوم به ، بل يشير إلى معنى من المعاني كالحرفة بخلاف الاسم فإنّه يدلّل على معنيين ذات متّصفة بوصف .

هل الرحمن والرحيم صفات أم أسماء ؟

في البسملة اسم للذات المقدّسة مع وصفين هما الرحمانيّة والرحيميّة ، غير أنّه يصحّ أن تكون الصفات أسماء والأسماء صفات ، لما تقدّم أنّ الفرق بين الأسماء والصفات باللحاظ ، أي أنّ الفارق لحاظي حيثيّ ، ومع ذلك فإنّ المراد بالرحمانيّة والرحيميّة هنا هو الوصف وليس السمة التي تدلّل على السموّ والرفعة ، غير أنّ الوصف أو الصفة لا بدّ أن تكون دالّة على شيء بعينه ملحوظ في الدلالة قهراً ، أي أنّه لو حلّلنا معنى الوصف لوجدنا له لازماً يقترن به ولا ينفكّ عنه ، وهو الموصوف ؛ إذ لا وصف دون موصوف ، ولا بدّ أن يكون الموصوف قبل الصفة لتكون دالّة عليه ، وقد أفاد علماء العربيّة أنّ الوصف إخبار في المعنى فهو إخبار عن الذات باتّصافها بصفةٍ مّا ، وفي مقامنا فإنّ الرحمانيّة والرحيميّة بمثابة الخبرين عن الله تعالى ، والمعنى أنّه تعالى رحمن رحيم ، ولهذا كان للبسملة تأثير عظيم لا حدود له .

من أسرار الابتداء بالبسملة

يُبدأ بالبسملة في الدعاء لتؤثّر في الاستجابة ، ويبدأ بها في كلّ عمل ليرتبط بالحقّ تعالى ، وليكون له درجة من الثبات والبقاء ، خصوصاً في الأُمور المعنويّة ، أي إذا أراد أحد أمراً معنويّاً فإنّه يحتاج إلى البسملة ليكون ذلك الأمر المعنويّ

مرتبطاً بالله تعالى .

الآثار الوضعيّة للبسملة

للبسملة فوائد جمّة ومتعدّدة ، ولها آثار وضعيّة ، ولهذا عبّر عنها بأنّها أقرب إلى الاسم الأعظم من سواد العين إلى بياضها ، فإذا بسمل المرء فقد ارتبط وربط عمله بالله تعالى ، ولهذا يحصل لمن بسملَ حالة معنويّة مؤثّرة ، خصوصاً لمن يفقه معناها ، إنّ فيها شفاء الأمراض والعلل والتوفيق لإكمال العمل والبركة في إنمائه ، إلى غير ذلك من الآثار ، حتّى أنّ العلم أثبت بعضاً من آثارها ، وقد أوجب الشارع المقدّس ذكر اسم الحقّ لتذكية اللحم ، وأشارت الأبحاث العلميّة إلى أنّ ذكر اسم الله على اللّحم طهارة معنويّة للّحم ؛ إذ تقلّ نسبة البكتيريا الضارّة ويصبح اللحم مفيداً وغير ضارّ بتناوله ، بخلاف اللّحم الذي لم يذكر اسم الله عليه ، وقد أجرى بعض العلماء تجربة على الماء أثبت فيها أنّ الماء الذي يذكر اسم الله عليه يختلف عن غيره ، فيصبح مفيداً للإنسان لوجود طاقة كبيرة مفيدة للإنسان فيه ، وقد أفاد العالم اليابانيّ (ماساروا إموتو) في كتابه رسالة من الماء (*The Messege from Water*) أنّ أفضل بلّورات الماء ما ذكر عليه البسملة .

إطلاق الرحيم على غير الله

بقي شيء هو أنّ الرحيم إذا أطلق على غير الله تعالى وقيل فلان رحيم ، وكذلك الرحمن أيضاً ، فإنّ المعنى لهما هو الانفعال ؛ إذ هما من الشفقة والتأثّر بحال المرحوم الذي يستدعي العطف وإسباغ الرحمة ، لكنّ الأسماء والصفات إذا أُطلقت على الحقّ تعالى فهي ليست بهذا المعنى ؛ لأنّ الله تعالى لا يتأثّر بأحد ، ولا يؤثّر فيه أحد .

وينبغي أن يُعلم أنّ الرحيم إذا أطلق على غير الله تعالى ، فإنّ فيه شيئاً من التأثّر ،

أمّا الحقّ تعالى فلا يتأثّر بشيء، بل هو المؤثّر الحقيقيّ في الأشياء، وعندما يصف نفسه بالرحمن الرحيم، فإنّ الوصف الذي يطلقه الحقّ على نفسه له معنى دقيق يتّضح من خلال فهم أنّ الأسماء والصفات لله تعالى لا تطلق عليه إلّا إذا أتت منه، أو ممّن ارتضاه كأنبيائه ورسله وأوليائه فهم الذين يصفونه كما ينبغي، أمّا غيرهم فإذا أطلق اسماً أو صفة على الحقّ تعالى فلا يعبّر عن الحقيقة بتعبير حقّ؛ لأنّه لم يصل إلى تلك المرتبة من الإحاطة الوجوديّة التي تقتضي أن يكون إطلاقه صحيحاً، قال تعالى: ﴿**سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ * إِلَّا عِبَادَ اللهِ الْمُخْلَصِينَ**﴾[1]، أي أنّ الأوصاف التي يطلقها غيره تعالى على ذاته فيها شيء من المحدوديّة، بخلاف الأوصاف التي يطلقها الحقّ على نفسه أو يطلقها المخلَص، أي المجتبى المستخلَص، فإنّ إطلاق هؤلاء الأوصافَ على الله تعالى تتناسب مع ما يريده الحقّ تعالى.

وقد وردت إشارات في القرآن الكريم ترفع المحدوديّة عن الصفات والأسماء التي تطلق على ذاته تعالى من خلال قرن الأوصاف والأسماء بالتسبيح لله تعالى كي لا تشاب بشيء من المحدوديّة نتيجة محدوديّة الْمُطلِق، ومحدوديّة اتّصاله بعالم الإمكان، وذلك أنّ حقيقة الذات المقدّسة لا حدّ لها، بل أنّ حمده تعالى يقرن بتسبيحه ليدلّل على تنزّهه عمّا لا يمكن أن يتّصف به لأنّ الحمد وصف للمحمود يشاب بشيء من محدوديّة الواصف للحامد، وكي يتخلّص الحامد من المحدوديّة يقرن حمده بتنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به من محدوديّة.

وينبغي هنا الالتفات إلى أنّ الحمد لله تعالى في البسملة (الرحمن الرحيم) لم يقرن بالتسبيح؛ لأنّ الإطلاق جاء من قِبل الله تعالى، وإذا وصف الله تعالى نفسه فإنّ أوصافه دالّة على عدم محدوديّة ذاته.

---

(١) الصافّات ١٥٩ و ١٦٠.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢﴾

معنى الحمد

الحمد هو الثناء لله تعالى على الجميل الاختياريّ، عندما نحمد شيئاً فإنّنا نسبغ ثناءً على ذلك المحمود، والحمد ثناء باللفظ على جميل اختياريّ، والمراد من الاختياريّ أنّ تلك الصفة التي يتّصف بها فيها جمال وكمال، والتي يُحمد عليها ليست آتية من غيره، بل هي أمر طبيعي له. إذن الحمد ثناء لفظيّ على جميل بالاختيار، أي ليس بالقسر والإكراه.

الفرق بين الحمد والمدح

هناك ثلاثة ألفاظ ينبغي أن نفرّق بينها هي: الحمد والشكر والمدح، المدح أعمّ من الحمد؛ إذ نمدح شيئاً سواءً كان كماله بالاختيار أو بغير اختيار، فعندما نمدح عالماً نثني على علمه، رغم أنّ العلم جاء بالجهد وبنحو من الاختيار، وهو التعلّم، فمدحناه وأثنينا عليه لعلمه، فصحّ أن يقال حمدناه، أي أثنينا عليه بجميل اتّصف به وهو العلم، وقد أتت الصفة بطريق اختياريّ، وأمّا إذا اتّصف شيء بوصف قهريّ -كاتّصاف اللؤلؤ بالصفاء- فلا يصحّ أن يحمد اللؤلؤ لصفائه؛ لأنّ صفاء اللؤلؤ ليس اختيارياً، بل هو صفة تلازمه على نحو القسر. نعم، يصحّ أن نقول: مدحت اللؤلؤ، وبهذا اتّضح الفرق بين الحمد والمدح، وأنّ المدح أعمّ لأنّه يشمل الأمر الاختياريّ وغيره.

الفرق بين الحمد والشكر

أمّا الحمد والشكر، فإنّ الشكر يختلف عن الحمد؛ إذ أنّه يأتي باللفظ والعمل، أمّا أنّ الحمد فإنّه لا يأتي إلّا عن طريق الألفاظ، بخلاف الشكر فهو ثناء يأتي

عن طريق اللفظ والعمل، فيكون أعمّ من الحمد، ولهذا نطلقه على الإنسان إذا قام بالفرائض، وأدّى الواجبات وترك المحرمات، نصفه بالعبد الشاكر لكونه يثني على الله تعالى بالفعل، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾(١)، أي أنّ الله تعالى مدح بعض عباده لكونه يثني عليه بالفعل والقول، وكي يتّضح ذلك فإنّه عندما ننظر إلى أكثر الناس نراهم يحمدون الله تعالى، ولكنّهم لا يشكرونه، أي لا يسيرون في صراطه المستقيم، بَيْد أنّهم يقولون: الحمد لله ربّ العالمين.

وهناك معنىً آخر للشكر هو التناسق بين فعل الشاكر ومدحه اللفظيّ، أي أنّ عمله يتناسب مع المشكور، أمّا الحمد فهو ثناء باللفظ فقط، وإنِ اتّصف بمعنى دقيق، وهو أنّ الحمد هو الهداية، أي أنّه الطريق للعلم بالمدح والشكر، ذلك أنّ الإنسان يتعلّم أوّلاً الحمد، ويسبغه على غيره لكونه غير قادر أن يؤدّي بالفعل، لكنّه عندما يترسّخ الحمد في عمق وجدانه ينمو معرفيّاً، ويستطيع حينئذٍ أن يكون شاكراً.

ولعلّه لهذا ورد في السورة بعد الوصفين ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ**﴾، أي الثناء المطلق، والألف واللام هنا إمّا للجنس أو للاستغراق، وإن كان المعنى واحد، أي أنّ الجنس يفيد الاستغراق، والحمد بجميع أنماطه وأشكاله يرجع إلى الحقّ تعالى، فهو الذي منح النعم لجميع عوالم الوجود، وإذا أدركنا المعنى الدقيق للحمد، وهو أنّه بداية تعلّم الإنسان وفقهه ليثني على الجمال، ويسبغ عليه ثناءً ومدحاً؛ لأنّ من لا يدرك الجمال لن يستطيع أن يثني عليه، فلا يمدح عالماً إلّا إذا عرف بالعلم، ولا كريماً إلّا إذا عرف بالكرم، وهكذا الحال في بقيّة صفات الكمال والجمال.

---

(١) سبأ ٣٤: ١٣.

اللام الجنسيّة واللام الاستغراقيّة

قلنا إنّ الألف واللام هنا إمّا للجنس أو للاستغراق، والمآل واحد؛ إذ الجنس بمعنى أن تكون حقيقة الحمد والثناء من الله تعالى وترجع إليه، والاستغراق يراد به أنّ جميع مفردات الحمد منه تعالى، لكن الاستغراق يشار به إلى الأفراد، وأنّ كلّ مفردة من الثناء على حدة فهي له، أمّا الجنس فيراد به الحقيقة.

فيض الله تعالى وعطاياه اختياريّة

إنّ العطايا والمنن التي أفاضها الله تعالى على عالم الوجود صادرة منه بالاختيار؛ إذ لا تستطيع قدرة في الوجود أن تقسره تعالى على العطاء، فهو القاهر لعباده، وعباده مقهورون لقدرته، وكلّ عطاء ومنحة من الله تعالى.

نعم، بعض المنح والعطايا لا ندرك الجانب الجماليّ أو الكماليّ فيها لكنّها في حقيقتها جميلة، قال العلماء: إنّ الجانب اللّاجماليّ في الأشياء، وفي بعض مفردات الوجود، يعود إلى جهة نقص فيها لمحدوديّتها، ولهذا إذا أدركنا شيئاً نجد أنّ الكمال يشير إلى جماله، وقد مثّلنا بعلم العالم، وبحلم الحليم، أو رحمة الرحيم، وكلّ صفة من الصفات السابقة دالّة على كمال، وإذا رأينا شخصاً تجرّد عن هذه الأوصاف ولم يتّصف بالحلم ولا الرحمة ولا العلم، فذلك لجهة نقص لا كمال، واللّاكمال بوجه يشير إلى جهة كمال وجمال موجودة في غيره، وإذا قيل: الحمد لله ربّ العالمين فهو بمعنى أنّ كلّ صفة من صفات جماله وكماله تتّصف بها الذات؛ إذ لو لم تكن الصفات الجماليّة والكماليّة لدى الذات لاستحال أن تكون عند غيره، لكنّها موجودة في ذاته المقدّسة على نحو مطلق لا حدّ له، أمّا في غيره من الموجودات فتحيطها المحدوديّة والنقص، وعندما نمدح شخصاً أو نحمد شيئاً نحمده لوجود تلك السمة والصفة الكماليّة فيه، فنسبغ الحمد على الحليم لحلمه، والعليم لعلمه، والشاعر لشاعريّته، والرسّام لفنّه، وهلمّ جرّاً، لكن نهاية المطاف

ترجع إلى الله تعالى لأنّه هو من أسبغ عليها الكمال، وأفاض عليها الجمال، ولو لم يكن الحقّ تعالى أعطاها لما صحّ لنا وصفها بالحمد.

إذن لقولنا: الحمد لله ربّ العالمين لحاظان:

الأوّل: أنّه مصدر جاء من معطٍ هو الله تعالى، الذي أسبغ نعمه الظاهرة والباطنة وأفاضها على الشيء المحمود.

الثاني: هو أنّ حمد المحمود لأجل تلك السمة والصفة الكماليّة التي اتّصف بها، وهي جميل اختياريّ.

حيثيّات الحمد

أكّد أئمّة أهل البيت عليهم السلام على بعض الحيثيّات:

الأُولى: مرجع الحمد لله تعالى

قولنا: الحمد لله ربّ العالمين أو الحمد لله فقط، نجمع فيه جميع المحامد ونجعلها لله تعالى؛ لأنّ (الـ) إمّا للاستغراق أو للجنس، ولم يبق شيء من الحمد إلّا وهو راجع إليه تعالى، وقد أراد الأئمّة عليهم السلام أن يرسّخوا هذا المعنى بنحو عمليّ ليكون نبراساً لغيرهم، ففد ضاعت دابّة للإمام الصادق عليه السلام، فقال لأصحابه: لئن رجعت إليّ هذه الدابّة لأحمدنّ الله بجميع محامده، فما لبث هنيئة إلّا وجيء بها، فقال عليه السلام: الحمد لله، ولم يزد على ذلك شيئاً، فتعجّب بعض أصحابه وقال: ألم تقل إنّك ستحمد الله تعالى بجميع محامده؟ فقال الإمام عليه السلام مجيباً: لم أبق شيئاً من الحمد وإلّا رجع إلى الله [١]؛ لما تقدم أنّ الألف واللام إمّا للاستغراق فتشير إلى جميع مفردات الحمد، أو للجنس فتستوعب الحقيقة.

الثانية: المستحقّ لحقيقة الحمد

---

(١) لم أجد هذه الرواية يرجى كتابة المصدر.

وإذا كانت (الـ) للجنس تكون أبلغ لأنّ (الـ) الجنسيّة تشير إلى أنّ حقيقة الحمد صادرة من لدن الذات، أمّا إذا جعلناها للاستغراق فمعناها أنّ كلّ حمد يرجع إلى الله تعالى في المآل، وذلك يحتاج إلى تأويل، بخلاف الرجوع إلى الله تعالى لكونه منه، فإنّ دلالة (الـ) على أنّ جنس الحمد من عند الله تعالى فيه نحو من الإفصاح والبيان.

نقطة الافتراق والاتّحاد بين الحمد والشكر

في بعض الأحايين قد نطلق الحمد ونريد به الشكر، كقولنا: «لأحمدنّك شاكراً لأنعمك»، فإنّ الحمد هنا يراد به الثناء على الله تعالى والشكر له بإزاء نعمة من النعم، فيثنى عليه لأداء شكر تلك النعمة، غير أنّ الأصل في الحمد أنّه ثناء لا يراد به الشكر.

ولهذا عندما نقول: الحمد لله ربّ العالمين أي أنت المحمود على كلّ حال، إنْ أعطيتني حمدتك، وإنْ منعتني فأنت المحمود، وذلك هو الثناء على الكامل لأنّ الله تعالى مصدر الكمال، والحامد لا يلحظ وجود نعمة ثمّ يحمد الله تعالى، بخلاف الشاكر فإنّه يلحظ وجود نعمة ثمّ يثني عليه تعالى.

إذن هناك فارق بين الحمد والشكر، وعبّر تعالى بـ الحمد لله ربّ العالمين كي يتاح لمن يريد أن يسير في طريق الله تعالى أن يكون مساره على جادّة الصواب؛ لأنّه أدرك معنىً دقيقاً، هو أنّ الله تعالى ـ سواءً أعطاه أو لم يعطه ـ يستحقّ الثناء لأنّه كامل، بل هو مصدر الكمال، أنعم على الحامد أو لم ينعم، ولما يُثْنى على الله تعالى لكونه تعالى كاملاً سيتحقّق حينئذٍ الدرجة الأُولى التي تجعله شاكراً لأنعم الله تعالى فيدرك عملاً أنّ قوله: الحمد لله ربّ العالمين أنّ كلّ كمال تتّصف به الذات وهو راجع إليها، ومن ذلك يصبح لديه سمة الشكر وصفته، أي أنّ الحمد يجعل الإنسان شاكراً لله تعالى في النهاية.

سرّ التعبير بالحمد

ولعلّ هذا يوضّح ما ورد في الروايات القائلة إنّ أوّل ما يدخل الجنّة الحامدون ؛ لأنّ الحامد عرف أنّ الذات المقدّسة هي مصدر لكلّ كمال فأصبح شاكراً ، وهذا معنى دقيق لمن أراد أن يسير في المسار التربويّ حتّى يصبح كاملاً في نفسه ، وأنّ الكمالات ـ سواءً كانت لديه أو عند غيره ـ ترجع إلى الذات بنحو طبيعيّ. نعم ، من يعمل بها في الطريق الذي يحبّه الله تعالى يكون شاكراً لله تعالى . إذن الرقيّ المعنويّ لا يتأتّى إلّا بالحمد ، والتكامل في المجال الأخلاقيّ والنفسيّ والمعرفيّ لا يكون إلّا به .

العلاقة بين الحمد والكمال التربويّ

الله تعالى هو مصدر الكمال لأنّه أوجد الإنسان وأفاض عليه النعم ، واللسان الذي نثني به عليه هو الذي أنطقه ؛ إذ هو مجرّد عصب أو لحم كسائر اللحم لكنّه ينطق بالثناء على الله تعالى ، وهو نعمة من نعمه تعالى يستحقّ عليها الحقّ الثناء والشكر ، ولهذا جاء في دعاء الإمام السجّاد عليه السلام : « **فَكُلَّما قُلْتُ لَكَ الْحَمْدُ وَجَبَ عَلَيَّ لِذٰلِكَ أَنْ أَقولَ لَكَ الْحَمْدُ** »[١] ، أي كلما أثنيت عليك استحققت مزيداً من الثناء لأنّه أدرك كمالاً ، وتوفّق لنعمة ؛ إذ أنّه ذكر الله تعالى وأثنى عليه ، فوجب عليه بذلك حمداً آخر وهو معنى كلّما قلت لك الحمد وجب علَيَّ بذلك أن أقول لك الحمد .

منتهى الكمال الإنسانيّ إدراك الحمد لله ربّ العالمين

في الحمد لله ربّ العالمين معنى رائع وجميل ، هو أنّ الإنسان كلّما وصل إلى كمال ، فإنّ نهايته ثناء ومدح ، ولهذا فإنّ أهل الجنّة في نهاية المطاف يحمدون الله

---

(١) الصحيفة السجّاديّة : دعاؤه عليه السلام في مناجاة الشاكرين .

تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(١)، أي حتّى من وصل إلى قمّة الرتب فإنّ النهاية هي الحمد لله ربّ العالمين.

النظرة الإيجابيّة للإنسان تؤدّي للتكامل المستمرّ

وإذا أدرك الإنسان حقيقة الحمد فإنّه يتكامل بنحو طبيعيّ؛ لأنّه يدرك الجانب الإيجابيّ للإنسان؛ إذ أنّه يعيش بين جنبتين:

الأُولى: النظر إلى الأشياء بنحو سلبيّ.

الثانية: النظر إليها بنحو إيجابيّ.

والنظرة الإيجابيّة تؤدّي إلى التكامل باستمرار، أمّا النظرة السلبيّة فتؤدّي إلى الهبوط والتسافل. إذن الحمد يعلّم الإنسان النظرة الإيجابيّة؛ ذلك أنّ الإنسان عندما يقول: الحمد لله ربّ العالمين ينظر إلى كمال الله تعالى، وإلى الكمالات في عالم الإمكان، ثمّ يثني على الله تعالى الذي أفاض النعم وأغدق العطايا، وهذا إدراك للجانب الإيجابيّ فيدعو فيستفيد من ذلك؛ لأنّه نظر أنّ النعمة من عند الله تعالى، فينفق المال في سبيله تعالى، ويفيض علمه على الآخَرين ممّا يؤدّي به إلى التكامل باستمرار، فلا يقف عند حدّ، (اللّايقفي في عالم الإمكان).

كيف تخلق النظر الإيجابيّة في حياتك؟

إنّ الإنسان وإن فقد كلّ شيء إلّا أنّه يبقى لديه الفكر، فإذا فقد فكره انتهى، أمّا ما دام مفكّراً فإنّه سيثني على الله تعالى، فيتكامل بذلك، وقد أشار بعض الأُدباء إلى هذا المعنى فقال: كن جميلاً ترى الوجود جميلاً، أي أنّك ما دمت تنظر إلى عطايا الله تعالى ومنحه سوف تتحوّل النقم إلى نِعم، وكلّ مصيبة يثنى على الله تعالى

(١) يونس ١٠: ١٠.

فيها، ويدرك أنّ الله تعالى ابتلاه لمصلحة تعود إلى كماله، وسيؤدّي به ذلك إلى نوع من الكمال، وقد يكون ذلك لا يخصّ المؤمن بل يشمل غيره، إلّا أنّ هذه نظرة عرفانيّة لسنا بصدد شرحها، وما يهمّنا هو النظرة الأخلاقيّة للمؤمن ليرتقي في معرفته لله تعالى، ويطوّر من خدمته له تعالى من خلال الحمد والشكر، ورد في الدعاء: الحمد لله على السرّاء والضرّاء، والحمد على الضرّاء لكونها تؤدّي إلى الكمال كابتلاء إبراهيم عليه السلام بكلمات، قال تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾(١)، وابتلاء النبيّ صلى الله عليه وآله: «**مَا أُوذِيَ نَبِيٌّ مِثْلَ مَا أُوذِيتُ**»(٢).

إذن كلّ كمال ـ سواءً كان بالابتلاء أو بإفاضة النعمة، وسواءً كانت النعمة بنحو مباشر أو بنحو غير مباشر ـ فإنّ المآل هو الحمد والثناء على الله تعالى؛ لأنّه وفّق الإنسان ليتكامل سامياً.

كيف يكون الله مربّياً لجميع العوالم؟

اتّضح أنّ جميع المحامد ترجع إلى الله تعالى، وهو تعالى ذكر سبباً لرجوع المحامد إليه، هو أنّه ربّ لجميع عوالم الوجود، والربّ في اللغة هو المربّي، ويتضّمن معنى هو أن يكون مالكاً، ومالك الشيء هو من يعتني به بتربيته. إذن العلّة التي من أجلها أنّ له الحمد هي كونه ربّ للعالمين.

الاحتمالات في معنى العالمين

العالمين جمع عالم، ويطلق على كلّ نوع من عوالم الوجود، كعالم النبات والجماد وعالم الإنسان وهلمّ جرّاً، والله تعالى هو المربّي لجميع عوالم الوجود، أي لا يختصّ بكونه ربّاً لعالم الإنسان أو الحيوان، بل هو مربّي لجميع العوالم.

---

(١) البقرة ٢: ١٢٤.

(٢) كشف الغمّة: ٢: ٥٣٧.

نعم، قد يطلق العالمين على الموجودات العاقلة كعالمي الإنس والجنّ، وعالم الملائكة، ولهذا اصطفى الله تعالى مريم على نساء عالمها، وسيّدة النساء الزهراء عليها السلام على نساء العالمين، والمعنى أنّ كلّ زمان وفي كلّ عالم هناك عوالم بعدد الأزمنة، فتكون سيّدة لنساء العالمين، أي لجميع العوالم، وقد أثنى سليمان عليه السلام على الله تعالى وحمده بأن اختصّه بالفضل دون بقيّة العالمين[1]، ولعلّ المراد به ما يعمّ عالمي الإنس والجنّ.

إذن الحمد لله ربّ العالمين يقصد به أحد معنيين:

الأوّل: ما يشمل جميع عوالم الوجود، وهو الأظهر في الآية.

الثاني: ما يختصّ بالعوالم العاقلة الثلاثة: الملائكة والجن والإنس، غير أنّ الأصحّ والأظهر هو أنّ قوله تعالى: الحمد لله ربّ العالمين يشمل جميع وجملة عوالم الوجود ولا يختصّ بالعوالم العاقلة.

اللطف الإلٰهيّ سبب ارتقاء وكمال الإنسان

تبيّن فيما تقدم أنّ لفظة ربّ تتضمّن المالك المربّي، والله تعالى له ذلك لكونه مالك يوم الدين، وله كلّ شيء، قال تعالى: ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾[2]، وقد جيء هاهنا بلفظة الربّ إبانة للإنسان، وتبيان له أن يحمده تعالى لأنّه يستحقّ الحمد لتوليه شؤون العبد وتربيته بإيصاله إلى الكمال، ولله تعالى لطف خاصّ بالإنسان، وهذا اللطف الإلٰهيّ هو الذي يصل به الإنسان، ولولاه لما استطاع أن يصل إلى كمالٍ، وكلّما ازداد الإنسان تأمّلاً أدرك اللطف الإلٰهيّ الذي

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ النمل ٢٧: ١٥.

(٢) البقرة ٢: ٢٨٤.

أوصله إلى كماله ، ونعلم يقيناً أنّ الأشياء جائية من عند الله تعالى كالأوكسجين الذي نتنفّس به ، ولولاه لما استطعنا أن نعيش ، لكون الإنسان بحاجة إليه ، وكذلك الصحّة التي يتمتّع بها كثير من الناس ، ولا يُشعَر بالنعمة أو يدركها إلّا إذا أُصيب بمصيبة ، فيجزع ويفزع لكونه يلتفت إلى جانب النقمة الخاصّة .

فلسفة حمد الله تعالى

عندما يعلم الله تعالى العبد أن يثني عليه «الحمد لله ربّ العالمين» فهو تعالى يبيّن له أمراً غاية في الأهمّيّة ، وهو أنّك تحمد من يتولّى تربيتك ، ولا يتولّى تربيتك بمفردك أو بعالمك وحده الذي تنتمي إليه ، وتنسب له ، بل يتولّى جميع وجملة عوالم الوجود ، ويربّي العالمين جميعاً ، وهناك ارتباط دقيق بين عوالم الوجود ، فكلّ عالم منه يرتبط ببقيّة العوالم ، غاية الأمر قد لا ندرك نحن مدى الارتباط بين العوالم ، وقد لا ندرك التأثير فيما بينها . نعم ، قد ندرك شيئاً بسيطاً وقليلاً كتأثير النبات لكونه يمتصّ ثاني أوكسيد الكربون ويحسن الطقس والطبيعة ، غير أنّ ما لا ندركه من الأشياء الأُخرى لا يعني أنّه ليس لها تأثير في عالم الوجود .

إنّ علماء الحيوان والنبات يدركون وجود توازن بيئيّ بين الطبيعة ، وأنّه يختلّ باختلال بعض عوالمها ، ومن خلال ذلك نعلم أنّ جميع وجملة عوالم الوجود يرتبط بعضها ببعضها الآخر ، وأنّ استقامتها بارتباطها الوثيق فيما بينها ، وقد أفاد الفلاسفة أمراً دقيقاً خلاصته : أنّ كلّ مفردة من مفردات عالم الوجود لها ارتباط بالمفردات الأُخرى ، وأنّ تأثّر أو كمال تلك المفردة يوجب التأثر والكمال لبقيّة المفردات الأُخرى ، قال تعالى : ﴿**وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾(١) ، أي أنّ جميع الأشياء في حقيقة وجودها ترتبط بالله تعالى فهو

---

(١) الإسراء ١٧ : ٤٤ .

المربّي والمالك لها، والقائل: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ﴾ يثني على الله تعالى ويعترف بعبوديّته تعالى، ويفقه أنّه تعالى مالك له، وهو المربّي المستحقّ للحمد.

العلاقة بين الحمد والعبوديّة

والنتيجة أحمد من ربّاني لأنّ جميع العالمين مربوبون له تعالى، وهو المستحقّ للحمد، وذلك اعتراف بعبوديّته تعالى واعتراف بأنّه المستحقّ للحمد دون ما سواه، لأنّ ما سواه ليس كمثله، وهذه دقائق من المعاني تهدي الإنسان الحامد إلى صراط العبوديّة، ولعلّه لذلك كان أوّل من يدخل الجنّة الحامدين لسيرهم في مسار عبوديّة الله تعالى.

الحمد في الروايات الشريفة

أكّدت الروايات على أهمّيّة الحمد في الصباح والمساء، وفي كلّ آناء الليل والنهار، وعند تجدّد كلّ نعمة، ودفع كلّ نقمة، بل وفي الضراء وليس في السراء فحسب، يستحبّ للإنسان أن يحمد الله تعالى، وقد ورد الحمد بأنماط مختلفة ومتعدّدة، كقولنا: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**» و«**حَمْداً كَثِيراً طَيِّباً مُباركاً فِيهِ**» و«**الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلىٰ كُلِّ نِعْمَةٍ كَانَتْ أَوْ هِيَ كَائِنَةٌ**»(١) وأنحاء أُخر من الحمد، ويعود السبب في ذلك أنّ الإنسان حين يصبح فقد اجتاز وقتاً، وهذه نعمة هي نعمة البقاء التي يستطيع بها الإنسان أن يستثمر وجوده ليزداد قرباً من الله تعالى، فيحمده بأشكال مختلفة من الحمد.

تجديد واستمراريّة الحمد

وأكّدت الروايات أيضاً على أهمّيّة تكرار بعض آي القرآن المشتملة على الحمد،

---

(١) ثواب الأعمال: ٩.

كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ * وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيّاً وَحِينَ تُظْهِرُونَ * يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(١) لتشير إلى تجدّد واستمرار النعم من عند الله تعالى، وبالتالي ضرورة إدمان الحمد والثناء عليه تعالى.

ارتباط الحمد باستجابة الدعاء

وكشفت الروايات عن أهمّيّة الحمد في استجابة الدعاء، وأنّ الدعاء لا يستجاب إلّا إذا أثنى الداعي على الله تعالى، ومن أبلغ أنماط الثناء الحمد لله تعالى؛ لأنّه تمجيد لله تعالى، ولهذا جاء في الأدعية الواردة الحمد لله قبل الدعاء والمسألة، ونحن ندرك بطبيعتنا ﴿وَلِلّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾(٢) أنّ من جاء يطلب شيئاً لا يتفاعل وإيّاه بنحو طبيعيّ إلّا بالتواصل معه، ولا يحصل ذلك إلّا بالمدح كقوله: «أنّك من الكرام، تقري الضيف، وتفكّ الأسير، وتعطي الخير»، والله تعالى لكونه المنعم المطلق وجميع وجملة ما في الوجود من نعمه تعالى، فمن أراد أن يحصل على عطيّة وأراد لدعائه أن يستجاب، فإنّ عليه أن يثني على الله تعالى، وأن يصلّي على محمّد وآل محمّد، ثمّ يبدأ الدعاء، وحينئذٍ فإنّ الله تعالى يغدق عليه النعم ويستجيب له الدعاء.

التكامل المنسجم مع مراتب عالم الوجود

يريد الله تعالى أن يعلّم الإنسان كيفيّة التكامل المطّرد والمنسجم مع عالم الوجود بمراتبه المختلفة وأنحائه المتعدّدة، ولهذا أمره بعبادته وشكره وذكره، وأمره بشكر الوالدين؛ لأنّ لهما مرتبة كبيرة في وجوده، قال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي

---

(١) الروم ٣٠: ١٧ ـ ١٩.

(٢) النحل ١٦: ٦٠.

وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾(١)، فرتّب شكرهما على شكره مباشرة، ويتبيّن من هذا أنّ أعظم الشكر للآباء الروحيّين كالأنبياء والرسل والأئمّة عليهم السلام لأنّ لهم الأثر الأعظم في وصول الإنسان؛ إذ لولاهم لما وصل إلى المقام المعنويّ الذي وصل إليه، وقد جاء عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «**أَنَا وَأَنْتَ ـ يَا عَلِيُّ ـ أَبَوَا هَذَا الْخَلْقِ، فَمَنْ عَقَّنَا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللهِ**»(٢)، أي من أراد الإساءة لهما، ويظهر من ذلك أنّه لا بدّ من الثناء والتمجيد لهما، لهذا قال صلى الله عليه وآله: «**لا تصلّوا عليَّ الصلاة البتراء، فقالوا: وما الصلاة البتراء؟**

قال: تقولون اللّهمّ صلِّ على محمّد وتمسكون، بل قولوا: اللّهمّ صلِّ على محمّد وآل محمّد»(٣).

إذن علينا أن نلتفت إلى هذا المعنى، وأنّ شكر الأبوين بعد شكر الله تعالى لارتباط ذلك بعطائهما العطاء الضخم والكبير الذي يقدّمانه، خصوصاً ما تقدّمه الأمّ، أمّا شكر الأنبياء والرسل والأئمّة عليهم السلام لأنّ تكامل الجانب المعنويّ في شخصيّة الإنسان بالتعاليم الجائية منهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ذلك أنّ عالم الخليقة يحتاج بعضه إلى بعضه الآخر، وتلك سنّة تكوينية فلا يستطيع أحد أن يستغني عن أحد، والازدياد في ذلك مربوط بالشكر، وكلّ رئيس ومرؤوس لهما رتب مختلفة، ومن أراد التكامل في سلّم الرتب عليه أن يقدّم الثناء والشكر لمن يرأسه ليتقرب إليه، وهذا الأمر ليس مقبولاً فحسب، بل أُمر به، فمن أحسن إليك لا بدّ أن تقدّم له ثناءً وشكراً، وإذا لم تفعل لم تشكر الله تعالى، ومن أراد لأبنائه أن يتألّقوا فعليه تعلّم الثناء والتمجيد والشكر لمن أحسن إليه، قال تعالى:

---

(١) لقمان ٣١: ١٤.

(٢) بحار الأنوار: ٣٤: ٣٣٣.

(٣) شرح إحقاق الحقّ للسيّد المرعشي: ٣: ٢٧٤.

﴿**هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ**﴾(١)، ومن لم يفعل ذلك فقد أنكر الجميل، وسوف تغلق الأبواب أمامه، ولعلّه أحد المعاني لقوله تعالى: ﴿**لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**﴾(٢).

ولهذا رُبط تحديد معنى الحمد لله ربّ العالمين" بالمبحث من الناحية الأخلاقيّة، وعلى الأُستاذ أن يتعامل مع تلامذته من خلال هذا المبدأ، وهكذا على الأبوين أن يتعاملا مع أبنائهما بالتأكيد على احترام الأُستاذ، وعدم الإساءة إليه، بل الثناء عليه وتمجيده، وقد ذكر أُستاذنا الشيخ الوحيد في درسه بعض الآثار الوضعيّة لتلميذ مع أُستاذه، فقال: كان أحد الأساتذة دقيق النظر، ويأتي بمسائل عويصة، ومن الواضح أنّ التلميذ يتطوّر باستمرار بكثرة حضوره حتّى يطبخ على نار هادئة، خصوصاً إذا كانت نيّته خالصة لله تعالى في حضور دروسه، فإنّه سيتكامل بشكل تدريجيّ، غير أنّ بعض التلامذة قد يتغلّب عليه الشيطان عندما يصل إلى مرحلة علميّة عاليّة فيرى نفسه أنّه يفهم المسائل بشكل دقيق، فيغترّ بنفسه، بل قد يرى أنّه أفهم من أُستاذه، وفي مثالنا طرح الأُستاذ مسألة ثمّ عقّب قائلاً: وفي المسألة نظر، فقال التلميذ: لا نظر فيها، بل هي صحيحة، فردّ الأُستاذ بقوله: فيها نظر، فقال التلميذ لأُستاذه: في نظرك نظر، بنحو الاستهزاء.

وننبّه هاهنا أنّه لا مانع من مناقشة التلميذ لأُستاذه بنحو علميّ وموضوعيّ وباحترام جمّ لمقام الأُستاذيّة، أمّا إذا لم يحترم فإنّ الله تعالى يزيل بركة العلم، فلا يكون لعلمه فائدة، وهذه مسألة أخلاقيّة ينبغي أن نعلّمها لأبنائنا؛ لأنّهم إذا افتقدوها قد يصابون ببعض الكوارث التي تؤثّر على مستقبلهم العلميّ، وبالفعل هذا ما حصل للتلميذ، فقد خرج من الدرس مصاباً بآفة في ظهره، وكان الأُستاذ

---

(١) الرحمن ٥٥: ٦٠.

(٢) إبراهيم ١٤: ٧.

شيبة فانتقل إلى رحمة الله تعالى ، وبقي التلميذ دون أن يعتذر من أُستاذه ، لكنّه أدرك أنّ عليه تلافي ذلك الخطأ الذي وقع فيه بالإحسان إلى أبناء ذلك الأُستاذ ، فتعجّب منه بعض كيف كان يتعامل مع أُستاذه بعنجهيّة ؟ فأصبح يتعامل مع أبناء أُستاذه بتواضع وخلق ، لكنّه تعلّم من تلك الإساءة درساً أثّر على حياته بأجمعها .

إنّ مسألة الحمد لله ربّ العالمين من المسائل الأخلاقيّة الكبيرة ، ويهمّنا في هذا التفسير أن نفقه الحيثيّات الأخلاقيّة من معاني الآيات ، فكلّ آية لها مسار أخلاقيّ ، إذا فُهم ذلك المسار الأخلاقي استطاع المؤمن أن يجسّده في سلوكه .

تقاطع الحمد مع الشكر

يتقاطع الحمد مع الشكر لكونه ثناء ، وقد ورد في بعض خطب إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام ما يدلّ على هذا التلاقي ، أي أنّ الإنسان قد يحمد الله تعالى شكراً لنعمائه ، ويثني عليه لسبوغ آلائه ، أي يظهر مجد الله تعالى ومدحه ، فيتقاطع الحمد والشكر بهذه الحيثيّة التي ذكرناها .

وللعلماء بحث ، بعنوان (وجوب شكر المنعم بحكم العقل) خلاصته : أنّ من أنعم عليك بنعمة حكم عقلك بوجوب الثناء والشكر له ، وقد قلنا : إنّ الحمد لا يشترط أن يقترن بالنعمة لأنّه ثناء على جميل اختياريّ بغضّ النظر عن كون المنعم أنعم أم لا ، فهو يستحقّ أن يُحمد ، وهنا نريد أن نبحث حيثيّة التقاطع بين الحمد والشكر ؛ إذ أنّ العلماء أفصحوا عن حكم العقل بوجوب الشكر والثناء على المنعم ، ونحن نعلم أنّه لا نعمة ينعم بها غير الله تعالى إلّا وهي راجعة إليه تعالى ؛ لأنّ جميع النعم ـ كما اتّضح من أنّ الألف واللام إمّا للجنس أو الاستغراق ـ راجعة إلى الله تعالى ، وأنّ النعم التي تأتي من غير الله تعالى مصدرها هو تعالى ، والمرء يدرك ذلك أنّ ما به وما لديه وما عنده من نعم فمن الله تعالى .

إذن عقله يدعوه إلى الثناء على الله تعالى وإلى حمده وشكره تعالى ، ولعلّ

هذا هو المعنى الأعمق لقوله تعالى: ﴿**وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا**﴾[١] لكون نِعم الله تعالى كثيرة، وعقلنا يحكم بوجوب الثناء الدائم، والمرء لا يدرك كيفيّة الثناء والمدح والنعمة، والله تعالى يعلّم الإنسان الكيفيّة المثلى لحمده وهي: الحمد لله ربّ العالمين، فيكون الحمد ثناءً على الله تعالى وشكراً له تعالى لكونه المنعم بغضّ النظر عن كونه يستحقّ المدح. نعم، هو يستحقّ أن يُمدح لكنّ حمده بالمعنى الدقيق الذي يتقاطع مع شكره، ألا وهو وجوب معرفته تعالى، كي يثني على الله تعالى لمعرفته به، ولا يثني على مجهول مطلق، من هنا لا بدّ أن تعرفه بنحو ما لتثني عليه، ومعرفة أنّ ما لديك من نعم مصدرها الكامل المطلق صحح الحمد.

إذن استبطن حمده تعالى وجوب معرفته تعالى، وهذا بحث عقديّ أخلاقيّ لارتباطه بالربوبيّة التي تستبطن المالكيّة.

الجانب الربوبيّ للمنعم

هنا بحث أخلاقيّ وهو أنّ الإنسان إذا التفت إلى جانب الربوبيّة واستلزامها المالكيّة والإنعام والعطاء الدائم الذي لا ينقطع عن الإنسان قبل خلقه وبعد خلقه، سيلتفت إلى معنى إجابة دعاء الحامد، قال تعالى: ﴿**فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُم مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ**﴾[٢]. إذن الربّ يستبطن معنى الاستجابة لمن يحمد الله تعالى ويذكر أنّه تعالى يتّصف بالربوبيّة؛ لأنّ المعنى يستبطن إجابة من الحقّ للحامد، ونحن إذا رأينا كلّ الأنبياء سنجد أنّ أدعيتهم التي استجيبت تضمّن دعاؤهم فيها وصف الله تعالى بالربوبيّة حتّى الدعاء على إهلاك القوم كما

---

(١) إبراهيم ١٤: ٣٤. النحل ١٦: ١٨.

(٢) آل عمران ٣: ١٩٥.

في دعاء نوح عليه السلام على قومه: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً﴾[١]، أي أنّ الأعمال التي قام بها الأنبياء وُصف فيها الحقّ بالربوبيّة؛ لأنّ الربوبيّة تتضمّن المالكيّة للحقّ تعالى؛ إذ أنّ الوجود لما سواه ممكن، والممكن كلّه فقر وحاجة إلى مدد يمدّه آتٍ عن طريق ربوبيّة الحقّ تعالى، وهناك آيات قرآنيّة تفصح عن هذا المعنى، وعلى المؤمن إذا أراد الدعاء أن يقول: يا ربّ يا ربّ يا ربّ، أنت الرحيم[٢] كي يستجيب الله تعالى دعائه، قد ورد أنّ الحقّ تعالى يجيبه بالتلبية.

وفي الرواية جاء شخص إلى الإمام الصادق عليه السلام، فسأل الإمام عليه السلام عن أقرب الأسماء لاستجابة الدعاء من الله تعالى؟ فقال له الإمام عليه السلام: ادخل هذا الماء البارد، فدخل في الماء، فلمّا رأى نفسه غير قادر على تحمل الماء البارد [التريكي][٣] قال: يا ربّ خلّصني، يا رب خلّصني، قال له الإمام عليه السلام: يا ربّ يا ربّ أقرب اسم يدعى به الحقّ تعالى لاستجابة دعاء الداعي[٤].

والإمام عليه السلام هنا يعلّمه بنحو عمليّ كيف يمكنه إذا وقع في شدّة أن يفعل، وقد أدرك بوجدانه الفطريّ أنّه بحاجة إلى ذلك المدد الذي لا ينقطع من عند الله تعالى،

---

(١) نوح ٧١: ٢٦.

(٢) وسائل الشيعة: ٧: ٨٦، عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**مَنْ قَالَ: يَا رَبِّ يَا اللهُ، يَا رَبِّ يَا اللهُ، حَتّىٰ يَنْقَطِعَ نَفَسُهُ قِيلَ لَهُ: لَبَّيْكَ مَا حَاجَتُكَ؟**»

(٣) لم أعثر على رواية بهذا المضمون

(٤) لم أجد نصّ عن الامام الصادق عليه السلام و لا عن غيره من الأئمّة عليهم السلام هكذا، وإنّما وجدت النصّ التالي:

عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «**خَرَجَ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام عَلىٰ أَصْحَابِهِ فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ اللهَ جَلَّ ذِكْرُهُ مَا خَلَقَ الْعِبَادَ إِلّا لِيَعْرِفُوهُ، فَإِذَا عَرَفُوهُ عَبَدُوهُ، فَإِذَا عَبَدُوهُ اسْتَغْنَوْا بِعِبَادَتِهِ عَنْ عِبَادَةِ مَنْ سِوَاهُ، فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا ابْنَ رَسُولِ اللهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، فَمَا مَعْرِفَةُ اللهِ؟ قَالَ: مَعْرِفَةُ أَهْلِ كُلِّ زَمَانٍ إِمَامَهُمُ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْهِمْ طَاعَتُهُ**» علل الشرائع: ١: ٩.

فقام يدعوه تعالى بربوبيّته، والدعاء مدد دائم، ولهذا فإنّ (الحمد لله) هو ثناء على الله تعالى لكونه تعالى ربّ العالمين، ولا ذرّة في الوجود إلّا بوجوده تعالى، ولهذا استحقّ الحمد المطلق.

الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾

أسرار تكرار الرحمة

كرّرت الرحمانيّة والرحيميّة لتبيان أمر غاية في أهمّيّته، وهو أنّ الحمد والثناء على الله تعالى مسبّبان عن رحمانيّة الله تعالى ورحيميّته، أي أنّه تعالى وفّق الإنسان لحمده وثناءه وشكره، وأغدق عليه نعمه الظاهرة والباطنة برحمانيّته ورحيميّته، وهذا أمر ينطبق على كلّ المفردات الأُخرى التي يقوم بها الإنسان، بمعنى أنّ مبدأ الرحمانيّة والرحيميّة هامّ في كلّ مجالات الحياة، ومنها المجال التربويّ والأخلاقيّ.

سرّ نجاح النبيّ صلى الله عليه وآله اتّصافه بالرحمة

نلحظ أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله يبيّن السرّ الكامل وراء نجاح دعوته، وقبول الناس لاتّباعه، وهو الرحمة، قال تعالى: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾[1]. إذن يقول الله تعالى: رَحِمَك الرحمن الرحيم، ثمّ تجسّدت الرحمة في أقوالك وأفعالك وأصبحت ليّناً مرناً، لا فضاضة ولا غلظة عندك، ولذا اتّبعك الناس، ولو كنت خشناً لجفل الناس منك وابتعدوا عنك، وذلك أمر طبيعيّ؛ لأنّ الناس يحبّون المتّصف بالرحمة، ومن أهمّ سمات الرحمة

(١) آل عمران ٣: ١٥٩.

المرونة والرفق واللين والانسجام مع الآخرين ، ذلك أنّ الرحيم يحبّ الخير لهم كما يحبّه لنفسه ، ويريده لهم كما يريده لنفسه .

الرحمة مفتاح التكامل الإنسانيّ

إنّ الإنسان لن يصل إلى كماله إلّا بالرحمة ، فإن أغلظ على نفسه فلن يتألّق ولن ينمو ، وستنهار قواه وتتلاشى قدراته بخلاف المرن الليّن مع نفسه ، فإنّه سيتكامل بنحو طبيعي .

الرحمة في المجال العباديّ

لو شدّد الإنسان على نفسه في المجال العباديّ وأتى بجميع الواجبات والمستحبّات وترك المكروهات ، سيدور في فلك ضيّق ، ولن يستطيع أن يقوم ببقيّة الأعباء المناطة به ، وبالتالي سيترك الجانب العباديّ ، لكنّه لو أرفق بنفسه وقام ببعض المستحبّات بشكل تدريجيّ سيتكامل وتنمو شخصيّته باطّراد ، وسيتجذّر الجانب العباديّ بسبب رحمته لنفسه .

الرحمة في المجال التعليميّ

وكذا الحال لو أراد شخص أن يضغط على نفسه في المجال العلميّ سيكره العلم ، لكنّه لو بدأ في مران مع نفسه وعلّم نفسه الصبر والقدرة على التحمّل سينمو نموّاً مطّرداً ، وسيتوق إلى التحصيل العلميّ ، بل سيصبح ذلك جزءً من شخصيّته ، والسبب هو رفقه بذاته .

إذن للرحمة انعكاسات إيجابيّة على النفس وعلى بقيّة مجالات الحياة .

الرحمة في المجال التربويّ

من يقرأ قصص الآباء الناجحين مع أبنائهم سيرى أنّ الناجح مع أبنائه هو

من انتفت الغلظة عن تصرّفاته واتّصف بالرفق والمرونة مع أبنائه لمعرفته بطبيعتهم، وأنّه لا بدّ أن يصدر غلط منهم لكنّه سيغضّ الطرف عن ذلك، وسيتعامل بنحو من المرونة واللين، ومن ثمّ سينبّه على ما ينبغي أن يقوم به الأبناء دون أن يسأم لرحمته بأبنائه، ولهذا سيتألّق الأبناء في المجالات التي تعود عليهم بالخير، لعدم السأم من إسداء النصيحة وتكرار الموعظة، ولهذا قال الإمام عليّ عليه السلام: « **وَمِنْ رَحْمَتِهِ أَنَّهُ خَلَقَ مِائَةَ رَحْمَةٍ، وَجَعَلَ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً فِي الْخَلْقِ كُلِّهِمْ، فَبِهَا يَتَرَاحَمُ النَّاسُ، وَتَرَحَّمُ الْوَالِدَةُ وَلَدَهَا، وَتَحْنُو الْأُمَّهَاتُ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ عَلَى أَوْلَادِهَا** »(١).

إنّ رحمة الأب لا يمكن أن تقاس برحمة الأُمّ لما تتحمّل وتقوم به، ومع ذلك فإنّ رحمتها هي من الرحمة التي جعلها الله تعالى في هذه الدنيا، وادّخر تسعاً وتسعين رحمة يرحم بهم عباده المؤمنين الذين صدرت منهم الزلّات.

الآثار السلبيّة مع فقد الرحمة

ينعكس الأُسلوب التربويّ على شخصيّة الفرد كما تنعكس شخصيّة المربّي والأُستاذ مع تلامذته، والمسؤول مع من تحت مسؤوليّته وإدارته، فإذا كان يتعامل على وفق مبدأ الرفق والرحمة واللين والشفقة ترى أنّ التوفيقات تغمر من معه وتنمو باطّراد، وتزول المعوّقات، والعكس من ذلك صحيح، وكمثال على ذلك ما نشاهده من كوارث بيئيّة كالاحتباس الحراريّ وما يصدر عنه من آثار سلبيّة، فإنّه يترتّب على عدم الرفق والرحمة بالطبيعة. إنّ من لديه رحمة في ذاته وشخصيّته يسير نحو الخير مع الناس ومع مفردات الكون.

الآثار الإيجابيّة للرحمة

﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾،

(١) تفسير الإمام العسكري عليه السلام: ٣٧.

أوجز النبيّ ﷺ مفردة من مفردات الرحمة من خلال تشبيهها بالجمال الذي تزدان به الأشياء، وإذا نزع منها عادت قبيحة، فقال ﷺ: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَمْ يُوضَعْ عَلىٰ شَيْءٍ قَطُّ إِلّا زَانَهُ، وَلَمْ يُرْفَعْ عَنْهُ قَطُّ إِلّا شَانَهُ**»[١]. إنّ من أهداف تكرار الصلاة اليوميّة ترسيخ مبدأ الرحمة؛ إذ تتعدّد قراءة الفاتحة في الصلوات اليوميّة ليتجذّر عمق الرحمة، وقد أُكّد على ذلك بأنّ الصلاة لا تقبل إذا لم يفقه المصلّي كلماتها، ولم يقبل بقلبه على الله، والهدف هو إيصال المؤمن إلى تأثير الصلاة، التي سيتّصف بها بالرحمة وسيرحم غيره؛ إذ أنّ من كرّر شيئاً تأثّر به، لهذا سيكون رحيماً على نفسه وسيفيض الرحمة على غيره.

مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

مالكيّة الله للوجود

﴿**مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ أي مالك يوم الجزاء، وهو يوم القيامة، يجازي فيه الله تعالى الخلائق، وبالرغم من أنّ الله تعالى مالك لكلّ عوالم الوجود لكنّ الآية ركّزت على مالكيّته تعالى ليوم الدين، لسبب سنعرضه بعد أن نبيّن معنى مالكيّته.

أقسام الملكيّة:

الملكيّة على أقسام متعدّدة:

الأوّل: الملكيّة الاعتباريّة

وهي التي يتداولها الناس بالإرث والحيازة والبيع والشراء والهبة وسائر المعاوضات الأُخرى، وهذه ملكيّة اعتباريّة، أي أنّ ملكيّة الإنسان في الحياة الدنيا

---

(١) بحار الأنوار: ١٦: ٢٥٨.

لبعض الأُمور ملكيّة اعتباريّة ، فهو يملك بيتاً ومزرعة وأموالاً ملكيّة اعتباريّة ؛ لأنّ العقلاء اعتبروه مالكاً لها ، وقد تلغى هذه الملكيّة من لدن العقلاء ، ولهذا نجد بعض الأنظمة تلغي الملكيّة الخاصّة ،وتعتبر جميع ما تقدّم ملكاً للدولة ، كالنظام الشيوعيّ ، وهذا اعتبار من لدن المجتمع ، والإنسان بطبعه يدرك حقيقة هذه الملكيّة ؛ إذ أنّ الشيء فيها لا يبقى ولا يستمرّ بل تزول ملكيّته بالغصب والبيع والهبة والموت . إذن إطلاق الملكيّة على الأُمور بهذا النحو يرجع إلى الاعتبار ، ويزول تبعاً للاعتبار أيضاً .

الثاني : الملكيّة الحقيقيّة

النمط الثاني من الملكيّة هو الملكيّة الحقّة أو الحقيقيّة ، كملكيّة الإنسان لأجزاء بدنه ، فهو يملك يديه ورجليه وعينيه وجسده ويتصرّف بها فيما يحبّ ، وهي ملكيّة أرقى من الاعتباريّة لكنّها تزول أيضاً عن الإنسان ،كمن يصاب بحادث فيفقد يده أو عينيه . إذن هذه ملكيّة درجة التصرّف فيها والاستيلاء عليها والانتفاع بها أقوى من الملكيّة الاعتباريّة .

الثالث : الملكيّة القيّوميّة

إنّ الله تعالى يملك الأشياء بنحو يختلف عن الملكيّة الاعتباريّة وعن الملكيّة الحقيقيّة أو الحقّة ، أي أنّه تعالى يملك الأشياء ملكيّة هيمنة واستيلاء وتقوّم ، وحريّ بنا أن نطلق على هذه الملكيّة ملكيّة قيّوميّة ، ومعناها أن لا وجود للملوك إلّا بالعطاء الآتي من مالكه ، ولولا أنّ الله تعالى يعطيه لكان المملوك لا شيئيّة له ؛ لأنّه لا وجود له إلّا بالعطاء الآتي من قِبل الحقّ تعالى .

وكي يتّضح ذلك فإنّ الإنسان إذا رفع شيئاً بيده ، فإنّ كون الشيء مرفوعاً يتوقّف على الرافع ؛ إذ لولا أنّه رفعه لما ارتفع ، ولهذا فإنّه بمجرّد أن يدعه يسقط ،

أي لا يبقى مرتفعاً ، والمخلوقات تماثل ذلك ، ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ﴾[١] فلا وجود لها ولا تقوّم إلّا بالمدد والعطاء الآتي من الحقّ تعالى ، وهذا النمط الثالث من الملكيّة القيّوميّة يتّضح بإدراك معنى الحيّ القيّوم ، فهو قائم على الخلق بالنعم والعطاء ، أي أنّه هو العلّة المعطية والمانحة لوجود الأشياء ، ولولا استمرار عطائه لانمحت الأشياء عن الوجود ، قال تعالى : ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾[٢] وقيّوميّته تعالى واقعيّة ، أي لا تقوم الأشياء إلّا باستنادها إليه تعالى .

خصائص الملكيّة القيّوميّة

أوّلاً : إختصاصها بالله وحده .

إذن هذه الملكيّة القيّوميّة واقعيّة لا تزول ، ولهذا فإنّ الإنسان يملك الأشياء ليس على نحو الحقيقيّة بل بالاعتبار ، فقد يفقد عقله ويصبح سفيهاً فيحجر عليه ، ولا يستطيع أن يتصرّف فيما يملكه ، بخلاف مالكيّة الله تعالى فهي لا تزول ، قال تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾[٣] ، أي أنّ جميع وجملة مفردات الوجود مملوكة له تعالى بالملكيّة القيّوميّة ، ولا يمكن لأحد أن يهيمن على شيء كهيمنة الحقّ تعالى ، فهو مالك للأشياء ملكيّة واقعيّة في الدنيا والآخرة ، غير أنّ مالكيّة الحقّ تعالى القيّوميّة لا تظهر لأكثر الناس لغشاوة على بصائرهم ، فلا يدركون المعنى الحقيقيّ لمالكيّته تعالى مفردات عالم الوجود ، ولهذا فإنّ بعض الناس لا يتوجّه للمعنى المتقدّم بل يعتبر نفسه مالكاً فيقول : هذا مالي ، وذلك لي ، ويسند الأشياء إليه ، أو إلى غيره من الملوك والسلاطين في عالم الدنيا .

---

(١) النحل ١٦ : ٦٠.

(٢) البقرة ٢ : ٢٥٥.

(٣) البقرة ٢ : ٢٨٤.

ثانياً: يوم القيامة تتّضح الملكيّة.

ظهور القيّوميّة في يوم القيامة لا يعني إلغاء الملكيّة في عالم الدنيا، فهو تعالى قيّوم في الدنيا والآخرة، غير أنّ الإنسان لديه وسائط وأسباب ومسبّبات في عالم الدنيا تحجبه وتسدل ستاراً سميكاً على رؤيته الواقعيّة التي يتبيّن منها مالكيّة الحقّ للخلق، فلا يستطيع الإنسان أن يعرف أو يرى الملكيّة القيّوميّة والواقعيّة للحقّ تعالى إلّا في عالم القيامة، قال تعالى: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[1] لانتفاء الوسائط في عالم القيامة، حتّى الشفاعة لا تكون إلّا لمن ارتضى، وبإذن من الله تعالى، ولا يقدر أحد أن يتصرّف في القيامة إلّا بإذنه، من هنا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿**لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾[2]؛ لأنّ الجميع خاضع خضوعاً مطلقاً، قال تعالى: ﴿**إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْداً**﴾[3].

ثالثاً: لا إبهام ولا خفاء في ملكيّته تعالى

ولعدم الخفاء في القيامة عبّر الحقّ تعالى بأنّه مالك يوم الدين، لتجلّي وظهور الحقائق ووضوح الرؤية، فلا غطش ولا إبهام؛ لأنّ الناس كلّهم يرون مالكيّة الحقّ للموجودات بوضوح، وأنّه تعالى هو المتصرّف المطلق، فيسأل الحقّ الخلق عن مالكيّته فيجيبون، قال تعالى: ﴿**لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ**﴾.

ملكيّة الله للعالم المادّيّ

مالكيّة الله تعالى لعالم المادّة ظاهرة من خلال الربوبيّة؛ إذ أنّ معنى الربّ هو

---

(١) ق ٥٠: ٢٢.

(٢) غافر ٤٠: ١٦.

(٣) مريم ١٩: ٩٣.

المالك والمربّي في عالم الدنيا، والأشياء التي تحتاج إلى تربية وإيصال إلى الكمال تكفّل الله تعالى بها من خلال ربط بعض أجزاء الوجود ببعضها الآخر واستفادة بعضها من بعضها الآخر، والمدد الذي يعطيه الله تعالى لخلقه باستمرار لا ينقطع، فهو مالك لعالم الدنيا، ويظهر ذلك بحمده: الحمد لله ربّ العالمين، غير أنّ هذا لا يتاح لكلّ أحد، بل لمن سار في طريق عبوديّة الحقّ تعالى، فإنّه سيصل إلى إدراك مالكيّة الله تعالى، خصوصاً إذا أمعن النظر متأمّلاً في دقائق عالم الوجود، ولم تصرفه النعم الظاهرة التي تغدق عليه، بل استفاد منها بعلمه وتأمّله أنّها من عند الله تعالى ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ**﴾(١)، فإنّه بالتأمّل والعبادة والامتحان والبلاء الذي يصيبه سيرجع إلى الله تعالى مبتهلاً أن يخلّصه من الشدائد، وسيفرّج الله تعالى عنه فيحمده بعد بلائه، وستظهر له مالكيّة الله تعالى لعالم الموجودات، إلّا أنّ من يدرك ذلك هو بعض الخلق، أمّا الجميع فإنّه سينكشف لهم ذلك انكشافاً تامّاً لا إبهام يعتريه، وستتجلّى لهم المالكيّة والملكيّة والقيّوميّة الواقعيّة في القيامة، ولعلّه لهذا ذُكر يوم الدين، وقيل: هو يوم الحساب ويوم الجزاء(٢).

الإنسان مسؤول عمّا يصدر منه

ركّز الله تعالى على مالكيّته ليوم الدين، وهو يوم الجزاء، ليعطي الإنسان درساً غاية في الأهمّيّة وهو درس المسؤوليّة، كي يلتفت إلى نفسه ويعي مسؤوليّته، وأنّ ما يصدر منه من أقوال وأفعال وأعمال سيُسأل عنه.

تأثرات الأفعال

للأفعال تأثيران:

---

(١) النحل ١٦: ٥٣.

(٢) فتح الباري: ٨: ١١٩.

الأوّل: التأثير الوضعيّ

وهو تأثيره في الإنسان، فإنّه إذا عمل عملاً قبيحاً أثّر عليه، وإن عمل عملاً صالحاً أثّر عليه، وبعض الأعمال يكون أثرها معجّلاً -كصلة الرحم وبرّ الوالدين والصدقة- وبعضها أثرها مؤجّلاً -كالإحسان إلى الناس بالأقوال والأفعال- فإنّ تأثير ذلك قد يؤجّل إلى حين.

الثاني: التأثير الجزائيّ

وهو في عالم الآخرة بمعنى أنّ الإنسان يتعجّب من أفعاله وأعماله في يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**﴾(١).

وقال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ يَاوَيْلَتَنَا مَالِ هٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا**﴾(٢).

نسيان المسؤوليّة الجزائيّة

ينسى الإنسان عالم الآخرة في زحمة مقتضيات عالم المادّة إلّا القليل ممّن يلتفت إلى الله تعالى، خصوصاً في فترة شباب الإنسان، ووجود الصحّة والمال والأصدقاء، فإنّ الكثير ينسى المسؤوليّة الجزائيّة في عالم الآخرة، وقد لا يلتفت إليها إلّا إذا ابتلاه الله تعالى ببليّة كالأمراض وفقدان المال والولد، رغم أنّ تذكّر المسؤوليّة الجزائيّة هو ما ينبغي أن يوليه الإنسان العناية الفائقة، قال تعالى: ﴿**وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْؤُولُونَ**﴾(٣).

---

(١) الإسراء ١٧: ١٣.

(٢) الكهف ١٨: ٤٩.

(٣) الصافّات ٣٧: ٢٤.

استشعار الرقابة الإلـهيّة

لا يعي الإنسان مسؤوليّته في الأعمّ الأغلب إلّا إذا تمكّن الإيمان في ذاته، وترسّخ في عمق وجدانه، واستشعر عظمة الحقّ، وعرف الرقابة الذاتيّة عليه، وأدرك معنى قوله تعالى: ﴿**مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ**﴾[١]. إنّ الله تعالى جعل كلّ شيء في الكون يشهد على الإنسان، جلده وجوارحه والمكان الذي هو فيه، بالإضافة إلى الملائكة وإلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿**وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ**﴾[٢] الآيات تلفت انتباه الإنسان إلى حيثيّة محدّدة، وهي المسؤوليّة العامّة والجزاء العامّ الذي سيتحقّق في مشهد القيامة، وأنّ الله تعالى يسأل الخلق عن جميع وجملة ما صدر منهم وعنهم من أفعال وأقوال، ولذلك لا ينبغي للإنسان أن ينسى الله تعالى لحظة واحدة، بل عليه أن يستشعر الرقابة الإلـهيّة وعظمة الله تعالى ويستذكر يوم الجزاء.

الأنبياء يستشعرون المسؤوليّة الجزائيّة

أبان القرآن الكريم فارقاً نوعيّاً بين من انصهر في بوتقة عبوديّة الله تعالى وبين سائر الناس، موضّحاً أنّ من الميّزات التي تميّز بها الأنبياء والرسل عن غيرهم أنّه تعالى أخلصهم بخالصة ذكرى الدار، أي جعلهم يستشعرون عظمة الحقّ، ويعون المسؤوليّة الجزائيّة لما يصدر منهم من أقوال وأفعال، قال تعالى: ﴿**إِنَّا أَخْلَصْنَاهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ**﴾[٣]، بينما قد يكون بعض الناس تصدر منه القبائح والذنوب الكبيرة وهو لا يستشعر شيئاً، ولعلّ ذلك يرجع إلى بعض الأُمور:

---

(١) سورة ق ٥٠: ١٨.

(٢) فصّلت ٤١: ٢١.

(٣) سورة ص ٣٨: ٤٦.

منها: عدم إدراكه مالكيّة الله تعالى ليوم الجزاء.

ومنها: أنّه لا يدرك عظمة ذلك اليوم، وأنّه يوم المسؤوليّة تجاه الحقّ تعالى.

التركيز على المسؤوليّة الجزائيّة

يركّز على المسؤوليّة الجزائيّة لله تعالى لوجود ارتباط بين نواحي متعدّدة:

الأُولى: الحيثيّة العقديّة

إذ أنّ إيمان الإنسان يرتبط بمسؤوليّته الجزائية تجاه الخالق، وهي مسؤوليّة لها ارتباط وثيق بعالم الغيب، وبالجانب العقديّ الإيمانيّ للشخص.

الثانية: الحيثيّة التكامليّة

إنّ تكامل الإنسان المعنويّ يرتبط بالتصديق بيوم الدين، والعمل الجاد له، وإدراك المسؤوليّة تجاهه للعلم بذلك، قال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴾، ولا يمكن أن يتكامل من لم يعِ مسألة الفعل والجزاء المترتّب عليه؛ ذلك أنّ كمال الإنسان المعنويّ يرتبط بمالكيّة الله تعالى ليوم الجزاء، فمن عرف ذلك وصل إلى عمق الإيمان، وأُتيح له أن يتكامل بنحو تدريجيّ لأنّه سيقف عندما يقوم ببعض الأفعال متأمّلاً بل سيحتاط، فإذا رأى حراماً تركه، أو حلالاً جاء به، أو شبهة توقّف عندها.

وعليه فإنّ المسؤوليّة الجزائيّة لها بُعد تكامليّ وبُعد أخلاقيّ بمعنى أنّ الله تعالى يذكّر بمالكيّته ليوم الدين؛ لأنّ الإنسان لا يتكامل أخلاقيّاً دون هذه المسؤوليّة الجزائيّة، وقيل: «من أمن العقوبة أساء الأدب»، لأنّه سيصبح غير مبالٍ بما يصدر منه من قول أو فعل، ولن يحاسب نفسه على ذلك، لكونه لا يستشعر العقاب والأثر الوضعيّ المترتّب عليه، أمّا من استشعر ذلك وعرف البسملة والحمْدَلَة،

ورسُخ التوحيد في ذاته وأيقن بالمعاد ؛ إذ أنّ التوحيد لا يكتمل معناه إلّا بالمعاد ، فإنّه سيصل إلى عمقه الوعي بالمسؤوليّة الجزائيّة .

العلاقة بين البُعد العقديّ والإيمان المعاد

قوله تعالى : ﴿**مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ يعطينا البُعد العقديّ ، وهو الإيمان بعالم الآخرة المرتبط بالحقّ تعالى ؛ ذلك أنّ الإيمان بالمبدأ يستلزم الإيمان بالمعاد . نعم ، هناك كثير من الناس يؤمنون بالمبدأ دون إيمانٍ بالمعاد ، وقد ذكر القرآن الكريم العرب حيث إنّ بعضهم يؤمن بالله تعالى ولا يؤمن بالمعاد ، بل يرى أنّه إذا مات انتهى وجوده ، وليس هناك معاد بل الدنيا فقط ، وهي مجرّد فترة امتحان واختبار عسير على بعض ، ويسير على بعضٍ آخر ، وهناك تفاوت بين الناس بمسؤوليّتهم تجاه ذلكم الاختبار .

مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

انحصار العبادة في الله تعالى

في الفاتحة حيثيّات هامّة ، منها أنّ بعض الآيات مفسّرة وشارحة للآيات الأُخرى ، أي توضّح مقصد الآية التي بعدها من حيثيّة أُخرى ، فقد جاء بعد ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعالَمِينَ**﴾ ﴿**الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ * مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾ ، ثمّ جاء ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ أي نعبد الرحمن الرحيم الذي له الحمد ، وهو المالك ليوم الجزاء ، وسوف يتّضح أنّ من يختصّ بالعبادة هو الله تعالى المتّصف بالصفات الكماليّة المطلقة والجماليّة الكاملة والتامّة ، فتنحصر فيه العبادة ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ ، فإذا قُدّم المفعول به في اللغة العربيّة أفاد الحصر ، أي حصر العبادة على الله تعالى ، فيكون معنى ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ أنّ العبادة لا تكون إلّا لك ، والقرآن الكريم صرّح

بأنّ المعبود المطلق، ومن له حقّ العبادة هو الله تعالى في آيات متعدّدة، منها: قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ**﴾(١)، فلا تكون العبادة إلّا لله تعالى.

مفهوم العبادة

أُخذ في العبادة مجموعة حيثيّات:

الأُولى: الخضوع والخشوع التامّ لله تعالى

أي أنّ الخضوع والخشوع التامّ من لدن العابد للمعبود، شرط في العبادة لكنّه لا يكفي لتحقّق العبادة، بل لا بدّ أن تتوافر صفات في المعبود يعتقد بها العابد، وفي الفاتحة إيضاح لهذا المطلب؛ إذ أنّ العابد يعتقد أنّ الله تعالى مالك يوم الدين، وهو مالك للحياة والموت، وبالتالي هو الكامل المطلق الذي هو وراء ما يتناهى بما لا يتناهى، أي أنّ عالم الإمكان المتناهي هو الذي أوجده، وهو تعالى لا حدود لكماله. إذن فإنّ أوّل حيثيّة تتوافر في العبادة هي الخضوع للمعبود الموصوف بصفات لا يتّصف بها غيره.

الثانية: الاعتقاد بتفرّد الملكيّة المطلقة لله تعالى

هي أن يعتقد العابد أنّ من يخضع له يمتلك شيئاً لا يمتلكه غيره، كالإحياء والإماتة والرزق بالاستقلال وله الكمال المطلق، وأنّ ﴿**بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾(٢)، وهذه أُمور لا تكون إلّا لله تعالى، أمّا الخضوع وحده لغير الله تعالى دون اعتقاد باختصاصه بصفات دون غيره فلا يكون عبادة؛ لأنّ الله تعالى أمرنا أن نخضع للوالدين، قال تعالى: ﴿**وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ**

---

(١) الأنعام ٦: ١٦٢ و ١٦٣.

(٢) الملك ٦٧: ١.

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً﴾[١]، ومن أدب المتعلّم أن يخضع لمعلّمه، بل أنّ أقصى درجات الخضوع ـ وهي السجود ـ لا تكون عبادة إلّا بتوافر الحيثيّة التي ذكرناها آنفاً، ولهذا أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، وسجد يعقوب عليه السلام ليوسف ابنه لعظم مقامه، قال تعالى: **﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾**[٢]، ومن الواضح البيّن أنّ سجود الملائكة وسجود يعقوب عليه السلام لا يتنافيان مع عبادة الله تعالى وحده.

نعم، في شريعتنا الإسلاميّة الغرّاء يحرم السجود لغير الله تعالى، لكنّها حرمة تشريعيّة، وعليه فإنّ العبادة لا تتحقّق إلّا إذا اعتقد الساجد أنّ من سجد له يمتلك خصائص لا تكون لغيره كالإحياء والإماتة والرزق والكمال المطلق الذي لا يكون لغيره.

معاني العبادة

إذن العبادة لا تكون إلّا لله تعالى، أمّا الخضوع للأنبياء والرسل والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام لمقاماتهم فليس عبادة لهم كما تصوّر ذلك بعض قاصري النظر، وكي تتّضح المسألة فقد ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**مَنْ أَصْغىٰ إِلىٰ نَاطِقٍ فَقَدْ عَبَدَهُ، فَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَقَدْ عَبَدَ اللهَ، وَإِنْ كَانَ النَّاطِقُ يُؤَدِّي عَنِ الشَّيْطَانِ فَقَدْ عَبَدَ الشَّيْطَانَ**»[٣].

والرواية تشرح أحد معاني العبادة، وتوضّح أنّ الاستماع لمن يتحدّث قد يؤدّي إلى العبادة بمعنى الطاعة، فإن كان ينطق عن الله تعالى فسوف يؤدّي إلى إطاعته

---

(١) الإسراء ١٧: ٢٤.

(٢) البقرة ٢: ٢٥٣.

(٣) الكافي: ٦: ٤٣٤.

تبارك تعالى ، وإن كان ينطق عن الشيطان فسيؤدّي إلى مسلك الشيطان .

العبادة بالمعنى الخاصّ

المعنى الخاصّ للعبادة هو إظهار تمام الخضوع والخشوع التامّ لمن اتّصف بصفات الكمال ، كالإحياء والرزق بالاستقلال ، وهو الحقّ تعالى ، فمن أدّى الصوم أو الصلاة لله تعالى معتقداً بأنّه هو المحيي المميت ، وهو على كلّ شيء قدير ، فإنّ عمله يكون عبادة بالمعنى الخاصّ .

العبادة بالمعنى العامّ

أمّا المعنى العامّ للعبادة فهو التقيّد بقوانين الحقّ تعالى ، والسير على وفق ما يريده الله تعالى في معاملات الإنسان وشؤونه المختلفة ، بمعنى أن يفعل المكلّف ما يريده الله تعالى ، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى : ﴿**وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾[١] ، أي أنّهم لا يسيرون إلّا على وفق ما يريده الحقّ تعالى .

وهناك شيء نريد أن نوضّحه وهو أنّ بعض المفردات العباديّة لا يجوز أن تؤدّى إلّا لله تعالى ، كالصلاة والصوم ، وكذا أجزائها كالقيام والقعود والركوع والسجود ، وإذا تأمّلنا سنرى أنّ جميع العبادات لا يجوز أن يؤتى بها لغير الله تعالى .

فبرّ الوالدين عبادة يتقرّب بها إلى الله تعالى ، ومن أراد أن يكون برّه عبادة فإنّ عليه أن يخضع ويتذلّل لله تعالى ، الذي له الأمر والخلق ، قال تعالى : ﴿**أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ**﴾[٢] ، أمّا من سجد دون أن يحقّق هذا الشرط فلن يكون سجوده عبادة .

والذبح عبادة لها شرائط لا بدّ من توافرها ، كالتوجّه إلى القبلة ، وذكر اسم الله

---

(١) الأنبياء ٢١ : ٧٣.

(٢) الأعراف ٧ : ٥٤.

تعالى ، وتحقيق شروط التذكية ، أمّا إذا اختلّ بعض الشرائط فلن يكون الذبح صحيحاً .

ويحسن بنا هنا أن نبيّن أمراً جدّ هامّ هو أنّ بعضاً يذبح للحسين عليه السلام أو للعبّاس عليه السلام ، غير أنّ من يتأمّل سيجد أنّ إضافة الذبح للحسين والعبّاس عليهما السلام هي من الإضافة لأدنى ملابسة ، كالذبح للأب أو للأُمّ أو للحاج أو للضيف ، لا يراد به أنّ الذبح لهم على نحو الحقيقة ، بل يراد منه نموّ العلاقة ، وعليه فلن يرد إشكال لمن ذبح لعالم من أجل إكرامه ، أو صديق لزيارته ، ولكن الذبح في حقيقته لله تعالى ، وليس للصديق أو الأب أو الحسين أو العبّاس عليهما السلام .

ونطلق على مثل تلكم الأُمور لأنها موجبة للباعثيّة ، أي أنّ السبب الداعي إلى الذبح هو زيارة العالم أو مجيء الأب أو برّ الأمّ ، كما كان يذبح النبيّ صلى الله عليه وآله لخديجة عليها السلام ، بمعنى أنّه يذبح لله برّاً بخديجة ، لكونه رزق منها الولد ، وسبقت غيرها إلى الإيمان ، والإضافة لخديجة لأدنى ملابسة ، ولهذا لم يستشكل أحد من أتباع أهل البيت عليهم السلام ولا غيرهم في ذلك .

نعم ، أشكل بعض من لم يفهم حقائق الدين وتصوّر أنّ ذلك ينافي التوحيد ، والحال أنّه ليس كذلك ، ونؤكّد هنا أنّ العبادة بمفرداتها لا تكون إلّا لله وحده ، وبذلك يتّضح أنّ زيارة المعصومين عليهم السلام ليست من العبادة لهم ؛ لأنّهم عباد مكرّمون يشهد لهم الخلق بالعبوديّة الحقّة دون ما سواهم ، (وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله) ، وهكذا نقول في الزيارة : « **أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ أَقَمْتَ الصَّلاةَ ، وَآتَيْتَ الزَّكاةَ ، وَأَمَرْتَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَنَهَيْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ** » ، أي أنّ من دواعي زيارتك هو تمحّض عبوديّتك للحقّ تعالى .

والخلاصة : لا أحد من أتباع أهل البيت عليهم السلام يعبد الأئمّة أو النبيّ صلى الله عليه وآله . نعم ، يؤمنون بمقامات لهم تدلّل على عبوديّتهم ، وقد أوضح العلماء في رسائلهم العمليّة أنّه لا بدّ من توافر شرائط في الذبح ليكون لله تعالى .

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

العبادة أمر فطريّ في الإنسان

بيّنّا أنّ تقديم المفعول به يفيد الحصر، أي حصر العبادة بالله تعالى، فهو المعبود بحقّ لا سواه، أي أنّ عبادة غيره ليست عن حقّ بل بالباطل، أمّا الله تعالى فعبادته حقّة لاستجماعها لجميع صفات الكمال والجمال.

ونشير إلى مطلب جدّ هامّ وهو أنّه بعد أن بيّنّا معنى العبادة يحسن بنا أن نوضّح أنّها أمر فطريّ في الإنسان، أي أنّ الله تعالى فطر الإنسان على العبادة، وكما أنّه هناك أُمور فطريّة لدى الإنسان لا يستطيع أن يستغني عنها لأنّ وجود الإنسان يعتمد عليها كالأكل، فلا يمكنه أن يستغني عنه لأنّ الله تعالى جعل قوامه واستمرار وجوده به، فهو يجوع ويحتاج إلى غذاء، وكذلك الجنس فلا يمكن أن يستمرّ بقاؤه دون احتياجه إليه.

إذن هناك أُمور فطريّة لدى الإنسان فطره الله تعالى عليها، والعبادة منها، فلا يمكنه أن يستغني عنها لكونه يحتاج إلى إشباع الجانب الفطريّ، غاية الأمر أنّه قد يعبد المعبود الحقّ وهو الله تعالى، وقد يعبد صنماً أو وثناً مخلوقاً، لكنّ إظهار العبادة والخضوع وإدراك أنّه بحاجة إلى الاستناد إلى قوّة عليا مهيمنة على الكون أمر فطريّ، لا ريب في ذلك، وقد ذُكر في قصّة الحضارة لويليام جيمس ديورانت (*William James Durant*) أنّه: لا يوجد قوم إلّا ولديهم معابد وإظهار للعبوديّة بنحوٍ مّا، فكلّ مجتمع من المجتمعات البشريّة منذ القِدم عندما ننقّب ونبحث في سيرته نجد أنّ له نمط خاصّ من العبادة.

الإعراض عن العبادة

وإذا كانت العبادة من الأُمور الفطريّة التي فُطر عليها الناس وهم بحاجة لها،

فلماذا نجد بعضهم لا يظهر هذا الأمر الفطريّ بل ويعرض عنه ؟

الجواب: أنّ الأُمور الفطريّة على قسمين :

الأوّل: بيّن الوضوح ، كالأكل والشرب للإنسان .

الثاني: ما يمكن لبعض الناس الاستغناء عنه رغم كونه بيّن الوضوح ، لكنّ الإنسان يكابر فيه رغم احتياجه إليه ، ومنه الجنس ، فهو أمر فطريّ لكنّ بعض الناس يمكنه أن يعرض عنه ، ولا يقال إنّ إعراضه عنه دليل على عدم فطريّته ، بل الصحيح أن يقال : إنّ ذلك نشأ من عدم استقامة الفطرة ، وبذلك تحقّق الخروج عن قوانينها ، وكذا الحال عندما يعرض بعض عن العبوديّة والخضوع لله تعالى ، فلا يقال إنّ العبوديّة والخضوع ليسا من الأُمور الفطريّة ؛ لأنّ ذلك نشأ من شذوذ في الفطرة ، ولكلّ قاعدة شواذّ كما شذّ بعض الناس عن احتياجه للجنس ، أو كابر في ذلك ، رغم أنّ الحاجة إليه فطريّة .

أهمّيّة العبادة

أوّلاً: الوصول إلى الكمال المعنويّ

رُكّز على العبادة لما يترتّب عليها من كمال معنويّ للإنسان ، فلا يكتمل معنويّاً إلّا بها ، قال تعالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ**﴾(١) ، وفي الآية نجد أنّ غاية الخلق أن يصل إلى عبوديّة الحقّ تعالى ليسير في صراطه المستقيم .

إذن كمال المخلوق في عبادة خالقه ، ولا يمكنه أن يكتمل دون أن يلتفت إلى هذا الأمر الفطريّ المركوز في جبلته ، والسرّ في وصول الإنسان إلى كماله بالعبادة

---

(١) الذاريات ٥١ : ٥٦ و ٥٧ .

أنّ العبادة غذاء للروح ، وهي بمعناها الخاصّ ، وحتّى بمعناها العامّ ، أي بمعنييها اللذان أوضحناهما فيما مضى الغذاء المعنويّ للإنسان ، فهو كما يحتاج إلى غذاء مادّيّ ليستقيم وجوده فيأكل أنماط الأطعمة لتكون صحّته جيّدة ، وإذا نقص غذاءه المادّيّ سقم بدنه وأصبح مريضاً معتلّاً لنقص التغذية ، لكون بعض الأمراض سببها نقص الغذاء ، فإنّ العبادة كذلك غذاء معنويّ لروح الإنسان ، وعدمها يؤثّر سلباً على شخصيّته المعنويّة .

ثانياً : استقامة الروح

وعليه فكما يحتاج الإنسان في جنبته المادّيّة إلى غذاء صحّيّ يوفّر له استقامة جسده كذلك يحتاج أيضاً إلى أنماط من العبادة توفّر له استقامة روحه ، لتصبح مستقيمة ونامية باطّراد ، بل موصلة له إلى درجة الاطمئنان واليقين ، قال تعالى : ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾(١) ، أي أنّه يصل إلى العلم القطعيّ التامّ ، ويمكنه إدراك حقائق عالم الوجود بالعبادة التي هي غذاء معنويّ لجنبته اللّامادّيّة ، لكون الإنسان له جنبتان : مادّيّة ولها غذاء مادّيّ ، ومعنويّة ، وهي أعظم وأكبر من الجانب المادّيّ بمراتب ؛ لأنّ بقاءه في عالم الآخرة بالجنبة المعنويّة عندما يتجرّد من المادّة ، ويمكن لنا أن نشبّه جسد الإنسان بالسيّارة التي يركبها ليصل بها إلى مقصده ثمّ يدعها ، وجسده كذلك ، يستفيد الإنسان منه في نشأته المادّيّة ثمّ يغادره وتبقى روحه التي اكتملت معنويّاً بالعبادة .

ثالثاً : الوصول إلى اليقين بحقائق عالم الوجود

وإذا كان الإنسان يكتمل ويصل إلى أعلى مرتبة وهي الإدراك التامّ واليقين

---

(١) الحجر ١٥ : ٩٩.

المطلق بحقائق عالم الوجود ، باستناده إلى الحقّ تعالى وعبادته ، قال سبحانه : ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ ، فإنّ للعبادة قسمان :

الأوّل : أن تكون على وفق الأُصول فتوجب النموّ المطّرد .

الثاني : أن تكون خارجة عن الأُصول العباديّة الموصلة للإنسان إلى كماله .

وذلك أنّ الإنسان ليس من تلقاء نفسه يختار ما يريده من أنماط العبادات التي شرّعت من قِبل الله تعالى ؛ لأنّ الله تعالى شرع لنا أنواعاً من العبادات كالصلاة والصوم والحجّ والجهاد في سبيله والخمس وهلمّ جرّاً ، وكلّ مفردة منها جاءت بها الشرائع السماويّة من أجل الوصول إلى الكمال ، فالصوم له قدرة على إيصال الإنسان إلى مراتب الاستقامة التي تؤدّي به إلى السعادة في الدارين ، وكذلك بقيّة العبادات ، أمّا ما يشرّعه الإنسان لنفسه من العبادات ـ كأن يجلس على شجرة ليتقرّب بجلوسه إلى الله تعالى ، مع أنّه تعالى لم يشرّع ذلك ، وكأن يقرأ دعاءً من عنده وينسبه إلى الشارع بخلاف ما لو دعا بدعاء عامّ فقال : ربّي أعطني وارزقني ، وآتني من فضلك ـ فإنّ مثل ذلك لا إشكال فيه ، قال تعالى : ﴿**وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ**﴾(١) ، أي ﴿**ادْعُونِي**﴾ بأي نمط من الدعاء ، فإنّ الدعاء عبادة ، والصلاة والصوم والحجّ مفردات عباديّة تمثّل زاداً معنويّاً يكمل به الإنسان إذا تغذّى عليه ، فينمو في جنبته اللاّماديّة ويكتمل نموّه حتى يصل إلى مراتب من القرب الإلهيّ المشار إليها في أحاديث متّفق عليها ، كقول الله تعالى في الحديث القدسيّ : « **لا يزال عبدي يتقرّب إليَّ بالنوافل حتّى أُحبّه ، فأكون أنا سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به ، فإذا دعاني أجبته ، وإذا سألني أعطيته** »(٢) ،

---

(١) غافر ٤٠ : ٦٠.

(٢) كنز العمّال : ١ : ٣٣٩ ، الرقم ١١٥٥.

أي أنّ الإنسان يصل إلى درجات من الكمال المعنويّ يجسد فيها إرادة الحقّ تعالى في مقام خلافة الله، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللهَ رَمَىٰ﴾[١]، فيصبح فعله هو ما يريده الله تعالى، وهذه درجة عالية من العبادة.

أمّا لو كانت العبادة بزيادة أو نقصان فإنّها وإنْ ترتّب عليها بعض الفوائد لكنّها غير موصلة إلى الكمال المعنويّ المراد لله تعالى.

معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

إنّ أنماط العبادات يمكن أن تفهم من قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، أي أنّ العبادة المقصودة هي التي شُرّعت لتوصلنا إلى مقام اليقين والكمال، أمّا العبادات الأُخرى فإنّها لم ينزل الله تعالى بها من سلطان لعدم الدليل من الناحية الشرعيّة عليها.

نعم، قد يستفيد منها الإنسان لكنّها لا توصله إلى ما يريده الله تعالى؛ لأنّه تعالى يريد أن يُعبد من حيث أمر لا من حيث ما يريده الإنسان من تلقاء نفسه[٢]، والعبادات هي طرق للسلوك إلى الله تعالى، فهي عبادات سلوكيّة، ولهذا فإنّ الأخلاق وصلة الرحم وبرّ الوالدين عبادات مشروعة من قِبل الله تعالى كالصلاة والصوم والحجّ والزكاة والجهاد في سبيل الله، وهي مفردات دلّت عليها الآيات والروايات، وهناك أذكار لم ترد من قِبل الشارع بخصوصها، أو أنّها تندرج تحت عنوانٍ مطلق كالذكر أو الدعاء، فالذكر بنحو مطلق يقرّب من الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[٣]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً *

---

(١) الأنفال ٨: ١٧.

(٢) قال الإمام الصادق عليه السلام: «وَنَعْبُدُهُ مِنْ حَيْثُ يُرِيدُهُ مِنَّا، فَإِذَا أَمَرَنَا بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ أَطَعْنَاهُ وَلَمْ نَتَعَدَّ إِلَى غَيْرِهِ مِمَّا لَمْ يَأْمُرْنَا وَلَمْ يَأْذَنْ لَنَا» الاحتجاج: ١: ٢٧.

(٣) البقرة ٢: ١٥٢.

﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾(١).

إذن هناك جملة من المفردات المشروعة مرادة للإنسان ، وعندما يقول : **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** أي أنّنا نصرف جميع وجملة أنماط العبادات إليك لنتقرّب بها لك ، وبذلك يكتمل الوجود المعنويّ للإنسان ؛ إذ من المحال أن يكتمل دون أن يعبد الله تعالى ؛ لأنّه سيبقى كالبهيمة ، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام : « **فَما خُلِقْتُ لِيَشْغَلَني أَكَلُ الطَّيِّباتِ ، كالْبَهيمَةِ الْمَرْبُوطَةِ هَمُّها عَلَفُها ، أَوِ الْمُرْسَلَةِ شُغُلُها تَقَمُّمُها ، تَكْتَرِشُ مِنْ أَعْلَافِها ، وَتَلْهُو عَمّا يُرادُ بِها** »(٢) ، بخلاف من توجّه وأدرك أنّ العبادة هي الزاد المعنويّ وسلك الطريق وجاء بما يريده الشارع تعالى ، فإنّه سيكتمل وجوده المعنويّ بنحو تدريجيّ ويصبح له امتداد في روحه ، وسينطبق عليه حينئذٍ الحديث القدسيّ المتقدّم .

حقائق هامّة لا بدّ من الالتفات إليها في العبادة

قوله تعالى : **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** فيه حيثيّات ينبغي الالتفات إليها :

الأُولى : ضمير الجمع في قوله تعالى : **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** .

لقد أوضحنا أنّ التعبّد هو إظهار الخضوع والخشوع والتذلّل إلى الله تعالى ، وقول العبد : **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾** قد يشمّ منه المنافاة لذلك ؛ لأنّه تعبير بضمير الجمع ، والتذلّل والخشوع يتناسبان مع الخطاب لله تعالى بإظهار الفقر والفاقة والاحتياج ، ولكن فذلكة ذلك تظهر من خلال إدراك أنّ الإنسان في بعض الأحايين يظهر فقره باندكاكه مع غيره ، أي كأنّه لا يرى لوجوده وحده وجوداً وإنّما يقول : إنّ مقامك يا إله العالمين هو مقام العزّة والعظمة ، وكلّ العباد يتوجّهون إليك خاشعين

(١) الأحزاب ٣٣ : ٤١ و ٤٢.

(٢) نهج البلاغة : ٣ : ٧٢.

متذلّلين. إذن الحيثيّة التي على أساسها عُبّر بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي إظهار الذلّ والخشوع والخضوع لله تعالى ضمن المجموع باعتبار أنّ العابد لا يرى لنفسه في عباداته وجوداً بل يندكّ ضمن وجود العابدين لله تعالى.

الثانية: حقيقة العبوديّة

شرحنا معنى العبادة وقلنا: إنّها إظهار التذلّل والخضوع والخشوع من العابد للمعبود الذي يستحقّ العبودية، وهو المتّصف بصفات الجمال والكمال، والذي له الخلق والأمر ـ كما عبّر القرآن الكريم ـ وهو الرحمن الرحيم، وتظهر العبوديّة لله تعالى من خلال ملاحظة أُمور ثلاثة:

الأوّل: أن لا يرى لنفسه ملكاً في قبال الله تعالى.

بُيّنت العبوديّة ببيانات متعدّدة، ومن أروع ما جاء في تبيان حقيقتها: أن لا يرى العابد لنفسه ملكاً لأنّ الملكيّة لله تعالى، وحينئذٍ يهون عليه التصرّف في أي مالٍ، بل يرى أنّ وجوده ملك لله تعالى؛ لأنّه لا يرى إلّا مالكيّة الحقّ المطلقة فيهون عليه التصرّف في ماله ونفسه، وينصاع انصياعاً في إطاعته المطلقة لله تعالى. إذن معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي لا نرى لأنفسنا ملكاً إلّا لك.

الثاني: إظهار الطاعة المطلقة

أن يظهر العبد الطاعة المطلقة لأوامر الحقّ تعالى، والتي ألمحنا إليها شارحين لها فيما تقدّم، فيكون قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتضمّن إظهار العبوديّة، بمعنى أنّه لا يطبع نفسه في عالم الخارج إلّا بطابع العبوديّة لله تعالى، وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بالصبغة، قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾[1]، أي أنّه يضع على نفسه بصمة العبوديّة. إنّنا نرى بعض الناس كذلك، فإذا سُئِل عنه؟

---

(١) البقرة ٢: ١٥٢.

قيل: إنّه عابد، وعندما تريد أن تتعرّف على معنى عابد ستصل إلى أنّه متقيّد بأوامر الشارع ومنتهٍ عن نواهيه، وشاغل لنفسه بعبوديّته لله تعالى، فظهر ذلك عليه.

الثالث: أن لا يرى لنفسه وجوداً

وهو أمر جدّ هامّ، ونركّز عليه لأهمّيّته؛ ذلك أنّ الإنسان إذا لم ينظر إلى وجوده ـ أي لا يرى لنفسه وجوداً بل يرى أنّ الوجود الحقّ لله تعالى ـ سيصل إلى إدراك المعنى الدقيق للعبوديّة، وكي يتّضح ذلك سنبيّن معنيين اعتباريّين للعبوديّة:

الأوّل: يتعلّق بنظام الرقّ، فإنّ العبد الذي يشترى يتصرّف فيه مولاه كيف يشاء، فيضع له اسماً غير الاسم الذي سمّاه به مولاه السابق فيتغيّر اسمه، وكذلك ينصاع لأوامر مولاه اللّاحق، فلا يأكل ولا يشرب إلّا ما قدّمه له مولاه رغم أنّ هذه العبوديّة اعتباريّة لكنّها تجرّده عن وجود الأنا المستقلّة فيندكّ في وجود سيّده، وكأنّه لا وجود له، وقد عبّر القرآن الكريم عنه بأنّه لا يقدر على شيء، قال تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً عَبْداً مَّمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ**﴾(١)، أي أنّه ليس له شخصيّة مستقلّة.

الثاني: صاحب النعمة على المنعم عليه، فإنّه يلهج بالشكر والثناء على من أعطاه، كالولد بالنسبة لأبيه، والصديق لصديقه، وبعض من أُحسن إليه للمحسن، فيرى المنعم عليه أنّه عبد للمحسن المنعم، وهذه أيضاً عبوديّة اعتباريّة، أمّا العبوديّة الحقيقيّة فإنّ العبد ينسلخ فيها عن حيثيّة تشكّل وجوده في قبال وجود الحقّ لله تعالى، أي أنّه لا وجود له، فضلاً عن أن يكون ناظراً لنفسه فهو لا يطيع هواه ولا ينطلق من أُمور لا ترضي الله تعالى لأنّه لا وجود له، وقد رتّب الإمام الصادق عليه السلام هذه الحيثيّات على العبوديّة الحقّة، فقال: «**الْعُبُودِيَّةُ جَوْهَرٌ كُنْهُهَا الرُّبُوبِيَّةُ، فَمَا**

(١) النحل ١٦: ٧٥.

فُقِدَ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وُجِدَ فِي الرُّبُوبِيَّةِ ، وَمَا خَفِيَ عَنِ الرُّبُوبِيَّةِ أُصِيبَ فِي الْعُبُودِيَّةِ »(١) ، أي من أراد أن يصل إلى مغزى العبوديّة في حقيقتها فقد وصل إلى الحقّ المطلق ؛ لأنّ العابد لا وجود له بل اندكّ في وجود مبدئه ، بخلاف العبد الاعتباريّ فإنّ له وجود في قبال أوامر مولاه ، ورغم ذلك فهو يطيعه في أكله وشربه وملبسه لكونه عبداً اعتبارياً ، ومولويّة مولاه كذلك ، فما بالك بالعبوديّة الحقّة التي إذا أدركها العابد ووصل إلى مغزاها علم بالمالكيّة والقيّوميّة التي شرحناهما فيما تقدّم ، وأدرك حقيقة فقره ومعنى ارتباطه بالله تعالى .

إذن قول العابد : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ يوصل إلى هذا المعنى الذي أبانه الإمام الصادق عليه السلام ، ومعنى قوله عليه السلام : « **جَوْهَرٌ كُنْهُهَا الرُّبُوبِيَّةُ** » أنّه أصبح مظهراً من مظاهر الحقّ في فعله ، وتجلّى له الله تعالى في ذاته ، فأصبح يمثّل خلافة الله تعالى في الخلق .

ولذلك مظهران : تكوينيّ وتشريعيّ .

التشريعيّ بكونه ينطلق على وفق القانون الإلهيّ ، فلا يفعل إلّا ما يريده الله تعالى ، أمّا التكويني فهو كمال وجوديّ تقدّمت الإشارة إليه في الحديث القدسيّ : « **فأكون أنا سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به ، فإذا دعاني أجبته ، وإذا سألني أعطيته** » ، وذلك ما يجسّده العباد الصالحون الذين وصلوا إلى تلكم الدرجات .

وخلاصة ما تقدم في الأمور الثلاثة أنّ :

الأوّل : يتركّز حول كيف يظهر العبد ذليلاً عند قوله : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ أي أنّني لا وجود لي إلّا في ضمن العابدين لك ، السائرين على نهجك ، وكأنّي وحدي غير قادر لأظهر العبوديّة فأتوسّل بأن أكون ضمن العباد الذين وصلوا إلى تلك

---

(١) مصباح الشريعة : ٧.

المقامات السامية ، وهم المعبّر عنهم في القرآن بقوله تعالى : ﴿**وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾[١] ، ـ الأنبياء والرسل والأئمّة عليهم السلام ـ الذين وصلوا إلى المظاهر الكاملة . إذن نوع التذلّل والاندراج ضمن طبقة من وصلوا إلى الرقّ في عبوديّتهم يتوقّف على كون العابد معهم .

الثاني : أن لا يرى العابد لنفسه ملكاً فيما خوّله الله تعالى ، لا في وجوده ولا في ماله ، فيشتغل بعبوديّته لله تعالى ولا يشتغل بغيرها في قول أو فعل ، فيدرك فقره وحاجته وتعلّقه بالله تعالى ، وذلك هو الفقر المطلق لله تعالى حيث يعرف معنى كون العبوديّة جوهرة كنهها الربوبيّة .

مراتب العبوديّة

للعبوديّة مراتب أشارت إليها الروايات الواردة في هذا الشأن :

الأُولى : أن يعبد المؤمن الله تعالى طمعاً في ثوابه .

والثانية : خوفاً من عقابه .

والثالثة : فسّرت بتفسيرين :

الأوّل : أن تكون شكراً ، بمعنى أنّ الله تعالى أنعم على العبد وأعطاه فيعبده شكراً لعطاياه ومننه ؟

الثاني : لعلّه الأدقّ والأقرب ، وقد ورد عن عليّ عليه السلام ، ومعناه مرتبة كماليّة في معرفة الله تعالى يُرى بها أنّه أهل أن يُعبد فيعبده لكونه أهلاً للعبادة ، قال عليه السلام : « **مَا عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ نَارِكَ ، وَلَا طَمَعاً فِي جَنَّتِكَ ، لَكِنْ وَجَدْتُكَ أَهْلاً لِلْعِبَادَةِ فَعَبَدْتُكَ** »[٢] .

---

(١) الأنبياء ٢١ : ٧٣ .

(٢) بحار الأنوار : ٦٧ : ١٨٦ .

إنّ مرتبة الشكر مرتبة جميلة وعظيمة، ويمكن أن تلتقي مع مرتبة المعرفة، لكنّ مرتبة المعرفة هي الأعظم، وقد جاء عن إمامنا الصادق عليه السلام تفسير هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾(١) قال عليه السلام: أي ليعرفون(٢)؛ لأنّ غاية العبادة الوصول إلى المعرفة، ومن عبد الله تعالى فقد وصل إلى كمال العبوديّة، وقوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ يُعرف منه المراتب الثلاث، وقد فسّرت الروايات مرتبة الخوف بأنّها للعبيد، ومرتبة الطمع في الجنّة بأنـّها مرتبة الأُجراء، أي من يتحرّك على أساس وجود العوض والمنفعة، والمرتبة الأعلى هي أن لا يرى العابد أهلاً للعبادة إلّا الله تعالى، فيتوجّه إليه عابداً له.

إنّ من أراد أن يصل إلى المرتبة الثالثة ـ وهي مرتبة العرفان لله تعالى ـ قد يحتاج أن يسلك المرتبة الأُولى فيخاف من النار والعقاب الإلٰهيّ، ثمّ يرتقي فيتوق إلى جنانه ومنحه وعطاياه، ومن ثم يرتقي ويتجرّد عن ذاته فيرى أنّ الله تعالى هو أهل لِأن يُعبد فيعبده تعالى لأنّه المستحقّ لذلك.

الفرق بين المراتب الثلاثة

إذا نظرنا إلى المراتب الثلاث عرفنا أنّ الثالثة هي مرتبة الأحرار، والحرّ هو الذي لا قيود تقيّده، فلا شيء يثقله ويشدّه إليه، وسيتّضح ذلك من خلال فرض وهو أنّه لو كان لا يجازى بجنّة ولا يعاقب بنار، فإنّه سيعبد الحق تعالى ويتوجه إليه، بخلاف أصحاب المرتبتين الأُوليين، فإنّهم قد لا يعبدون الحقّ تعالى لأنّ الدافعيّة التي تدعوهم لعبادة الحقّ تعالى هي الجنّة والنار، أمّا الأحرار ـ وهم العرفاء ـ فإنّ ما يدفعهم هو المعرفة لله تعالى بغضّ النظر عن وجود الجنّة والنار، وذلك هو

(١) الذاريات ٥١: ٥٦.

(٢) شرح أصول الكافي للمازندراني: ٤: ٢١١ (الهامش). وفي كتب العامّة فسّر كذلك.

الفارق، أي أنّهم يدركون الحقّ فيتّبعونه، بغضّ النظر عن وجود مصلحة في اتّباع أو ضرر في ترك عبادته، وننوّه هنا أنّ من وصل إلى ذلك المقام فقد حصل على المرتبتين الأُوليين لأنّ من عبد الله تعالى عارفاً به وكان حرّاً غير مقيد بقيود تشدّه إليها فقد أمن من العذاب وحصل على الثواب، وبعض العلماء عنده التفاتة قال فيها: «إنّ المرتبة الثالثة لا تحصل إلّا بعد المرتبتين الأوليين»، أي أنّ من يريد أن يصل إلى المرتبة الثالثة لا بدّ أن يسلك أحد الطريقين ليصل إلى المرتبة الثالثة، وقد يحتاج إلى سلوك كلا الطريقين كي يصل إلى الثالثة.

إنّ الناس يختلفون، وحتى الأنبياء كذلك، أي أنّ التقسيم الثلاثيّ يشمل الأنبياء أيضاً؛ ذلك أنّ بعضهم يستولي عليه الخوف، وبعضهم يستولي عليه الرجاء والطمع بالحصول على الثواب، رغم أنّهم يعرفون الله تعالى، وهم أحرار في سيرهم وسلوكهم، ولذلك قيل: إنّ المراتب الثلاث للعبادة متأتّية، أي أنّ من عنده المرتبة الثالثة فعنده المرتبتان الأُوليان، وليس بالضرورة من عنده إحدى المرتبتين الأُوليين أن يصل إلى المرتبة الثالثة؛ لأنّ ذلك قد يكون حدود إدراكاته التي ينطلق منها.

الإشارة في كاف ﴿إِيَّاكَ﴾

هناك أمران يرتبطان بما تقدّم:

الأوّل: أنّ العابد لا يحيط بمعبوده عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، والخطاب موجّه إلى الله تعالى، والكاف هاهنا في ﴿إِيَّاكَ﴾ توجّه الخطاب إلى الله تعالى، وعندما توجّه الخطاب لأحد فأنت تشير إليه وتعيّنه، والتعيين معناه التحديد، والله تعالى لا حدّ له، وكي نتخلّص من هذا الإشكال في قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، ولا يكون العابد محّدداً للمعبود ولا مشيراً إليه، فإنّ المعنى هنا هو إشارة معرفيّة، بمعنى أنّ المخاطب هو ذلك المعروف بفؤاد العابد؛ لأنّ الحقّ تعالى يُعرف بأنماط وضروب المعرفة المختلفة التي أشرنا إلى بعضها، ومن أنحائها معرفة أنّ الخلق

يستند في وجوده إلى الحقّ تعالى الذي أوجده، وعندما يخاطب الحقّ بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنّ المقصود به خالق الخلق دون تحديد، فلا يلزم من كاف الخطاب الإشارة والتحديد للمخاطب دائماً، بل الإشارة إلى ما نعرف به الحقّ تعالى، والمعنى نعبدك يا خالق الخلق، ويا باسط الرزق، ويا موجد عالم الإمكان، وهذه المعرفة سير من الخلق إلى الحقّ، ودليل إنّيّ، وإذا عرف أحد الله تعالى بمعرفة الصدّيقين والأنبياء «**بِكَ عَرَفْتُكَ وَأَنْتَ دَلَلْتَني عَلَيْكَ**»(١)، فيخاطب ذلك الوجود المطلق الذي لا حدّ له، والذي عرفه بذاته، وحينئذٍ لا تحديد، وعليه ـ ليس كما تصوّر بعض ـ بأنّ الخطاب لله تعالى يلزم منه التحديد، فإنّ ذلك إذا كان المخاطب ممكناً، أمّا إذا لم يكن المخاطب محدوداً بل كان لا حدّ له فلا تكون الإشارة محدّدة.

وقد تلخص من ذلك أمران:

الأوّل: أنّ مراتب العبادة يندرج بعضها في بعضها الآخر على بعض الآراء.

الثاني: أنّ كاف الخطاب رغم كونها تشير إلى الله تعالى، لكنّها تشير إليه بنحو معرفة العابد، إمّا ببرهان الإنّ، وهو السير من المخلوق إلى الحقّ تعالى، أو ببرهان اللّمّ، الذي يسمّيه العلماء معرّف الله بالله تعالى، وهي معرفة الصدّيقين، وعلى كلا النمطين والنحوين لا يلزم التحديد والتعيين؛ لأنّهما يختصان بالممكن، أمّا الله تعالى فلا حدّ له.

فقد جاء في الروايات أنّه تعالى: «**أَيَّنَ الْأَيْنَ بِلَا أَيْنٍ، وَكَيَّفَ الْكَيْفَ بِلَا كَيْفٍ، فَلَا يُعْرَفُ بِالْكَيْفُوفِيَّةِ وَلَا بِأَيْنُونِيَّةٍ، وَلَا يُدْرَكُ بِحَاسَّةٍ، وَلَا يُقَاسُ بِشَيْءٍ**»(٢)، فإنّ كلّ ذلك لا يطلق على الحقّ تعالى، وإنّما يطلق على خلقه لوجود حدود وتعيّنات للخلق دون الحقّ تعالى.

---

(١) دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) الكافي: ١: ٧٨.

أسرار تقديم الضمير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾

من الأُمور المهمّة هنا في قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ تقديم الضمير لأُمور:

الأوّل: إظهار الخصوصيّة للعابدين

إبانة وخصوصيّة للعابدين أوّلاً كما يذكر بعض المفسّرين أنّ الله تعالى هو الحقّ المطلق، فلذلك تقديم الضمير ﴿**إِيَّاكَ**﴾ ضمير المخاطب على ﴿**نَعْبُدُ**﴾ باعتبار ﴿**نَعْبُدُ**﴾ تتعلّق بالمخلوق، ومن الواضح تقدّم الحقّ والخالق على المخلوق.

الثاني: حضور المعبود

غير أنّ هناك حيثيّة أُخرى ينبغي أن يلتفت إليها، وهي مسألة الشهود والحضور لله تعالى، وكأنّ العابد يبدأ العبادة وهو عارف بالحقّ، واصل إليه، لكونه لا يعبد من لا يعرف، وإنّما يعبد المعروف لديه، ولذلك قدّم الضمير هاهنا، أي لحيثيّة الحضور التي أشار إليها أمير المؤمنين عليه السلام في قوله: «**ما رأيت شيئاً وإلّا ورأيت الله قبله**»(١) وكأنّ العابد يلتفت أنّ المعبود حاضر لديه، فيتوجّه بقلبه عابداً إيّاه، وعليه فإنّ ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ يستلزم مرتبة الحضور لدى العابد.

الثالث: الوصول إلى اليقين بالحقّ تعالى

العبادة طريق للوصول إلى الله تعالى واليقين بوجوده، ولعلّ قوله تعالى: ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾(٢) إبانة إلى هذا المطلب، أي أنّ العبادة توصل العابد تدريجيّاً إلى مرتبة اليقين بمعبوده، ولذلك يرى العابد أنّ الحقّ حاضر لديه، ظاهر عنده، متجلٍّ في كلّ التفاتاته، وهذا المعنى الذي يوصل العابد إلى اليقين

---

(١) شرح أصول الكافي للمازندراني: ٣: ٨٣.

(٢) الحجر ١٥: ٩٩.

وحضور الحقّ تعالى لديه يشير إليه تقديم الضمير ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾، فيستلزم ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ اليقين بوجود الحقّ والمعرفة التامّة له، لكون العبادة تجلّي الحقّ لدى العابد، وفي دعاء عرفة: «**أَ يَكُونُ لِغَيْرِكَ مِنَ الظُّهُورِ مَا لَيْسَ لَكَ حَتّىٰ يَكُونَ هُوَ الْمُظْهِرَ لَكَ؟ مَتىٰ غِبْتَ حَتّىٰ تَحْتَاجَ إِلَى دَلِيلٍ يَدُلُّ عَلَيْكَ؟ وَمَتىٰ بَعُدْتَ حَتّىٰ تَكُونَ الْآثَارُ هِيَ الَّتِي تُوصِلُ إِلَيْكَ؟ عَمِيَتْ عَيْنٌ لَا تَرَاكَ وَلَا تَزَالُ عَلَيْهَا رَقِيباً، وَخَسِرَتْ صَفْقَةُ عَبْدٍ لَمْ تَجْعَلْ لَهُ مِنْ حُبِّكَ نَصِيباً**»(١)، ويستلزم حينئذٍ ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ الإشارة بل لعلّها البيان بأنّ العبادة توصل إلى الله تعالى بل إلى اليقين بوجوده. نعم، اليقين بوجود الله تعالى يتأتّى عبر دلائل متعدّدة، منها: التأمّل والتفكّر، قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾(٢)، أي حتّى يتبيّن لهم الوجود المطلق لله تعالى.

العبادة أفضل طرق استقرار مرتبة اليقين

يصل الإنسان عبر التأمّل في عالم الآفاق إلى الله تعالى، وإدراك الحقّانيّة المطلقة لوجوده، وكذلك بالتأمّل في عالم نفسه، والتفكير يصل إلى إدراك الحقّ تعالى، وعليه فإنّ هناك طرق:

الأوّل: التأمّل عبر البرهان والاستدلال والتفكير.

الثاني: العبادة.

الثالث: من خلالهما معاً.

بالطبع ينبغي أن يلتفت أنّ طريق التفكير والاستدلال على وجود الحقّ رغم كونه يوصل الإنسان إلى مرتبة اليقين لكّنه لا يستقرّ لديه ذلك؛ لأنّ البرهان إذا

---

(١) بحار الأنوار: ٦٤: ١٤٢.

(٢) فصّلت ٤١: ٥٣.

لم يصل إلى أعلى مراتبه سيشوبه غموض ، وبالتالي لن يجعل المبرهن عليه مستقرّاً دائماً في اُفق النفس ، ولهذا فإنّ أقوى الطرق وأضمنها لاستقرار مرتبة اليقين بمعرفة الله تعالى هو بالمزج بين البرهان والعبادة ، ليكون اليقين راسخاً ومستقرّاً في النفس ، وهو الطريق الذي أرشد إليه الأنبياء ، قال تعالى : ﴿**وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾(١) ، وقال تعالى : ﴿**وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ**﴾(٢) ، وقال تعالى : ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ**﴾(٣) .

إذن أرشد الأنبياء الناس إلى الجمع بين الأمرين ليكون الحق تعالى حاضراً وناظراً لديهم ، وذلك أنّ الاستدلال بالبرهان قد لا يكون تامّاً ـ كما أشرنا ـ فيؤتى بالعبادة ليترسّخ وجود الحقّ ، ويظهر ذلك لمن يدرك معنى العبادة بأنّها خضوع تامّ لله تعالى ، وخشوع مطلق وانمحاء إنّيّة ، حيث لا يرى العابد لنفسه وجوداً .

إنّ ذلك يؤدّي إلى إدراك وجود الحقّ واليقين به لكون الإنسان لا يرى لنفسه وجوداً ، أمّا من يرى لنفسه وجوداً فمن الممكن أن يصبح في تيه فلا تثبت المعرفة في قلبه ، ولعلّ في ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ إشارة واضحة لمن تأمّل حقيقة العبادة .

العلاقة بين الاستعانة والعبادة

عندما يقول المؤمن : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ عليه أن يفهم شيئاً فيأتي بقوله تعالى : ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ ليتجرّد عن قوّته وحوله في كلّ اُموره ، خصوصاً في عبادته .

نفي الاستقلاليّة الذاتيّة في العبادة

لأنّه أظهر نوعاً من الاستقلال لشخصيّته بقوله : ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ ولا يزول ذلك

(١) الأنبياء ٢١ : ٧٣.

(٢) الحجر ١٥ : ٩٩.

(٣) الأنعام ٦ : ٧٥.

الاستقلال حتّى يردفه بـ ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لكون الاستعانة بالله تعالى تثبت معنى عبوديّة العابد لله تعالى، فيصبح المعنى: أعبدك بك، وبالقدرة التي منحتني إيّاها، وأنّ عبادتي ليست جائية من استقلال ذاتيّ، بل هي من القدرة التي منحتني إيّاها، ويتّضح هذا المعنى لمن يفقه معنى الأمر بين الأمرين «**لَا جَبْرَ وَلَا تَفْوِيضَ، وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ**»(١).

الله مفيض للقدرة على عبادته

أي أنّ الله تعالى لم يفوّض للعبد القدرة بحيث يكون مستقلاًّ في التصرّف بها، وعندما نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قد يتوهّم أحد أنّ العبادة باستقلال من العبد، إلّا أنّ الله تعالى لم يجعل لعبده ذلك، بل زمام الأمر وجميع ما لدى العبد بيده تعالى، فهو يقبض ويبسط، ويعطي ويمنع، وإذا التفت العبد إلى هذا المعنى أدرك حقيقة أعبدك بك، أي بفضلك وقدرتك التي منحتني إيّاها، فإرداف ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يزيل المعنى الذي يظهر بدواً من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ليصبح العبد عاملاً لله تعالى بقدرته سبحانه.

العبادة لا تحصل إلّا بالاستعانة بالله

قد أشرنا إلى معنى الحوقلة، وأنّ الإنسان عندما يحوقل ويقول: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله» يتجرّد عن القدرة الذاتيّة، ويخبر أنّه لا قوّة ولا قدرة له إلّا بالله تعالى، ومعنى العبادة هاهنا كذلك، وبه يصبح المؤمن عالماً بظهور الحقّ، وأنّ من أظهر الحقّ هو الحقّ تعالى، وذلك معنى «**بِكَ عَرَفْتُكَ**»، أي بقدرتك وبوجودك عرفتك، «**وَأَنْتَ دَلَلْتَنِي عَلَيْكَ، وَلَوْلَا أَنْتَ لَمْ أَدْرِ ما أَنْتَ**» إذن حيثيّة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي إبانة لمعانٍ متعدّدة، أهمّها الظهور المطلق للحقّ تعالى للعابد، وإيصاله إلى مرتبة

(١) الكافي: ١: ١٦.

اليقين، واستقرار تلك المرتبة في ذاته، وعدم كون العبادة باستقلال منه وإنّما هي بفيض وعطاء واستعانة من الحقّ تعالى.

الاستقلال المطلق يتعذّر على المخلوق

إنّ الله تعالى لو لم يعطِ العبد القدرة لما استطاع أن يعبده تعالى، ولذلك تمرّ على الإنسان أوقات يفقد فيها قدرته على عبادة الله تعالى، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ**﴾(١)، وعليه فإنّ معنى الأمر بين الأمرين هو أنّ قولنا: ﴿**وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾ أي أنّ القدرة منك ونتصرّف فيها باختيارنا دون استقلال، ولك الأمر في البدء والختام، حيث أنّك المعطي للمدد وإنْ شئت منعته، وبذلك تتّضح نظريّة (**لَا جَبْرَ**)؛ لأنّ الله تعالى لم يجبر أحداً وإنّما منحه القدرة وأعطاه الاختيار بالتصرّف فيها (**وَلَا تَفْوِيضَ**) لأنّه لم يستقلّ العبد بها، (**وَلَكِنْ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ**)، والمسألة دقيقة وهي وسط بين إعطاء العبد للقدرة وبين التفويض إليه في صرفها، ولهذا لا تفويض، أي ليس هناك استقلال في صرف القدرة دون رجوع ذلك إلى الله تعالى، ولا قسر ولا إلجاء على الفعل بل هناك شيء وسط، وبذلك يتبيّن لنا أنّ المعبود هو الظاهر الحقّ، ويظهر الوجه في تقديم ﴿**إِيَّاكَ**﴾ لكونه تعالى واجب الوجود، ونحن في عالم الإمكان، وهو تعالى مقدّم على الممكن لتقدّم الخالق على المخلوق.

انحصار الاستعانة بالله تعالى

معنى حصر العبادة بالله تعالى أنّه لا معبود بحقّ إلّا هو، أمّا غيره ـ حتّى وإنْ عُبد ـ فعبادته باطلة لأنّها لا تقوم على أُسس ودعائم تقتضي حقّانيّة العبوديّة، بخلاف عبادة الحقّ تعالى فهي قائمة على دعائم بينت في قوله تعالى: ﴿**الْحَمْدُ للهِ رَبِّ**

(١) القلم ٦٨: ٤٢.

الْعالَمِينَ﴾، وكذلك في البسملة، أمّا غيره فلا يملك ملكيّة مطلقة، ولا قيّوميّة له، وليس له الحمد، ولا يتّصف بالرحمانيّة الرحيميّة لله تعالى، ولا بالصفات الكماليّة الجماليّة التي للحقّ تعالى، من هنا يتّضح أيضاً معنى الاستعانة، وأنّها به لا بغيره، ويتّضح أيضاً السرّ في حصر الاستعانة به مع أنّ الظاهر أنّ البشر يستعينون بغير الله تعالى، كأمر الإنسان لأخيه بجلب شيء، قال تعالى: **﴿لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً﴾**(١)، أي أنّ الله تعالى سخّر بعض الناس لبعضهم الآخر ليستعين في الوصول إلى مآربه وتحقيق مقاصده، أمّا لماذا حُصرت الاستعانة به تعالى مع كوننا نستعين بغيره؟

مرجعيّة الاستعانة بالغير إلى الله

هذا مطلب جدّ هامّ، ويرجع إلى ما تقدّم وهو أنّنا عندما نقول: **﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** فإنّ حقيقة الاستعانة ترجع إلى الله تعالى والقدرة لدى غيره منه تعالى، وحينئذٍ فإنّ وصولنا إلى مآربنا بالاستعانة بغيره مرجعه إليه تعالى، وإذا نظرنا إلى أنّ الله تعالى هو الذي أعطى الخلق القدرة عرفنا أنّ الاستعانة الحقيقيّة إنّما تتأتّى منه وحده دون ما سواه، وعندما نقول: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾** فمعنى ذلك أنّ الاستعانة بغيره وإنْ كان ظاهرها من غيره لكن واقعها منه؛ إذْ لا يملك أحدٌ شيئاً إلّا به تعالى، فاستعانتنا بغيره راجعة إليه تعالى في المآل، والاستعانة بالخلق راجعة إلى الحقّ؛ إذ لا وجود لقدرة باستقلال، وقدرة الخلق من الحقّ تعالى، ومعنى أنّ الاستعانة بغيره ترجع إليه، كحمد غيره يرجع إليه، لأنّه ليس لدى غيره صفات جمال وكمال ذاتيّة، وما عند غيره هو منه تعالى، ويظهر هذا المعنى من الحوقلة في قولنا: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم».

---

(١) الزخرف ٤٣: ٣٢.

التجرّد من الأنا والاستقلاليّة

للاستعانة في العبوديّة تأثير جد هامّ، أي أنّ إدراك العابد معنى استعانته بالله تعالى من غايات معرفة الله تعالى؛ لأنّه إذا التفت إلى معنى الاستعانة بالله تعالى جرّد نفسه من الحول والقوّة، وعلم أنّ ما لديه من توفيق في العبادة مرجعه إلى الله تعالى، وبذلك يظهر أنّ في قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيثيّة أخلاقيّة عرفانيّة دقيقة هي أنّ العابد في مقام عبوديّته عندما يعي أنّ الاستعانة جائية من الله تعالى يتعرّف أنّ المدد والتوفيق للعبادة هو من عنده تعالى، وبذلك تكون عبادته ـ مهما بلغت من درجات ـ لا توجب له الرياء، ولا يصل بها إلى العجب؛ لأنّ العجب والرياء والكبرياء أُمور تأتي للإنسان إذا نظر إلى ذاته، ورأى أنّه كمل ووصل إلى مراتب عالية لم يصل إليها غيره، فيستطيل مختالاً على غيره، أمّا إذا أدرك أنّ عبوديّته لله تعالى جاءته من الله تعالى، ولولا أنّ الله تعالى أمدّه بالقوّة لما عبده تعالى، فقد جرّد نفسه في أثناء عبوديّته من حوله وقوّته والتجأ إلى الله تعالى، أي أنّه علم بأنّه لولا أنّ الله تعالى منحه القدرة والتوفيق للطاعة لما استطاع العبادة، وهذا مقام أخلاقيّ عرفانيّ عالي، وفائدته التجرّد من الكبرياء، وزوال العجب، والتخلّي عن الرياء، فتصبح عبادته مؤثّرة لكونها خالصة لله تعالى، ولكونها عن معرفة.

الرابع: لا فعل في عالم الإمكان إلّا ويرجع إليه تعالى

هناك مطلب توحيديّ في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يظهر من خلال ما تقدّم في إيضاح حقيقة التوحيد في العبادة، فقد بيّنّا هناك بعض معاني التوحيد ـ كتوحيد الذات، وتوحيد الصفات، وتوحيد العبادة ـ وهناك أيضاً توحيد في الأفعال، فعند قول العابد: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يظهر معنى أنّ جميع الأفعال التي تحدث في عوالم الإمكان راجعة إلى الحقّ تعالى، فأصبحت الاستعانة دالّة على توحيد الأفعال

لأنّه لا فعل إلّا ويرجع إلى قدرة الحقّ تعالى فهو الفاعل، ويتّضح من ذلك أنّ جميع أنحاء التوحيد جمعتها سورة الفاتحة، فقد دلّت على توحيد الذات وتوحيد العبادة وتوحيد الصفات لكون صفات الكمال ترجع إلى الذات المقدّسة، ودلّت أيضاً على توحيد الأفعال لأنّ جميع الأفعال إنّما تتأتّى بقدرة القادر المتعال، ولولا أنّ الله تعالى منح الفاعل القدرة لما استطاع الفاعل أن يحدث فعله. إذن الفعل الذي يتأتّى من الفاعل مرجعه إلى الله تعالى، وذلك يرجع إلى الاستعانة بالله تعالى، فأصبح ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يدلّ على توحيد العبادة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدلّل على توحيد الأفعال بمعنى لا فعل في عالم الإمكان إلّا ويرجع إلى الواحد القهّار.

اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾

الهداية وأقسامها

الهداية في اللغة هي الرشاد والدلالة، ومعناها اللغويّ أرشدنا أو دلّنا على الصراط المستقيم، وتنقسم إلى قسمين: هداية تكوينيّة وأُخرى تشريعيّة.

الأُولى: الهداية التكوينيّة

التكوينيّة يشير إليها قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾[١]، أي أنّ الله تعالى أوجد عالم الممكنات، وجعل كلّ مفردة من مفرداته على نسق محدّد في عالم التكوين تمثّل حكمة الوصول إلى مقصده، وهذه هي الهداية التكوينيّة.

الثانية: الهداية التشريعيّة

أمّا التشريعية فهي التي يتكفّل بها الأنبياء والرسل، فهم عليهم السلام يرشدون ويدلّون

---

(١) طه ٢٠: ٥٠.

الناس على النظم والقوانين والتكاليف والتشريعات التي توصلهم إلى سعادتهم وتحقّق لهم كمالهم، وتلك هي الهداية التشريعيّة.

العلاقة بين الهداية التكوينيّة والتشريعيّة

لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى رفعة الدرجات بالهداية التكوينيّة وحدها رغم أنّ الله تعالى أعطاه العقل، وأفاض عليه نعماً متعدّدة، كالجوارح والجوانح، لكن الجوارح والعقل لا يستطيعان إيصال الإنسان إلى كماله، ذلك أنّه لا يهتدي بعقله وجوارحه فقط، بل يحتاج إلى تتميم للهداية، يتأتّى ذلك التتميم عبر الرسل والأنبياء فهم الذين يرشدون الناس إلى ما يوصلهم إلى كمالهم.

معاني الهداية

وتأتي الهداية بمعنيين:

الأوّل: الدلالة على الطريق، أي إراءة الطريق، تقول: هديته بمعنى أريته الطريق وأرشدته إليه.

الثاني: الإيصال إلى المطلوب.

وهي بالمعنى الثاني تشمل المعنى الأوّل إراءة الطريق، والأخذ بيد المهتدي إلى المطلوب، أي أنّ الهداية بالمعنى الثاني تتضمّن المعنى الأوّل وزيادة، وقد أشارت الآيات القرآنيّة إلى المعنيين، قال تعالى: ﴿**وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ**﴾(١)، أي أريناهم جادّة الصواب والطريق إلى المطلوب، وعليه فإنّ قوم ثمود أبان لهم الله تعالى طريق الخير وطريق الشرّ، قال تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾(٢)، بمعنى أريناه طريق الخير وطريق الشرّ،

---

(١) فصّلت ٤١: ١٧.

(٢) البلد ٩٠: ١٠.

وعلّمناه أنّ طريق الخير يوصل إلى الخير، وطريق الشرّ يوصل إلى السوء، وإذا اتّبع الطريق الموصل إلى الخير وصل إليه، وإن اتبع الطريق الموصل إلى السوء وصله، ولعلّ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ بمعنى أوصلناهم؛ لأنّ الله تعالى يذمّهم لكونهم بعد أن أوصلهم الله تعالى إلى الرشد وحقّق لهم ما يصبون إليه رجعوا على أعقابهم عن الرشد والهدى الذي تحقّق لهم، فتكون الهداية هنا بمعنى الإيصال إلى المطلوب.

الرجوع القهقريّ عن هداية الله

هنا إشكال في تصوّر الرجوع القهقرى وترك المقام الحسن الذي وصل إليه المهتدي.

لكنّ الحال على ذلك لأنّ كثيراً من الناس يصل إلى درجات عالية ومقامات سنيّة ورتب جليلة لكنّه يرجع القهقرى، ويدع ما وصل إليه.

وهناك أمثلة كثيرة في التاريخ، فقد نرى عابداً وصل إلى مقام عالٍ بعبادته ولكنّه تركه مع علمه بتأثير العبادة في عالمي الدنيا والآخرة، وقد نرى عالماً وصل إلى رتبة في علمه، لكنّه لم يهتدي إلى الحقّ ويأخذ بالرشد، بل يختار ما هو ضدّه من السوء، قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً﴾[١]، وقال في بلعم بن باعوره: ﴿فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾[٢]، أي عن الآيات التي هداه الله تعالى إليها ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾[٣].

(١) الجمعة ٦٢: ٥.
(٢) الأعراف ٧: ١٧٥.
(٣) الأعراف ٧: ١٧٦.

إذن هناك أنماط من الهداية ، منها إيصال المهتدي إلى الحق ،لكنّ ذلك لا يشكّل حَصانة ؛ إذ قد يرجع المهتدي عن الحقّ ويدعه ، بل قد يأخذ ما هو ضدّه ، وحينئذٍ نفهم أنّ الهداية بالمعنيين هي المشار إليها بقوله تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ .

ماذا يريد المصلّي بقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾؟

إنّ المصلّي في دعائه يريد أن يصل إلى اُمور :

الأوّل: التعرّف على الطريق الموصل إلى الحقائق .

ليس بمعنى أوصلنا إلى الخير ، لكونه قد اتّضح لديه ذلك فبدأ صلاته ، لكنّه يريد الوصول إلى الخير وليس رؤيته فقط .

وقيل : إنّه يريد المعنيين بمعنى أرنا وأوصلنا ، فيكون معنى أرنا يشير إلى وجود مقامات كثيرة للإنسان ورتب متعدّدة ، بعضها وصل إليه ، وبعضها الآخر يحتاج أن يراه ، فيطلب من الله تعالى أن يراه ، ويطلب أيضاً أن يصل إليه ؛ إذ أنّ هناك اُمور كثيرة لا تتّضح للإنسان بدواً ، وعليه فإنّ دعاء المصلّي يتضمّن كلا المعنيين .

الثاني: الوصول إلى نفس الحقائق .

بعد أن يتعرّف المصلّي على الأمور التي وصل إليها سوف يهتدي إلى الحقّ ، وذلك معنى ما جاء في بعض الروايات أنّ الإمام المعصوم عليه السلام هادي ، بمعنى موصل ، أي أنّه لا يُرِي الطريق فقط وإنّما يأخذ بيد المهتدي إلى الحقّ ، ولهذا نرى بعض حواري عيسى عليه السلام وحواري الأنبياء عليهم السلام لا يتعامل معهم عيسى عليه السلام كسائر الناس ؛ لأنّ لديهم استعداداً خاصّاً لا يستطيع بعض الناس أن يصل إليه .

والخلاصة: أنّ المعصوم عليه السلام يرى الذين لديهم قابليّة وأهليّة عالية فيرشدهم ويدلّهم على الطريق ، ويأخذ بأيديهم إليه ، لرفع مستواهم ، أي أنّ الهداية هنا تشمل التكوينيّة والتشريعيّة ، لكنّ التكوينيّة خاصّة بإيصال من لديه الأهليّة إلى تلك الرتبة ، والنبيّ صلى الله عليه وآله كعيسى عليه السلام في إيصاله بعض الحواريّين إلى تلك الرتب ، وكموسى عليه السلام

في إيصاله بعض حوارييه ، هكذا حال الأنبياء والرسل والأئمّة والعلماء يأخذون بأيدي بعض تلامذتهم من الذين لديهم الاستعداد والأهليّة والقابليّة ، وتلك هداية تكوينيّة يصل فيها الهادي إلى الهيمنة التامّة على المهتدي .

الصراط المستقيم

اتّضح ممّا تقدّم أنّ المراد من قوله تعالى : ﴿**اهْدِنَا**﴾ كلا المعنيين ، أي أنّ الداعي لله تعالى المتوجّه بقلبه يريد أن يتعرّف على الأُمور المجهولة فيرتقي علميّاً ، ويريد أيضاً أن يصل إلى ما يتعرّف عليه ، أمّا ﴿**الصِّرَاطَ**﴾ فهو في اللغة الطريق الواضح ، و ﴿**الْمُسْتَقِيمَ**﴾ هو الطريق المعتدل ، أي الذي لا اعوجاج فيه ، والداعي هاهنا يطلب من الله تعالى أن يهديه الصراط المستقيم ، أي الطريق الواضح ، ولهذا الطريق علامات .

سمات الصراط المستقيم

أوّلاً : الوضوح

هنا بحث أخلاقيّ جدّ هامّ ، وهو الوضوح في سلوك الطريق ؛ إذ أنّ أكثر الضلالات في التاريخ تأتي عبر عدم الوضوح في الرؤية ، فيسلك الإنسان طريقاً فيه إيهام ، وبالتالي يستسهل ذلك في بداية سلوكه ، ولكنّه عندما يتوسّط الطريق يعرف بأنّه لن يستطيع الخروج منه ، وهذا في الأُمور الاجتماعيّة والعقديّة غاية في الوضوح ، ولهذا بيّن الله تعالى هذا الأمر الهامّ ، ويريد للمؤمن أن يستقيم في حياته ، ولا يتحقّق ذلك إلّا أن يسلك الطريق الواضح ، أي أنّ الوضوح في الرؤية يؤدّي إلى نتائج طيّبة وحميدة توصل السائر إلى مقاصد جليلة ، أمّا إذا سلك الإنسان طريقاً غير واضح فإنّه في الأعمّ الأغلب تكون عاقبته وخيمة في الأُمور الاجتماعيّة والاقتصاديّة ، وكذلك في الأُمور العقديّة .

ثانياً: سهولة الوصول إلى الحقيقة

من أهمّ ميّزات الطريق الواضح اختزال المسافة، باعتبار أنّ المدّة الزمنيّة التي يقضيها الإنسان في الحياة الدنيا قصيرة جِدّاً ولا تسعفه أن يسلك طرقاً طويلة؛ لأنّ ذلك سيؤدّي إلى تصرّم عمره قبل أن يصل إلى مقاصده، أمّا إذا سلك الطرق المختزلة الواضحة فإنّ النتائج تكون ظاهرة لاستقامة الطريق وإيصاله إلى الغاية.

طريق الوصول عبر الصراط المستقيم

هناك سبل مختلفة يُسهم كلّ منها في إيصال الإنسان إلى مبتغاه، وقد يؤثّر بعضها على بعضها الآخر، وحينئذٍ لا يستطيع السالك أن يصل إلى الغاية القصوى والمبتغى الأكمل، وهو القرب من الله تعالى، والوصول إلى الدرجات العالية، وذلك هو الهدف الأكمل، قال تعالى: ﴿**إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ**﴾[1]، ولذلك لا بدّ أن يعرف المؤمن كيف يصل إلى القرب من الله تعالى.

وقد أوضح بعض العلماء ذلك بقوله: إنّ عليه أن يسلك طريق الصواب وجادّة الهداية، بأن يكون عادلاً؛ لأنّ الصراط المستقيم هو المعتدل، والعدالة معناها: انعدام الاعوجاج، فلا زيغ عنده.

ومن هنا فإنّ الصراط المستقيم يشمل حيثيّات متعدّدة، ويحتاج الإنسان أن يكون مستقيماً في سلوكه، وفي أخلاقه وعقائده، أي أنّ هناك استقامات متعدّدة حتّى يصل إلى الله تعالى، وإذا استقام في طريق واحد وانحرف في مجالات أُخرى فإنّه في الأعمّ لا يصل إلى المطلوب؛ لأنّ ذلك سيؤثّر عليه وعلى مساراته الأُخرى، فإنِ استقام في أخلاقه وانحرف عقديّاً فقد ابتعد عن الغاية، ولهذا اقترن الصراط بـ(الـ)، وهي هنا إمّا للجنس أو للاستغراق، وكلا المعنيين يؤدّيان إلى مآل واحد،

---

(١) الانشقاق ٨٤: ٦.

فإذا جعلناها للجنس أي اهدنا إلى صراط الاستقامة، وإذا جعلناها للاستغراق شملت كلّ مفردات الصراط المتعدّدة، والمآل واحد، فـ(الـ) هنا يراد بها لفت نظر المصلّي إلى أنّه لا يكفي للمرء أن يستقيم في بعض الأُمور فحسب، بل لا بدّ من الاستقامة بنحو عامّ لتؤدّي بالإنسان إلى الفلاح والنجاح والفوز.

ذلك أنّ الإنسان قد يكون جيّداً في عباداته غير أنّه سيّء في تعامله رغم أنّ الدين المعاملة. إذن فإنّ الألف واللام هنا تفيد المصلّي أخلاقيّاً فيصل بها إلى الاستقامة في عامّة أُموره فلا ينحرف في عقائده، ويتّزن في أخلاقه وسائر شؤونه، وبذلك يكون عادلاً لأنّ معنى العدالة هو الإتيان بالواجبات وترك المحرّمات، والاستقامة العقديّة بأن تكون عقائده سليمة، وعلى هذا فإنّ أعظم المطالب الأخلاقيّة يصل إليها المصلّي بدعائه بالهداية لنفسه بأن يسلك الطريق المستقيم، ومن ذلك نصل إلى معنى: ﴿**إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ**﴾[1]، فمن صلّى فإنّه يستطيع في أي مجال من المجالات أن يستلّ نفسه عند الشبهة فيخاف عليها لمعرفته بالمعاد ودقّة الحساب ﴿**مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ**﴾، فلا يقع في شبهة في الأموال ولا في أعراض الناس لسيره في الصراط المستقيم.

معاني الصراط المستقيم في الروايات

فُسِّر الصراط المستقيم بأُمور:

أوّلاً: القرآن الكريم

أي أنّ الصراط المستقيم هو القرآن الكريم، وقد جاء ذلك في قوله تعالى:

---

(١) العنكبوت ٢٩: ٤٥.

﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجاً ﴾(١)، أي أنّه مستقيم غير معوجّ.

ثانياً: تفسيرات اُخرى

وفُسِّر أيضاً بالنبيّ صلى الله عليه وآله، وكذلك بالإسلام، وفُسِّر بالإمام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أيضاً، وكذلك بحب محمّد وآله عليهم السلام. إذن هناك تفسيرات متعدّدة للصراط المستقيم، لكنّها ترجع إلى معنىً واحد وهو الإسلام، لأنّه دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ ﴾(٢).

المعاني في الروايات من قبيل الجري

يسمّي السيّد الطباطبائي يرحمه الله صاحب الميزان هذا النمط من التفسير بالتفسير بالجري، ويقصد به أنّ هذا التفسير هو لبيان المصداق، أي أنّ المفسّر يأتي بمصداق ومن خلاله يتّضح المعنى، وهنا مصاديق متعدّدة للصراط المستقيم أهمّها أنّه يهدي إلى الحقّ، قال تعالى: ﴿إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتي هِيَ أَقْوَمُ ﴾(٣).

إنّ تفسير الصراط بالنبيّ صلى الله عليه وآله واضح لأنّه مصداق خارجيّ للقرآن الكريم، فهو يجسد القرآن، وكذلك تفسير الصراط بالإسلام لكون الإسلام هو الأحكام والقوانين والنظم التي تؤدّي بالملتزم بها إلى أن يصل إلى الغاية التي من أجلها خلق، وهكذا تفسيره بالإمام عليّ عليه السلام لكونه نفس النبيّ صلى الله عليه وآله ومصداق الإسلام البارز.

أمّا تفسير الصراط المستقيم بالحبّ للنبيّ وأهل البيت عليهم السلام فهو أيضاً واضح، ويراد به ما يدعو للاقتداء والسير في جادّة الصواب التي عليها المصطفى صلى الله عليه وآله

---

(١) الكهف ١٨: ١.

(٢) آل عمران ٣: ١٩.

(٣) الإسراء ١٧: ٩.

وأهل البيت عليهم السلام .

وقد اتّضح ممّا تقدّم أنّ هناك مصاديق من التفسير بالجري لتبيان مصداق الاستقامة ، ويتّضح ذلك بنحو أكبر إذا عرفنا حديث الثقلين ، وأنّ القرآن وأهل البيت عليهم السلام بينهما تلازم لا ينفكّ أحدهما عن الآخر .

سرّ صيغة الجمع في ﴿اهْدِنَا﴾

الحيثيّة الأُخرى هي لماذا لم يعبّر القرآن بـ (اهدني الصراط المستقيم) ، وعبّر بصيغة الجمع ؟

ترتبط المسألة بأُمور :

أوّلاً : توجب مظنّة الاستجابة

إذ أنّ من أهمّ حيثيّات الدعاء إشراك الداعي لغيره كي يستجاب دعاءه ، ولهذا أهمّيّة كبيرة ينبغي أن نلتفت إليها في أدعيتنا ونعمّم الدعاء ، أي أنّ الإنسان يدعو لنفسه ولغيره ؛ لأنّ الدعاء لغيره يستجاب كما جاء في الروايات ، وبذلك يتحقّق ما يبتغيه لنفسه ، ففي بعض الروايات أنّ الله تعالى يعطي مثلي ما دعا به العبد لنفسه ، أي يضاعف له العطاء مرّتين ، وفي بعضها الآخر أنّه يعطى مائة ألف ضعف ، فقد «كَانَ عِيسَى بْنُ أَعْيَنَ إِذَا حَجَّ فَصَارَ إِلَى الْمَوْقِفِ ، أَقْبَلَ عَلَى الدُّعَاءِ لِإِخْوَانِهِ حَتَّىٰ يُفِيضَ النَّاسُ .

قَالَ : فَقُلْتُ لَهُ : تُنْفِقُ مَالَكَ ، وَتُتْعِبُ بَدَنَكَ ، حَتَّىٰ إِذَا صِرْتَ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي تُبَثُّ فِيهِ الْحَوَائِجُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَقْبَلْتَ عَلَى الدُّعَاءِ لِإِخْوَانِكَ ، وَتَرَكْتَ نَفْسَكَ ؟ قَالَ : إِنِّي عَلَىٰ ثِقَةٍ مِنْ دَعْوَةِ الْمَلَكِ لِي ، وَفِي شَكٍّ مِنَ الدُّعَاءِ لِنَفْسِي »(١) .

وقد لقي عبد الله بن جندب إبراهيم بن شعيب في الموقف بعرفة فسلّم عليه

---

(١) الكافي : ٤ : ٤٦٥ .

ـوكان مصاباً بإحدى عينيه وإذا عينه الصحيحة حمراء كأنّها علقة دم فقلت له: قَدْ أُصِبْتَ بِإِحْدىٰ عَيْنَيْكَ وَأَنَا وَاللهِ مُشْفِقٌ عَلَى الْأُخْرىٰ، فَلَوْ قَصَرْتَ مِنَ الْبُكَاءِ قَلِيلاً؟ فَقَالَ: ـوَاللهِ ـ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، مَا دَعَوْتُ لِنَفْسِيَ الْيَوْمَ بِدَعْوَةٍ، فَقُلْتُ: فَلِمَنْ دَعَوْتَ؟ قَالَ: دَعَوْتُ لِإِخْوَانِي، لِأَنِّي سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَلَيْهِ السَّلامُ يَقُولُ: **مَنْ دَعَا لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ وَكَّلَ اللهُ بِهِ مَلَكاً يَقُولُ: وَلَكَ مِثْلاهُ**، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكُونَ إِنَّمَا أَدْعُو لِإِخْوَانِي وَيَكُونَ الْمَلَكُ يَدْعُو لِي، لِأَنِّي فِي شَكٍّ مِنْ دُعَائِي لِنَفْسِي، وَلَسْتُ فِي شَكٍّ مِنْ دُعَاءِ الْمَلَكِ لِي[1]، أي أنّ الداعي يريد أن يحصل على أفضل العطايا وأجلّ الهبات من الله تعالى، ولا يريد أن يحصل على القليل، قال تعالى: ﴿**أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ**﴾[2].

ثانياً: محو الإنّيّة

وهنا بحث عميق يرتبط بهذه الحيثيّة، وذلك إنّنا عندما ندعو للغير مع دعاءنا لأنفسنا فإنّنا أشبه بمن يضرب عصفورين بحجر واحد، بالإضافة إلى كونه يرتبط بمحو الإنّيّة، أي أنّ الداعي لا يرى نفسه وإنّما يتوجّه إلى مبدئه وخالقه إلى الله تعالى، وهذا أساس الكمال، قال الشاعر:

فقلت ما أذنبت فقالت مجيبة ... وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

يسمّون هذا النحو في البلاغة تجريداً، أي أنّ المتحدّث يجرّد من نفسه وجوداً ثمّ يخاطبه كنفسه.

أي أنّك ما دمت تنظر إلى إنّيّتك فأنت عابد لذاتك، وذلك من أعظم الذنوب؛ إذ كيف تصل إلى الله تعالى في حال نظرك إلى ذاتك والتفاتك إلى إنّيّتك، والحال

(١) الكافي: ٤: ٤٦٥، الحديث ٤٦٦.

(٢) البقرة ٢: ٦١.

أنّ الوصول يتطلّب انمحاء الإنّيّة، حيث لا ينظر من أراد الله تعالى إلّا إليه، والدعاء للغير يعطي الداعي ذلك الكمال المعنويّ؛ لأنّه محى إنّيّته ولم ينظر إلى نفسه، بل توجّه بكلّيّته إلى الله تعالى فخاطب الحقّ تعالى بقوله: أفض على عبادك، فاستحقّ بذلك أن يعطى، لأنّه لم يرَ لوجوده وجوداً في قبال وجود الله تعالى.

إنّ الإنّيّة هي أساس الكبرياء والعجب ومبدأ الرذائل الأخلاقيّة، ومن تخلّص من نظرته إلى ذاته فقد أصبحت صلاته مقبولة، ودعائه مستجاباً، وكشفت له الحجب.

الصراط المستقيم واحد

بقي بحث دقيق نختم به وهو أنّ الصراط المستقيم واحد، وفي قباله طرق متعدّدة ومعوجّة، وفي العادة فإنّ قلب الإنسان وعقله وفكره الناضج إذا استعان بضميره وتوجّه إلى الحقّ تعالى سيهتدي إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَاتَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ**﴾(١)، في الآية إشارة إلى أنّ الطرق التي تدعو إلى الضلال كثيرة، وأمّا ما يدعو إلى الهدى فهو شيء واحد، أي أنّ الهداية تتأتّى عبر طريق واحد، وفي قبالها طرق متعدّدة فيها اعوجاج، وفي الرواية أنّ النبيّ ﷺ كان جالساً مع بعض أصحابه فخطّ خطّاً، وقال: هذا خطّ يؤدّي إلى الله، ثمّ خطّ خطوطاً معوجّة وقال: كلّها تؤدّي إلى النار(٢)، والإنسان في مساره تتعدّد الطرق أمامه واحد منها يؤدّي إلى الله تعالى وبقيّتها تؤدّي إلى النار.

مميّزات الصراط المستقيم

بيّنّا أنّ الصراط المستقيم هو أقرب طريق يوصل إلى الهدى، والعاقل هو من

---

(١) الأنعام ٦: ١٥٣.

(٢) تفسير الميزان ٧: ٣٨٥. تفسير القرطبي: ٧: ١٣٨.

يختار الطريق الأسهل والأقرب للوصول إلى مطلوبه، بمعنى أنّه لا يختار الأصعب مع وجود الأسهل والأقرب لأنّه يريد أن يحتفظ بقواه وقدراته ليستثمرها في رفع مستواه، ولهذا فحتّى وإنْ أوصل بعض الطرق إلى الهدى مع وجود اعوجاج فيه وعدم استقامة، فإنّه لن يسلكه لكونه لن يوفّر طاقة وجهداً، ويستنفد القوى، وقد أشار النبيّ ﷺ بقوله: «**ما خيرت بين أمرين إلّا واخترت أيسرهما**»[(١)]، أي أنّه ﷺ يختار الأسهل لكونه يوفّر جهداً.

النموذج التامّ الكامل لروّاد الصراط المستقيم

رغم أنّ الصراط فيه وضوح ولا اعوجاج فيه غير أنّ الحقّ تعالى يؤكّد على أمر غاية في الأهمّيّة هو أنّ الصراط له روّاد، وهم أُناس يمثّلون نماذج تامّة وكاملة في استقامتهم وهديهم وسمتهم وتعلّقهم بالله تعالى، وهم الأنبياء والرسل والأئمّة عليهم السلام، والتوكيد على ضرورة اتّباعهم، لهذا جاء:

﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ ⑦

ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ المرء إذا كان لديه عدّة من المفاهيم في أُفق ذهنه فهي مفاهيم مجرّدة إذا لم يكن لها نماذج مطبّقة على عالم الواقع، ولهذا سيحار في الكيفيّة المثلى في تطبيقها، أي أنّه لن يكون لديه وضوح في الرؤية؛ ذلك أنّ الوضوح في الرؤية قد يستلزم تجسيداً في عالم الواقع، ولا يتحقّق ذلك إلّا مع وجود نماذج تامّة وكاملة في الاستقامة، ولهذا أكّد الحقّ تعالى على هذا الأمر لأهمّيّته، أي أنّه لا يكفي السائر أن يقول إنّ الأمور تامّة الوضوح إذا لم يكن لديه في عالم التطبيق مثال يقتدي به، قال الله تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ**

---

(١) كاشف القناع للبهوتي: ٢: ٣٥٧.

يَرْجُوا اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾(١).

إذن هناك أهمّيّة بأن يكون الصراط المستقيم متجسّداً في أُناس بنحو كامل ، وكي يتّضح هذا الأمر فإنّ الإنسان إذا جرّب أمراً وأراد أن يتخصّص في مجال ما سوف يعي أهمّيّة مبدأ القدوة ، والانموذج الكامل ؛ لأنّ الإنسان الكامل له التأثير في إيصال غيره إلى الكمال .

ذلك أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعرف دقّة التطبيق إلّا من خلال ملامسة الواقع ، ولهذا فرّق العلماء بين أنماط ثلاثة من العلم ، هي : علم اليقين ، وعين اليقين ، وحقّ اليقين ، فعلم اليقين فيه وضوح في الرؤية ، ويهدي إلى الصراط المستقيم ، أمّا حقّ اليقين فإنّه بالإضافة إلى ذلك فإنّ فيه بعض دلائل الواقع ، ومثال ذلك الدخان الذي يدلّ على النار ، فإنّه علم يقين ، أمّا رؤية النار فهي حقّ يقين لكن الانصهار بها هو إدراك للحقيقة لمن دخل في النار فاشتعل بها ، ولهذا فإنّ إحساسه بالنار يختلف عمّن رأى الدخان ، أو من رأى النار فعلم بها مجرّدة ، إنّ حق اليقين هو الانصهار بالنار ، وهو مبدأ القوّة في الإدراك والإذعان بالحقيقة ، أي أنّ الإنسان يصبح في تطبيقه للمفاهيم على درجة عالية فكأنّه يجسّد تلكم المفاهيم ، ولهذا اهتمّ الحقّ تعالى بإيراد القصص القرآنيّ لعرض حياة الأنبياء والرسل ومرورهم بالابتلاءات المتعدّدة في حياتهم ، وخروجهم من الامتحانات ظافرين ، أي أنّهم لم ينشدّوا إلى الأرض ، بل استطاعوا بصبرهم واستقامتهم أن يتعلّقوا بالله تعالى وأن يجتازوا الصعاب ونالوا من الله تعالى رضوانه .

إذن عرفنا أنّ هناك طرقاً فيها اعوجاج وهناك صراطاً مستقيماً ، والصراط المستقيم له مثل ونماذج كاملة هم الأنبياء والرسل والأئمّة عليهم السلام ؛ إذ أنّه ليس هناك من تعرّض لإغراءات وإغواءات وابتلاءات كالتي ابتلي بها الأنبياء والرسل ،

(١) الأحزاب ٣٣: ٢١.

فيوسف عليه السلام ابتلي بالجنس وهو في فترة شبابه، ولو كان غيره لأمكن أن ينحرف ولم يستطع أن يصبر ويقاوم إلى أن يتغلّب على غريزته ويحصل على اتّباع دقيق.

نعم، هناك تفاوت من شخص إلى شخص في الاستقامة بالاقتداء بيوسف عليه السلام، وهناك من يتعرّض لإرهاب السلطة كمن عاش في العراق في زمن صدّام الذي اتّصف بالجبروت والبطش والتعذيب بأنماط من العذاب الشديد، وحينئذٍ لن يصبر على ذلك إلّا قليل.

إنّ إرهاب السلطة هو الذي تعرّض له إبراهيم عليه السلام، فقد اُلقي في النار وتعرّض لتعذيب وإرهاب، وقد قصّ القرآن الكريم علينا ذلك لنعتبر بأنّ صراط الحقّ هو صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم، أي أنّهم هم النماذج التي نجحت في الابتلاءات المتعدّدة كالسيطرة على شهوة الجنس والتحمّل للتعذيب الشديد، والابتلاء بالسلطات الظالمة، ومقاومة الإغراء بالمال والمنصب، وكثير من الناس تزلُّ قدمه إذا تعرّض لذلك، من هنا نعرف أهمّيّة ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾، أي أنّهم أنعم عليهم بإعطائهم جميع النعم المعنويّة التي أوصلتهم إلى درجة الكمال والقرب من الله تعالى، بحيث لا يتأثّر المنعم عليه سلباً.

إنّ اجتياز الابتلاء يحتاج إلى صبر، وهم في قمّة التحمّل بصبرهم، ويحتاج إلى جهاد في سبيل الله تعالى بأن يقدّم المرء نفسه قرباناً في سبيل الله تعالى، وبما أنّهم الاُنموذج التامّ والكامل طُلب من سائر الناس أن يقتدوا بهم، قال تعالى: ﴿**فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ**﴾(١).

ولهذا جاء التوكيد بالأمر بالدعاء بأن يهتدي الإنسان إلى صراطهم ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾؛ لأنّ النعمة التي حصل عليها هؤلاء تامّة ودائمة، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ**﴾، أي أنّه وصل إلى درجة صلاح الذات

---

(١) الأنعام ٦: ٩.

وليس صلاح الفعل فقط ، أي أنّ ما يصدر منه من فعل يمثّل الصلاح التامّ ، وذاته ذات صالحة أيضاً ، بخلاف غيرهم فإنّه قد تصدر منه أفعال صالحة ، لكنّ ذاته ليست بصالحة ، بل فيها شوائب ، وعليه لن يكون قدوة لأنّه ليس من الذين اجتباهم الله تعالى واصطفاهم وأصبحوا ليس للشيطان سيطرة على أنفسهم ولا على عقولهم وأفكارهم لأنّ الله تعالى أخلصهم لنفسه تعالى .

جاذبيّة الصراط المستقيم

مبدأ القدوة عامّ وله تأثير في رقيّ الإنسان وتكامله ، من خلال المثال الذي يحتذي به ، ولذلك أهمّيّة في وصول الإنسان إلى درجات كماله . إنّنا في كلّ مجال نرى أنّ العامل المهمّ للتألّق والرقيّ يتحقّق بمبدأ القدوة ، ولولا الاقتداء بالشخصيّات التي لها وزن في تأثيرها لما استطاع كثير من الناس أن يصل إلى ما وصل إليه .

بقي شيء لم ننبّه عليه في الصراط المستقيم وهو أنّ من خصائص الصراط المستقيم الذي نطلب الهداية إليه أنّه يجذب السائر بحيث لا يستطيع إلّا أن يسير فيه ، وليس ذلك بمعنى أنّه لا يقدر على السير فيما سواه ، بل من ناحية العلم بوجود فرق بين السير فيه والسير في غيره ، ويقال إنّ الصراط بمعنى الطريق الذي من شأنه أن يضمّ سالكيه ويطويهم في متنه .. ومن شأنه استمداداً من مادّة (صَرَطَ) اللغويّة أن (يصرط) السائرين فيه ويبتلعهم ، فلا يفكّهم حتّى يوصلهم إلى خاتمته ونهايته ؛ إذ الصِّراط والسِّراط لهما دلالة واحدة مشتّقان من (صرط) ، و (سرط) بمعنى : ابتلع وازدرد ، فكأنّه يبتلع السائر ولا يدع له مجالاً أن يسير في طريق آخر ، وهذه خصيصة علميّة ، ذلك أنّ الإنسان إذا فهم الشيء الأكمل والأفضل الأحسن اختاره على غيره ، وأخذ به وترك ما سواه ، فإذا وضعنا أمامه ماءين أحدهما نقي تتوافر فيه موازين تتلاءم مع صحّة الإنسان بالنحو الأمثل ،

والآخر أُجاج، أيّهما يختار؟ إنّه يختار النقيّ لا لكونه غير قادر على أن يشرب الماء الثاني، بل لديه القدرة على شربه ولكنّ علمه لا يدع له مجالاً إلّا بشرب النقيّ، فهو غير مجبور من ناحية القدرة ولكنّه مجبور من ناحية العلم، والصراط المستقيم خصيصته كذلك، فإذا ذاق السائر فيه حلاوته وأدرك معناه استلذّه وترك غيره.

الصراط هبة من الله

من ذلك يتّضح معنى ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾، فإنّ النعمة هي العطيّة التي يهبها الله تعالى وتستلذّ وتستطاب، إنّها تمثل في اصطلاحنا غاية ما يبتغيه المنعم عليه، والصراط المستقيم كذلك، وللسائرين عليه علامات وخصائص أشار إليها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿**فَأُولٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾[1]، ولهذا يستطاب العيش معهم، قال تعالى: ﴿**وَحَسُنَ أُولٰئِكَ رَفِيقاً**﴾.

سمات نماذج الصراط المستقيم

إنّ من خصائص القدوة من السائرين في الصراط المستقيم العصمة كي لا يزلّ غيره بإتباعه، وهي خصيصة ينبغي أن نلتفت إليها.

أوّلاً: اتّصافهم بالعصمة

إنّ المعصوم لا يستطيع ترك ما هو عليه لعلمه الجازم اليقينيّ التامّ بأنّ ما هو عليه هو الكمال الذي لا يوجد وراءه مرتبة أكمل وأحسن وأفضل منه، وقد أعطى القرآن الكريم نماذج للمعصومين وهم الأنبياء، وأنّهم لا يعصون الله تعالى لعلمهم

---

(١) النساء ٤: ٦٩.

بآثار المعصية الوخيمة ، بل أنّ الأقلّ منهم شأناً وهم الذين حصلوا على العصمة المكتسبة لا يعصون الله ، فكيف بمن لديه العصمة الحقيقيّة غير المكتسبة ، وكي تتّضح المسألة فإنّ من لديه العصمة المكتسبة لا يستطيع أن يعصي الله تعالى علميّاً لأنّه يرى أنّ المعصية قذارة ، فإذا وُضع له طعام طيّب وآخر ملوث ، فلا يأكل الطعام الملوّث لا لكونه لا يستطيع ذلك ، بل لأنّه عرف آثار الطعام المسموم والملوّث فابتعد عنه ، كذلك حال الأنبياء الذين عجنوا بماء الإخلاص ، ثمّ استخلصوا فأخلصوا ، فهم من المخلَصين لله تعالى ، فلا يستطيعون اقتراف المعصية لعلمهم بآثارها ، ومن وصل إلى درجة من أنعم الله تعالى عليه ، أو كان لديه سير في الصراط المستقيم ولم يدعه ولم يمل عنه ، وأصبحت لديه عصمة مكتسبة بحيث لا يقدر على ترك السير في الصراط المستقيم ، وحتّى إن مال جذبه الصراط إليه فرجع ، قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُبْصِرُونَ**﴾[١] لكونه على بصيرة من أمره فيتذكّر ويرجع ؛ لأنّ الصراط يكاد أن يبتلعه ولا يدعه أن يسير في غيره ، ولإدراكه التامّ والكامل أنّه على الحقّ ومعه .

ثانياً : الطاعة المطلقة

من جملة مقتضيات الإيمان الطاعة المطلقة لله تعالى ولرسوله ، قال تعالى : ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾[٢] ، أي أنه لا يختار إلّا ما يريده الله تعالى وما يريده النبيّ ﷺ ، ويرجع انسلاخ قدرته إلى العلم ، لكونه عرف أنّ الأمر الإلهيّ سيؤدّي به إلى الكمال ، وتركه يؤدّي به إلى التسافل ، فهناك درجتان : درجة علوّ تتحقق بالإخلاص والتجرّد عن الأهواء ، والسير على وفق ما يريده الله تعالى والرسول ، والإتيان بالتكاليف

---

(١) الأعراف ٧: ٢٠١.

(٢) الأحزاب ٣٣: ٣٦.

الشرعيّة التي وردت عن النبيّ ﷺ والأئمّة عليهم السلام، ومن سار في هذا الطريق سيكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً، وسيصبح قدوة، ولعلّ هذا معنى قوله تعالى: ﴿**وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَاماً**﴾(١).

ثالثاً: أعلى درجات

كيف يصبح المؤمن إماماً للمتّقين؟ لأنّه تدرّج حتّى أصبح مثالاً يحتذى به، فوصل إلى قمّة درجات الإيمان بيقينه، ومن وصل إلى هذه الدرجة سيكون إماماً لمن هو أقلّ منه درجة، وقد قال بعض المفسّرين: إنّ السير في الصراط المستقيم لا يكون إلّا مع إنسان قدوة يحتذى به على جميع الصعد، فيقتدي السائر بالأعلى منه في العلم والعمل واليقين والصبر والاستقامة.

الوصول إلى أعلى مراتب الكمال

أورد بعض العلماء إشكالاً هو أنّ المسلم المعتقد بالشريعة الإسلاميّة ـ وهي أكمل الشرائع الموصلة إلى أعلى درجات القرب الإلهيّ ـ كيف يدعو الله تعالى أن يهديه صراط من تقدّم عليه، ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ أي المتقدّمون الذين أنعم الله تعالى عليهم؟

والحال أنّ الشرائع السابقة لم تكن في رتبة الشريعة الإسلاميّة، وبالتالي إيصالها إلى الله تعالى أخفض من إيصال الإسلام إلى الله تعالى.

وهذا الإشكال لا يرد على التفسير الذي أوضحناه لأنّنا جعلنا المراد من الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم يقصد به نماذج خاصّة، وهم الكاملون في رتبهم، ولا يقصد به جميع أصحاب وأتباع تلك الشرائع، بل هم النخبة في الاصطلاح المتعارف والثلّة القليلة التي وصلت إلى أعلى درجات القرب

(١) الفرقان ٢٥: ٧٤.

الإلـهيّ ، وينبغي أن نلتفت أنّ الضابطة ليست في كمال الطريق وإنّـما فـي سـالك الطريق ، فسالك الطريق قد يسلك طريقاً متوسّطاً لكنّه بحذاقته ومهارته وإخلاصه يصل إلى أعلى درجات القرب ، فيمكن لشـخص أن يسـلك طـريقاً مـعبّداً ولكـن لعدم بذله الجهد ، وعدم إخلاصه ، لا يـصل إلى الرتـبة التـي وصـل إليـها غـيره ، وكي نوضّح ذلك علينا أن نلتفت أنّ الناس كما نشاهد في حالنا لا ترتبط الرتب التي يصلون إليها بما لديهم من الإمكانيّات ، فهناك من تتوافر لديه الإمكانيّات الكـبيرة لكنّه مع ذلك يبقى في مرتبة منخفضة ، وهناك من لديه بعض الإمكانيّات البسيطة ولكنّه يصل بها إلى أعـلى الدرجـات ، والضـابطة ليست فـي تـوافـر الإمكـانيّات ، فالشريعة الإسلاميّة توصل العامل بها إلى أعلى الدرجات لكنّه قـد لا يـعمل وقـد لا يخلص فلا يصل إلى ما وصل إليه بعض من كـان مـع عـيسى أو مـوسى أو مـع السـابقين مـن الأنـبياء ، ويـقرّب ذلك لنـا قـوله تـعالى : ﴿**وَأَن لَّيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ**﴾[1]. إذن تـختلف الرتب بـاعتبار الإخـلاص والقـرب مـن الله تـعالى ، والتجسيد الكامل لأوامره ، ومرتبة القرب غير خاضعة للاعتقاد بشريعة مـوسى أو عيسى ، بل بـالإخلاص وبـذل الجـهد والإحسـان إلى النـاس كـافّة ، قـال تـعالى : ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾[2] ، وعليه فمن بذل غاية جهده وإخلاصه سيختلف عمّن بذل بعضاً من الجهد والإخلاص ، ومثال ذلك مـؤمن آل فـرعون ، وبعض حواري عيسى عليه السلام ، وبذلك يزول الإشكال .

أُمور ينبغي مراعاتها للوصول إلى أعلى الرتب

المطلب الثاني أنّه من خلال ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ**

---

(١) النجم ٥٣ : ٣٩.

(٢) العنكبوت ٢٩ : ٦٩.

عَلَيْهِمْ ﴾ يتبيّن لنا أنّ الوصول إلى الدرجات العالية يتوقّف على أمرين رئيسين :

الأوّل : العمل الصالح .

والثاني : العلم .

للعمل الصالح أهمّيّة فائقة وكبيرة ، وسعي الإنسان وجهده الذي يبذله للوصول إلى درجات عالية بأعماله الصالحة يوصله إلى رتب علية ، لكن السعي وحده والعمل دون علم ، لا يُمَكِّن الإنسان من البلوغ إلى درجات عالية في الأعمّ الأغلب ، بل يحتاج إلى أعمال صالحة وعلم ، لكون العمل دون علم لا يكفي ، بل قد يخطأ الإنسان في بعض التطبيقات ، ولعلّ قوله تعالى : ﴿**يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾[١] يشير إلى ذلك ، أي أنّ الإنسان يرتفع بإيمانه ، ولا يراد بالإيمان الاعتقاد وحده لأنّ الإيمان جزء منه عمل كما جاء في الروايات ، بل أنّ القرآن الكريم إبان هذا المطلب في قوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ** ﴾ ، أي أنّ ترتيب ارتفاع الإنسان معنوياً يتوقّف على إيمانه الذي هو اعتقاد وعمل ، وعلى معرفة ، وما لم تتوافر المعرفة فلن يتمكّن الإنسان من الوصول إلى درجات سامية .

نعم ، من الممكن أن يصل إلى درجات منخفضة ، ولكنّ الدرجات العالية تتطلّب من الإنسان أن تكون لديه معارف وعلوم ، وبذلك يتّضح أنّ ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ﴾ لا يمكن الوصول إليه إلّا بأمرين هما : عمل جادّ ودؤوب ، وعلم يبلور ذلك العمل ، أي يضع الأعمال التي يقوم بها الإنسان على وفق مقاييس دقيقة ، وكي تتّضح هذه النقطة نشير إلى أنّ هناك أُناس يعملون كثيراً ولكن العمل الكثير لكونه ليس على وفق المقاييس المطلوبة يصبح تأثيره قليلاً ، بخلاف ما إذا كان العمل على وفق المقاييس فإنّ تأثيره يصبح كبيراً ، ولعلّ الإشارات الواردة

---

(١) المجادلة ٥٨ : ١١.

في الروايات بأهمّيّة أن تكون الأعمال التي يأت بها الإنسان على وفق الضوابط الشرعيّة، وأنّ العمل ليست قيمته بكثرته، وإنّما لتوافر شرائط ومقاييس فيه، وأهمّ تلكم المقاييس أن يكون على صراط مستقيم، وهو صراط الذي أنعم عليهم الحقّ تعالى ليكون المتّبع معهم، قال تعالى: ﴿**فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ**﴾(١)، وهم الذين صلحت ذواتهم وصلح عملهم، وقد أشارت بعض الأحاديث إلى أنّ الله تعالى يريد أن يُعبد - ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ**﴾ - من حيث أمر، وليس من حيث ما يشتهيه الإنسان وما يريده، بل من حيث ما يريده الله تعالى ويأمر به، بمعنى أنّ العبادات لها مقاييس، وكي يتّضح ذلك نعطي بعض الأمثلة كي لا يصبح المطلب نظريّاً.

إنّ بعض الناس قد يأتي بنوافل كثيرة ولكنّه يخلّ ببعض الواجبات، فعبادته كثيرة لكنّ عنده إخلال ببعض الواجبات، ولذلك يصبح تأثير النوافل قليلاً وضئيلاً، لكون درجة الإخلاص قليلة أو مشوبة بالرياء أو العجب، فلا يكون لها التأثير المطلوب، إنّ العمل عندما يكون على وفق الشرائط والضوابط حتّى وإن كان قليلاً ضئيلاً، لكنّ تأثيره كبير وعميق، وقد مرّ علينا أنّ الإمام أمير المؤمنين عليه السلام تصدّق بخاتم في صلاته ولا يريد به إلّا الله تعالى، فنزلت فيه آية، وكذا الحال في صدقته عليه السلام مع الحسنين والصدّيقة الزهراء عليهم السلام حيث نزلت فيهم آية ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً**﴾(٢). إذن هناك ضوابط على أساسها يُعلم لابدّيّة اقتران العمل بالعلم.

الضلال عن الصراط المستقيم

بيّنّا أنّ قوله تعالى: ﴿**صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ**﴾ بيان لمبدأ من يقتدى به

(١) النساء ٤: ٦٩.

(٢) الإنسان ٧٦: ٩.

وهم الرسل والأنبياء والأئمّة عليهم السلام ، وهو ما عبّرت عنه الآية : ﴿فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً﴾ .

يبيّن القرآن الكريم طريقين ، ويوضّح أيضاً صفات وسمات أتباع الطريقين ، من خلال بيان المسالك والسبل المختلفة التي تجعل الرؤية واضحة لا لبس فيها ، والأمر هنا كذلك ، فمن الناحية النظريّة يبيّن أهمّيّة السير في الصراط المستقيم ، وأنّه الطريق الموصل إلى الهدى ، ومن الناحية العمليّة يبيّن مبدأ القدوة أي الجانب الإيجابيّ ، وكذلك يوضّح القرآن الكريم الجانب السلبيّ لمن يقف في قبال السائر على الصراط المستقيم ، فإنّ من يقف في قبال هؤلاء ويسير عكس الاتّجاه لمن أنعم الله تعالى عليه ، فهو من أهل الضلال وهم على قسمين :

الأوّل : من تكون الرؤية غير واضحة لديه ولكنّه لا يريد الوضوح ، بل يريد أن يبقى على ما هو عليه .

الثاني : من تكون الرؤى واضحة لديه بيّنة عنده ، ولكنّه لا يريد الحقّ ، بل يريد الباطل ومحاربة الحقّ والوقوف في قباله ، فيصبح ضالاًّ على علم ، وسمته الأُولى المعرفة فهو على بيّنة من أمره ولا يخالف لأنّه لا يعرف ، بل يعرف فيخالف ، قال تعالى : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً﴾(١) ، الجحود هو الإنكار ، وبعض الإنكار يكون في دخيلة نفس المنكر معرفة وعلم ، ومع علمه ومعرفته يجحد معانداً ، والمصداق الواضح لهذه الفئة هم اليهود الذين عرفوا حقّانيّة الشريعة الإسلاميّة لاطّلاعهم على البشارة بالنبيّ صلى الله عليه وآله في الكتب السماويّة السابقة ، بل وضوح صفاته ، ومع ذلك فهم لا ينكرون الرسالة فقط بل يبذلون قصارى جهدهم لمحاربتها ، فهم أصحاب الضلال ، وهذا مبدأ عامّ لا يختصّ بهم ، فكلّ إنسان عرف الحقّ ثمّ وقف في قباله فهو ضالّ ، وللضالّ نماذج متعدّدة ، فمن عرف الحقّ مع

---

(١) النمل ٢٧ : ١٤ .

مَن وتركه لكون المصالح تقتضي الوقوف في قباله ، فهو ضالّ ، وهكذا من يشهد بحقّانيّة الباطل ، وأنّه هو الصواب كالشاهد زوراً ، فهو ضالّ ، قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ**﴾(١) .

آثار الضلال

الضالّ لا يسير في الصراط المستقيم ، وليس مع الذين أنعم الله تعالى عليهم ، بل مع الضالّين ، وهناك آثار تترتّب على الضلال :

أوّلها : الغضب الإلهيّ ، فإنّ الله تعالى يغضب على الضالّ الذي عرف الحقّ ولم يتّبعه ، بل وقف في قباله ، ولهذا فإنّ الصالح يدعو الله تعالى بأن لا يكون مع الضالّين الذين غضب الله تعالى عليهم :

غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

والمراد بغضب الله واستهزائه ومكره ليس المعنى الموجود لدينا ، فإنّ الغضب ثوران الدم وإرادة الانتقام من المغضوب عليهم ، والله تعالى لا يتغيّر من حال إلى حال لأنّه لا تطرؤه الأحوال ، وعليه فإنّ معنى الغضب الإلهيّ هو ترتيب الجزاء والعقاب ، أي جعل الجزاء مرتّباً على نحو الجزم والحتم لمن اتّصف بهذه الصفة ، فمن ضلّ سوف ينال جزاؤه ، وكذلك معنى الاستهزاء فهو ليس بمعنى السخرية التي عندنا بل بمعنى ترتيب الأثر والعقاب لمن استهزأ .

والمكر كذلك أيضاً ، وليس هو بمعنى إظهار إرادة الصلاح ظاهراً وإيقاع الطرف المقابل في المكروه ؛ لأنّ الله تعالى لا يحتاج أن يظهر شيئاً ويخفي شيئاً آخر ، لكنّه يجعل الآثار التي لا يعلم بها الإنسان تأتيه من حيث لا يحتسب ، ويساوق هذا

(١) آل عمران ٣ : ٩٠ .

ما نعبّر عنه في الأحساء: «إنّ الله تعالى لا يضرب بعصا» أي أنّه تعالى يجعل آثار العمل بيّنة واضحة، فمن يسيء لبعض أرحامه ستدور عليه عجلة الأيّام، وسيفقد بعض أولاده، وبعض القاطعين ينتبه لنفسه ويرجع إلى الصواب بعد خسارته بفقد ولده، وذلك مكر إلٰهيّ رُتّب أثر قطيعة الرحم أو الإساءة إليه بفقد الولد، ويتّضح بذلك أنّ السائر في الطريق المستقيم خاضع للحقّ، لا يعانده ولا يجادل فيه، بل يتواضع له بنحو مطلق، ولهذا ينال رحمة وتوفيقاً في قبال أُولئك الذين عرفوا الحقّ فجحدوه وحاربوه، وهم مصداق قوله تعالى: ﴿**مَن لَعَنَهُ اللهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولٰئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ**﴾(١)، فمن عرف الحقّ واتّبعه، وخضع له وانصاع، تنزّلت عليه الرحمة، وعكسه من غضب الله تعالى عليه كبعض اليهود، وهم مصداق لذلك ولا تنحصر بهم معاندة الحقّ، فإنّ كلّ من سار معانداً فهو مصداق من المصاديق؛ إذ أنّ القرآن يفسّر بعضُه بعضَه الآخر.

والخلاصة: أنّ الضالّ تارة يكون تائهاً عن الحقّ من غير علم، وأُخرى مع علم وعناد فيصبح موئلاً للغضب الإلٰهيّ.

إنّ بعض المفسّرين جعل المغضوب عليهم غير الضالّين، وقال إنّ الضالّ هو التائه عن الحقّ دون عناد، أي مع عدم علم بالصراط السويّ.

أمّا المغضوب عليهم فإنّهم هم الذين لا يسيرون في طريق الحقّ مع علمهم، أو أنّهم هم أهل الذنوب والمعاصي الذين تلوّثت فطرتهم فلم يقبلوا الحقّ، ولعلّ الأقرب هو أنّ الضالّين على قسمين:

أحدهما: التائه عن غير علم، **والثاني:** هو التائه عن علم كما تقدّم في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْراً لَن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولٰئِكَ**

(١) المائدة ٥: ٦٠.

هُمُ الضَّالُّونَ ﴾[١].

أمّا المغضوب عليهم فهم الذين حادوا عن الحقّ فأصبحوا أئمّة للضلال ، وبمعنى آخر هم روّاد الإضلال وقادته ، والذين همّهم هو إخراج الناس من النور إلى الظلمات ، والله تعالى أعلم وأحكم .

والحمد لله ربّ العالمين

(١) آل عمران ٣: ٩٠.

سُورَةُ الحَدِيدْ

المُقَدِّمَةُ

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله ربّ العالمين ،

والصلاة والسلام على أشرف الخلق سيّدنا ونبيّنا محمّد

وآله أجمعين الطيّبين الطاهرين ،

واللعن الدائم ، والعذاب الأليم ، على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين

قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿**إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً**﴾(١)

صدق الله العليّ العظيم

شهر رمضان المبارك شهر القرآن الكريم ، وفي ظلّ أجوائه الروحيّة سوف نحلّق في سماء إحدى السور القرآنيّة المباركة ـ سورة الحديد ـ وقبل أن نبدأ حديثنا

(١) الإسراء ١٧ : ٩.

في السورة الشريفة نقدّم مقدّمة تفيدنا كثيراً.

طريقة تعرّفنا على أي الكتاب

إنّنا إذا أردنا أن نتعرّف على أيّ كتاب من الكتب نحتاج إلى ثلاثة أُمور:

الأوّل: صحّة نسبة الكتاب لمؤلّفه

التعرّف على (سند الكتاب) وصحّة نسبته بالفعل لكاتبه مسألة في غاية الأهمّيّة، وحتّى تتّضح الفكرة بصورة أجلى نأخذ مثالاً حيّاً من تراثنا الأدبيّ في مجال الشعر، حيث لدينا دواوين شعريّة متعدّدة، ونفرض أنّه وقع في أيدينا ديوان المتنبيّ وأردنا البحث فيه، فلا بدّ أن نعرف أوّلاً هل أنّ كلّ القصائد الموجودة هي بالفعل للمتنبيّ وهو الناظم لها؟

للإجابة على هذا التساؤل نجد أنّ الباحثين منقسمون إلى طائفتين:

الأُولى: تقول إنّ ثمانين بالمائة (٨٠٪) ممّا هو موجود في الديوان - خصوصاً القصائد الطوال - هي للمتنبيّ بالفعل، أيّ أنّه الناظم لهذه القصائد، أمّا القصائد القصيرة فهي ليست له وإنّما نسبت إليه.

الثانية: تقول أنّ الأبيات الشعريّة التي هي على بيت واحد - أو بيتين - ليست للمتنبيّ، وإنّما نظمها بعض الشعراء ونسبها إليه؛ لأنّ مستوى الأبيات لا يرقى إلى المستوى الرفيع، فنسبها لشاعر مشهور كي تنتشر.

ولو أردنا أن نتعرّف على صحّة نسبة الديوان للمتنبيّ، فهل يمكننا التعرّف على ذلك من خلال قصائده الطويلة أو قصائده القصيرة، ومن الأبيات التي لا تعدو أن تكون بيتين أو ثلاثة؟

إنّ جوابنا على هذا التساؤل سيكون باختيارنا لقصائده الطويلة - التي قلنا إنّها بالفعل للمتنبيّ - والسبب هو أنّ قصائده القصيرة نشكّ في انتسابها إليه، والأبيات

التي لا تعدو أن تكون بيتاً أو بيتين هي أيضاً مشكوكة الانتساب إليه ، ولعلّها لشعراء آخرين .

والنتيجة التي توصلنا إليها هي أنّنا إذا أردنا التعرّف على ما ينسب للمتنبيّ من شعر ، فلا بدّ أن نأخذ بقصائده المقطوعة الصدور عنه والمنسوبة له على نحو الجزم واليقين ، وهذا الأُسلوب في البحث يطلق عليه العلماء (البحث من الناحية السنديّة) أي : أنّ سند الكتاب هل هو بالفعل للكاتب أم لا ؟

وعندما نسري هذه الطريقة في البحث على القرآن الكريم نجد أنّنا ـ ولله الحمد ـ لا نحتاج أن نبحث من الناحية السنديّة ؛ لأن العلماء بأجمعهم يقولون : إنّ القرآن الكريم قطعيّ الصدور ، ولا يشكّ أحد بأنّ القرآن مقطوع الانتساب إلى الله تعالى ، أي أنّه من عند الله عزّ وجلّ من دون شكّ ولا ريب ، ولعلّ قوله تعالى : ﴿**ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِينَ**﴾[1] يشير إلى قطعيّة صدوره من الله عزّ وجلّ .

الثاني : الأفكار المطروحة في الكتاب

ذكرنا في الأمر الأوّل طريقة تعرّفنا على ما نسب للمتنبيّ من أشعار ، وذلك من خلال دراسة قصائده المقطوعة الصدور الموجودة في ديوانه ، ثمّ ننتقل إلى مرحلة أدقّ وأعمق في البحث في هذه القصائد ، وهي الأفكار التي تنطوي عليها ، يعني : إلى ماذا توصل هذه القصائد التي نظمها المتنبيّ ؟

وهذه ناحية مهمّة بمعنى أنّ أفكار الكتاب الذي ندرسه لا بدّ أن نعرفها بشكل تفصيلي لتصبح رؤيتنا وانطباعنا عن الكتاب بصورة أشمل وأفضل ، وهي نقطة ثانية وأساسيّة .

وإذا جئنا إلى القرآن الكريم وتساءلنا عن (الأفكار المطروحة فيه) سنجد أنّه

---

(١) البقرة ٢ : ٢ .

تحدّث عن مواضيع كثيرة، فقد تحدّث عن الكون بأكمله، وعن الإنسان في كثير من مقاطعه التي يخاطب بها الناس، وتحدّث عن العقل، وعن الجنّة والنّار، وعالم الآخرة، وسنجد أنّه أوضح ثلاثة محاور أساسيّة في العقائد:

١ ـ الله ٢ ـ عالم الآخرة ٣ ـ النبوّة

ونريد أن نشير إلى أنّ القرآن بيّن نوعين من النبوّة:

نبوّة عامّة، ويراد منها: أنّ هناك سفراء جاءوا من قِبل الله، كنوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

ونبوّة خاصّة، تناول فيها شخصاً بعينه، كما لو كنّا نريد أن نبحث عن نبوّة النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله.

إذن نحن نتعرّف على القرآن من خلال ما يطرحه، كما أنّنا تعرّفنا على ديوان المتنبيّ من خلال الأفكار التي طرحها المتنبيّ، وماذا توصل الناس إليه؟

الثالث: مبتكرات الكتاب

وبعد أن نتعرّف على الأفكار الموجودة في ديوان المتنبيّ، أو في القرآن الكريم، أو في أي كتاب من الكتب، نتساءل هل أنّ هذه الأفكار من مبتكرات هذا الكتاب، أو أنها أفكار مُلتقطة ومأخوذة من هنا وهناك؟

مثلاً: عندما ندرس حياة شاعر ـ كالمتنبيّ ـ ونتساءل عن الشعراء الذين تأثّر بهم، سنجد بعد البحث أنّه تأثّر بامرئ القيس ـ مثلاً ـ أو بطرفة بن العبد، وهذا يعني أنّ أشعاره ليست من مبتكراته، بل اعتمد في نظم شعره على شاعر من الشعراء الذين سبقوه، أو نقول بأنّ شعر المتنبيّ هو مجموعة من الأفكار اعتمد في قوّة السبك ـ مثلاً ـ على امرئ القيس، وفي حلاوة الألفاظ وعذوبتها اعتمد على شاعر آخر ـ وليكن طرفة بن العبد ـ وفي متانة وترابط القصيدة اعتمد على شاعر ثالث ـ وليكن الفرزدق أو الأخطل ـ وإذا كان شعر المتنبيّ مجموع من عدّة شعراء

فذلك يعني أنّه ليس عنده شيء مبتكر بحسب المثال والفرض.

أمّا القرآن الكريم، فعندما نأتي إليه ونسأل مِن أين أخذ هذه الأفكار التي تتحدّث عن الله عزّ وجلّ، أو عن عالم الآخرة، أو عن الرسول والرسالات السماويّة، أو عن الإنسان والكون، مِن أين أتت هذه الأفكار؟

الإجابة على هذه التساؤلات توصلنا إلى أنّ القرآن الكريم له أُسلوبه الفريد والمخصوص به، الذي لا يشاركه فيه سواه من الكتب الموجودة في الكون؛ لأنّه من عند الله، وهذه نقطة هامّة.

الرابع: الهدف من الكتاب

ولا بدّ أن نتعرّف عليه، وهو مهمّ بالنسبة إلينا، فإذا أردنا أن ندرس شيئاً أو نقوم بعمل، لا بدّ أن نتعرّف (عن الهدف من وراء ذلك العمل)، فعندما يسألني شخص: لماذا تذهب إلى المسجد؟ أُجيبه: أذهب إليه لأُؤدّي الصلاة، وأحظى برضوان الله تعالى، وبالتالي يُكتب لي الثواب والقرب منه عزّ وجلّ، وهذا يعني أنّ لدي هدف من الذهاب إلى المسجد، وكذلك عندما أزور صديقاً فعندي هدف من زيارته، إمّا لأستفيد من علمه، أو من ثقافته، أو من فكره، أو أتعامل معه اقتصاديّاً، ودائماً حركات الإنسان لا بدّ لها من غايات وأهداف؛ لأنّه بطبيعته مجبول على أن يتحرّك لهدف.

وإذا سألنا عن مجمل حركات الإنسان لأي هدف سوف نجد أنّه يتحرّك مِن أجل الوصول إلى نفع ذاته وإلى السعادة، ولا نجد إنساناً يتحرّك من دون أن يهدف من حركته أن يصل إلى السعادة، ويبيّن الله تعالى في القرآن الكريم أنّنا نكدح لنلاقيه: ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ**﴾[1]، وكذلك يبيّن لنا نقطة

(١) الانشقاق ٨٤: ٦.

هامّة في آية أُخرى، فيقول: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾(١)، كلّ واحد له هدف ووجهة يسعى نحوها، ولكن المهمّ هو أنّنا نتسابق في الوصول إلى الخير الأفضل، والنفع الأعم والأشمل، وهذه مسألة مهمّة جدّاً.

الإضرار بالنفس والتحرّك نحو السعادة

يتساءل البعض: إذا كان كلّ إنسان يتحرّك لأجل الوصول إلى السعادة ـ كما ذكرتم ـ فبماذا تفسّرون ما نشاهده من بعض الذين تتعقّد حياتهم بالمشاكل والآلام والهموم، وعند ذلك يتحرّكون لإيذاء أنفسهم، إمّا بقطع أيديهم، أو بالانتحار، أو يفعلون أشياء تؤدّي إلى الضرر بهم، ألا يتنافى هذا مع سعي الإنسان من أجل الوصول إلى هدف يعود عليه بالنفع؟

الجواب:

نستطيع أن نقول: لا تنافي بين إضرار الإنسان بنفسه وبين سعيه إلى هدف يريد تحقيقه؛ ذلك أنّ الإنسان قد يخطأ الطريق، ويظنّ ما ليس صواباً هو الصواب، وما ليس بمفيد مفيدٌ، وهكذا الإنسان الذي يقتل نفسه يرى أنّه متألّم في هذه الحياة ويريد أن يتخلّص من الألم، فيرتكب ما هو أسوأ منه فيقتل نفسه، أو يقطع يده، وفي الحقيقة لا يوجد شخص لا يسعى إلى مصلحة نفسه وإلى نفعها، والإنسان يتحرّك دائماً مِن أجل الوصول إلى سعادته، وإلى ما يعود عليه بالخير والنفع العميمين.

طريق الوصول إلى السعادة

الحركة من أجل الوصول إلى النفع لا بدّ لها من نظام، ولا بدّ لها من طريق،

---

(١) البقرة ٢: ١٤٨.

وهذا قانون ساري في كلّ شيء نعمله في الحياة الدنيا، حتّى في المسائل العادية والعرفيّة، مثلاً: إذا أردت أن أصل إلى المسجد، في البداية لا بدّ أن أتحرّك من بيتي، وأسلك الشارع الكذائيّ وأصل إلى الإشارة، وأرى الإشارة حمراء وأقف، ثمّ أعرف الطريق إلى المسجد، لا بدّ أن اتّجه يميناً أو شمالاً إلى أن أصل إلى المسجد، إذن الوصول إلى المسجد لا بدّ له من طريق.

وعندما نتصفّح تاريخ الأنبياء السابقين نجد أنّهم جاءوا بطرق متعدّدة توصل إلى السعادة، بالإضافة إلى المفكّرين والفلاسفة والأُدباء والمنظّرين الذين قاموا بوضع قواعد للوصول إليها، وعلى هذا نعلم أنّ هناك طرقاً متعدّدة موجودة قبل القرآن، ومع وجوده وبعد وجوده، لكن عندما نرجع إلى الطرق التي جاء بها القرآن، نلاحظ أنّها تختلف عن كلّ الطرق فهي أفضلها، ولذا نجد أنّ الآية التي استهللنا بها حديثنا تقول: ﴿**إِنَّ هٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ**﴾، أي أنّه المنهاج والطريق الذي يوصلك إلى أفضل أُسلوب، بينما بقيّة الأساليب والطرق قد لا توصلك إلى غاية.

وفي الختام: فإنّ المناهج التي جاء بها الأنبياء السابقون متعدّدة، فموسى عليه السلام جاء بمنهج، وعيسى عليه السلام بآخر، والنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله بثالث، ولو رجعنا إلى منهج موسى عليه السلام نراه يؤكّد على جانب العمل والاقتصاد والعلم، أي أنّه يؤكّد على التقدّم في المجال المادّيّ؛ لأنّ بني إسرائيل عندما بعث إليهم موسى عليه السلام كانوا مستضعفين من قِبَلِ الفراعنة، وأراد موسى عليه السلام أن يرفع مستواهم في العلم والاقتصاد، فركّز على هذا الجانب، وعالج عليه السلام نقطة محدّدة.

ولمّا جاء عيسى عليه السلام رأى أنّ هناك تقدّماً كبيراً لديهم في الجانب المادّيّ، وإهمال في جانب الروح، فأراد أن يعالج هذا الجانب، فركّز على الرهبنة والعزوف عن الدنيا.

أمّا النبيّ محمّداً صلى الله عليه وآله فقد جاء ليوصل الإنسان إلى السعادة في كلّ جوانب

الحياة. والله تعالى لم يطلب منه ﷺ أن يُهمل عالم الدنيا على حساب الآخرة، أو يُهمل الآخرة على حساب الدنيا، ولذا عندما نرجع إلى القرآن الكريم نراه يركّز على جنبتين أساسيّتين توصلان إلى السعادة، قال تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ**﴾(١)، وعندما يسمع شخص هذا المقطع يتصوّر أنّ السعادة مع التوجّه فقط للآخرة وترك الدنيا، ولكنّه إذا أكمل المقطع الآخر من الآية سيعرف أهـمّيّة الدنيا، وأنّها مزرعة للآخرة، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾.

هذا منهج القرآن، وهو منهج متكامل يوصل الإنسان من أقرب الطرق إلى الفضيلة والرشد والهدى، وسيتّضح لنا ذلك بتمام التفصيل عندما نستعرض سورة الحديد بآياتها المتعدّدة:

بسم الله الرحمن الرحيم

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾

الأفكار المحوريّة في سورة الحديد

هذه الآيات المباركة تحوي أبحاثاً عميقة، وتدور حول مواضيع شتّى نستطيع أن نوجزها في سبعة محاور:

الأوّل: التوحيد. تتحدّث السورة عن توحيد الله عزّ وجلّ، وتبيّن بعض صفاته جلّ وعلا.

الثاني: القرآن الكريم.

---

(١) القصص ٢٨: ٧٧.

الثالث: عن المؤمنين والمنافقين في يوم القيامة، حيث ينقسمون إلى قسمين: إمّا إلى جنّة، وإمّا إلى نار.

الرابع: عن الدعوة إلى الإيمان والخروج من الشرك بالله عزّ وجلّ، وعن مصير الأقوام الضالّة من الأُمم الغابرة؛ لأن في تسليط الضوء على ذلك، ومعرفة سير الماضين، عبرةً للحاضرين، ولذلك يقال: إنّ الإنسان لا يمكن أن يعيش عمراً مديداً، لكنّه يمكن أن يحصل على تجارب جميع الأُمم السابقة ويستفيد منها إذا كان من أهل الاعتبار، لذا ذكّرنا القرآن الكريم بحضارات، وسير الأُمم السابقة، ثمّ أمرنا بالاعتبار وأخذ الحيطة والحذر.

الخامس: الإنفاق في سبيل الله تعالى، تتحدّث السورة عن الجانب الاقتصاديّ وأهمّيّته للإنسان.

السادس: العدالة الاجتماعيّة، من المهمّ لكلّ المجتمعات أن تعيش على ضوء قانون يكفل العدالة الاجتماعيّة، ويحقّق الرفاه المادّيّ والاقتصاديّ بين الأفراد، ويتيح للجميع أن ينمو ويتقدّم باطّراد في الناحيتين المادّيّة والمعنويّة.

السابع: طريقة السير إلى الله، وهو محور هامّ جدّاً، فتتحدّث فيه السورة عن طريقة من الطرق المعتمدة في السير إلى الله، وهي متّبعة لدى كثير من الأُمم قبل مجيء الإسلام وبعد مجيئه، وإلى يومنا هذا، وهي طريقة الرهبنة والعزوف عن عالم المادّة، واللجوء إلى (عالم الروحانيّة فقط)، والمقصود منها هو الانزواء والانقطاع بشكل تامّ حتّى عن المجتمع.

وبعد أن تتحدّث السورة عن هذا المحور، تبيّن أنّ الانزواء عن المجتمع لا ينسجم مع تعاليم الإسلام، ولا ينسجم مع التكامل من الناحيتين المادّيّة والمعنويّة، بل أنّ الإنسان إذا أراد أن يسير إلى الله تعالى فإنّ عليه أن يأخذ بالطريقتين:

الأُولى: الطريقة المؤدّية إلى إسعاده في عالم الروح.

والثانية: الطريقة المؤدّية إلى إسعاده في عالم المادّة.

تسمّى هذه السورة مع مجموعة من السور (المسبِّحات)، أي أنّها تبدأ بـ ﴿**سَبَّحَ لِلهِ**﴾ أو ﴿**يُسَبِّحُ لِلهِ**﴾، والتسمية وردت على لسان النبيّ ﷺ، وهي خمس سور: الحشر والصفّ والجمعة والتغابن والحديد.

أشار النبيّ ﷺ إلى أهمّيّة هذه السور الخمس، وبيّن أنّ من الأعمال المستحبّة للإنسان إذا أراد النوم أن يقرأ هذه السور، وأكّد ﷺ على أنّ إحدى هذه السور الخمس تتضمّن آية هي من أعظم آيِ القرآن الكريم، وإن كانت كلّ آياته عظيمة، لكن هذا شبيه بما ورد من أنّ آية الكرسيّ هي أعظم آية في القرآن. وهناك آية في السور الخمس لم يبيّنها الرسول ﷺ ولكن العلماء استنبطوها، فقالوا: إنّ المراد من هذه الآية التي هي مِنْ أعظم آيِ القرآن هي: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(١).

ما تقدّم هو مقدّمة سلّطنا الضوء فيها على محاور ستدور فيها الأبحاث، وذكرنا أنّها سبعة.

سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

آفاق التسبيح

التسبيح في اللغة هو التنزيه، ﴿**سَبَّحَ لِلهِ**﴾ أي: نزّه الله تعالى، وهنا قد يثار تساؤل هو أنّ الآية تقول: ﴿**سَبَّحَ لِلهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، و (ما) هذه

---

(١) الحشر ٥٩: ٢١.

تُطلق على العاقل وغيره، ولو قالت الآية: «سبح لله مَنْ في السماوات والأرض» لكان أنسب، ذلك أن (مَنْ) تطلق على العقلاء - الجنّ والإنس والملائكة - وهم الذين يتأتّى منهم التسبيح لا غيرهم من الحيوانات والجمادات، إلّا أنّه بعد التأمّل في القرآن الكريم نجده يطرح حقيقة في غاية الأهمّيّة، وهي أنّ التسبيح لا يختصّ بالعقلاء فحسب، بل يشمل جميع الموجودات، قال تعالى: ﴿**وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾(١).

وقد يتساءل بعضٌ عن السرّ في وجود ﴿**سَبَّحَ**﴾ في بعض سور هذه المسبّحات؟ ولماذا جاءت بصيغة الفعل الماضي، بينما في بعضها جاءت بصيغة المضارع ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ**﴾ كما في سورة الجمعة ﴿**يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**﴾؟

أبان العلماء ذلك: بأنّ الإتيان بفعلين - الماضي تارة، والمضارع تارة أُخرى - له سرٌّ هاهنا، وهو أنّ الله تعالى تسبّحه الأقوام، والحضارات الماضية، والأشياء التي كانت واندثرت، ولذا قالت الآية: ﴿**سَبَّحَ**﴾ بالماضي، وكذلك يعبّر بـ ﴿**سَبَّحَ**﴾ كأمر مفروغ عنه باعتبار دلالة الموجودات الممكنة على الحقّ تعالى، فهي منزّهة له عن النقص، كما أنّ التسبيح مستمرّ في الأقوام التي ستأتي والأشياء التي ستكون، ولذا قالت الآية: ﴿**يُسَبِّحُ**﴾ بالمضارع، أي أنّ الجميع سبّح والجميع يسبّح.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١)

(هو) ضمير للغائب، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، بل ورد أنّ هذا من أعظم الأسماء، لذلك نجد في أدعية الصدّيقة الزهراء عليها السلام: «**يا مَنْ لا يَعْلَمُ كَيْفَ هُوَ،**

(١) الإسراء ١٧: ٤٤.

وَحَيْثُ هُوَ ، وَقُدْرَتِهِ ، إلّا هُوَ»[١].

قوله تعالى: ﴿**الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ العزيز في اللغة القادر، وللقادر معان متعدّدة، منها: العزيز فهو المقتدر على ردّ كيد الأعداء، وشلّ حركتهم، وسلب قدرتهم، فلا يكون لهم لا حول ولا قوّة، ومن يكون كذلك فهو العزيز، ونحن نسمع كثيراً ما يقال إنّ فلاناً عزيز الجانب، أي لا يستطيع أحد أن يسيئ إليه بأيّ إساءة.

وعندما ننسب هذه العزّة لله تعالى فهو يعني أن لا أحدَ في الوجود يستطيع أن يسيئ إليه ﴿**الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً**﴾[٢].

أمّا ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ فمعناه: الذي يضع الأشياء في مواضعها، ولذا نقرأ في سورة الأعلى: ﴿**سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَىٰ * الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ * وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ**﴾[٣]، أي أنّ جميع الأشياء هداها الله عزّ وجلّ بحكمة وإتقان، ولذلك فإنّه تعالى حكيم يضع الأمور في مواضعها، والإنسان لكونه جاهلاً لا يعرف حِكَمِ الباري تعالى في الكون، يتصوّر أنّ الأشياء لا تسير طبق نظام حكيم، وقد يظنّ أنّ العالم خلق عبثاً، وأنّ ما يحدث في الكون إنّما هو اعتباط، لكنّه إذا كُشِفَ له الغطاء عرف أنّ كلّ شيء يسير بِحِكمة ودقّة متناهية، ووفق مصالح تخفى حتّى على اللبيب الفطن.

كيفيّة تسبيح الموجودات

﴿**سَبَّحَ لِلّهِ**﴾ التسبيح هو التنزيه، ونتساءل هنا: كيف ﴿**سَبَّحَ لِلّهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، فهل معنى ذلك أنّه ينزّهه كلّ ما في السماوات والأرض أم للتسبيح هنا

(١) مصباح المتهجّد: ١: ٣٠٤.

(٢) النساء ٤: ١٣٩.

(٣) الأعلى ٨٧: ١ ـ ٣.

معنى آخر ؟

المؤمنون والملائكة والجان يسبّحون الله تعالى ، وتسبيحهم واضح لكن جميع ما في السماوات والأرض ـ أي الموجودات الأُخرى ـ كيف تسبّحه تعالى ؟

للعلماء في المسألة نظريّتان :

الأُولى : إنّ غير ذوي الشعور والإدراك ـ أي غير الجنّ والإنس والملائكة ـ تسبيحهم لله تعالى دليلٌ على وحدانيّته تعالى وغناه وحكمته وعظمته ، فتكون جميع الأشياء دالّة على عدم نقصه ، وأنّ فعله لا يكون عبثاً ولا اعتباطاً ، وإنّما أوْجَدَ الأشياء لحكم ومصالح يخفى علينا الكثير منها ، وقد ندرك بعضاً منها بلطفه ورحمته عزّ وجلّ .

الثانية : قال بها العرفاء ، وهي أنّ كلّ عالم الوجود يسبّح لله تعالى ، ولا شيء لا يسبّحه ﴿**وَإِن مِن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**﴾[١] .

أقسام التسبيح

والتسبيح على قسمين : تسبيح تشريعيّ وتسبيح تكوينيّ .

التسبيح التشريعيّ كأمره تعالى لنا أن نسبّحه بالغدوّ والآصال ، وفي كلّ وقت (**سُبْحانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلـهَ إلّا اللهُ، واللهُ أَكْبَر**)، هذا نوع من التسبيح التشريعيّ ، نسبّحه تعالى بألسنتنا .

وهناك تسبيح تكوينيّ لجميع الكائنات تسبّح الله تعالى بلسان حقيقتها فتنطق ، وذلك أنّ كلّ شيء ناطق بإذن الله تعالى ، وقد يتصوّر بعضٌ أنّ النطق باللسان فقط وهذا غير صحيح ، فاللسان لحم كسائر اللحم الموجود في جسم الإنسان ، غير أنّ الله عزّ وجلّ أعطى اللسان قدرة على النطق فنطق ، وكذلك عزّ وجلّ

(١) الإسراء ١٧ : ٤٤.

يعطي الجوارح والجلد قدرة على النطق في يوم القيامة ، كما يحدّثنا القرآن ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(١).

إذن اللسان ينطق في الحياة الدنيا لأنّ الله عزّ وجلّ أنطقه ، وكذلك تنطق مجموعة من الأشياء يوم القيامة ، وعندما نتحدّث عن التسبيح في الدنيا نجد أنّ هناك أشياء تسبّح ، فالطير يسبّح لله جلّ وعلا ، والحديد والتراب ، وكذلك المعادن بأنواعها ، وجميع الكون يسبّح لله تعالى تسبيحاً تكوينيّاً .

مراتب الإدراك والشعور

أصحاب الحكمة المتعالية كصدر المتألّهين والسيّد الطباطبائيّ صاحب تفسير الميزان لهم كلام رائع وجميل ، خلاصته :

أنّ مراتب الإدراك والشعور مختلفة ومتفاوتة ، أعلى مرتبة من الإدراك والشعور للمجرّدات ـ أي الأرواح والعقول ـ وعالم الأرواح والعقول للملائكة ، ثمّ المراتب الأنزل ، وآخر المراتب نزولاً عالم المادّة ، وهو عالم الجمادات ، وله إدراك وشعور يتناسب معه ، من هنا نفهم حقيقة بعض المعاجز التي حدثت للنبيّ ﷺ كتسبيح الحصى بين يديه ، أي أنّ الله تبارك وتعالى أنطق الحصى فسبّح بين يدي رسول الله ﷺ ، ومعجزة ذلك الجذع الذي حنّ وجاء إليه ﷺ وسلَّمَ عليه وشهد له بالنبوّة ، هذه المعاجز المذكورة ثابتة بالتواتر ، ولا يستطيع أحد أن ينكرها ، ويبيّن لنا هذا أنّ الناس الذين شاهدوا الحصى يسبّح بين يدي رسول الله ﷺ مع أنّه جماد غير أنّ الله تعالى أقدره على التسبيح .

---

(١) فصلت ٤١ : ٢٠ و ٢١.

الإدراك والشعور في الإنسان

وعليه فإنّ جميع الموجودات لها إدراك وشعور، يختلف من موجود إلى آخر، فالإنسان له ميزته الخاصّة به، وفي حالاته المعنويّة المرتبطة بالله تعالى ـ كالتقوى ـ تجده كلّما ازدادت تقواه ارتقى معنويّاً، وازداد خوفه من الله عزّ وجلّ، وهذا الخوف نابع من إيمانه الراسخ بأنّ جميع ما حوله له إدراك وشعور، في رصد حركاته وسكناته، وهذه الحالة المعنويّة يفقدها غير المتّقي والغافل لأنّه غير واعٍ لها، وساهٍ عن الله تعالى، عزل نفسه عن الله عزّ وجلّ. وشهادة الأماكن على الإنسان يوم القيامة عندما يعصي الله تعالى، وشهادتي الزمان والمكان من الأُمور الثابتة في الآيات والروايات، قال تعالى: ﴿**إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا * وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا * وَقَالَ الْإِنسَانُ مَا لَهَا * يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا**﴾(١)، فالأرض في يوم القيامة تخبر بما حدث، وما فعل الإنسان على سطحها.

إنّ عقولنا عاجزة عن معرفة كيفيّة شهود الزمان والمكان على الإنسان، ونلحظ أنّ العلم الحديث يقف مدهوشاً عند تصوّر خروج الروح من الجسد، ويجري محاولات متعدّدة لرؤية خروجها من الجسد، وقد قرأت تجارب علماء كبار أرادوا التعرّف على كيفيّة خروج الروح من الجسد، وبذلوا جهوداً جبّارة وخسروا أموالاً طائلة من أجل ذلك، ولم يصلوا إلى نتيجة. مع أنّنا نجدهم إذا وصلوا إلى اكتشاف معيّن في عالم المادّة حتّى وإن كان بسيطاً يفرحون به كثيراً ويعتبرونه نصراً علميّاً كبيراً في هذا العالم المادّيّ، فكيف حالهم لو حقّقوا كشفاً علميّاً في عالم ما وراء الطبيعة وعالم الروح أو استطاعوا مشاهدتها؟

لو تحقّق هذا الحلم سوف يحدث قفزة علميّة هائلة لهم، غير أنّ هناك بون

---

(١) الزلزلة ٩٩: ١ ـ ٤.

شاسع بين عالم المادّة وعالم المعنى .

من هنا نصل إلى أنّ الإنسان عاجز عن إدراك حقيقة شهود الأرض أو المكان أو الزمان ، وكيفيّة ذلك ، مع كونها حقيقة إيمانيّة لا يمكن التشكيك فيها لأحد .

لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾

﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ اللام هنا للملك أو الاختصاص لله تعالى ، وقوله : ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بيان لسعة ملكيّته ، وقد أبان العلماء أنّ الملكيّة تنقسم إلى قسمين :

الملكيّة الحقيقيّة .

الملكيّة الاعتباريّة .

ونضيف قسماً آخر اسمها الملكيّة الحقّة .

أوّلاً : الملكيّة الحقيقيّة

عندما نطلق الملك أو الملكيّة على شيء نفهم الملكيّة أو مقولة الملك ، وهي من المقولات الفلسفيّة العشر ، ويسمّيها الفلاسفة مقولة الجِدَه ، وحقيقتها إحاطة شيء بشيء ، كالتختّم والتنعّل (أي لبس الخاتم والحذاء) فإحاطة شيء بشيء تقريب للملكيّة الحقيقيّة .

أمّا الملكيّة الحقيقيّة فهي كتصرّف الإنسان في أعضاء جسده ، في يده أو رجله أو عينه ، وإذا أردنا الدقّة العقليّة نجد أنّ التصرّف في هذه الملكيّة أكبر من تصرّف الإنسان في ممتلكاته الخاصّة به كعبده الذي يملكه أو سيّارته أو بيته ، وغير ذلك من ممتلكاته .

ثانياً: الملكيّة الاعتباريّة

وهي نوع من الاختصاص في الخارج، فمن يشتري ثوباً يصبح الثوب من مختصّاته، وهكذا من يشتري المسبحة فهي من مختصّاته، أي أنّ العرف العقلائيّ وضع قانوناً على أنّ هذا هو ملك من دفع ثمنه وله حقّ التصرّف فيه، ولا يجوز لغيره أن يتصرّف فيه إلّا بإذنه، وإن كان في الحقيقة لا يحيط به إحاطة تامّة، فإنّ من اشترى بيتاً فلا يحيط به، وإنّما يرى العرف أنّ البيت ملكه، فالملكيّة اعتبار عرفيّ، لذا نسمّي هذا القسم بالملكيّة الاعتباريّة، لكون المالك يستطيع أن يبيح التصرّف فيما ملكه للغير، ويصبح الغير له حقّ التصرّف كالمالك أو يوكل غيره ليصبح الغير بمثابة المالك أيضاً.

ثالثاً: الملكيّة الحقّة

وهي كون المملوك لا يملك مِن أمره شيئاً أبداً، وإنّما يرتبط وجوده ارتباطاً كلّيّاً بمالكه كارتباط الكون بخالقه.

بعد أن أوضحنا أقسام الملكيّة الثلاثة، نرجع إلى قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، فماذا يراد من الملكيّة هاهنا؟

تتحدّث الآية عن الملكيّة الحقّة؛ ذلك أنّ ملكيّة الإنسان اعتباريّة، وليس له ملكيّة حقيقيّة للأشياء، فضلاً عن أن تكون له ملكيّة حقّة، وهي التي قلنا إنّه ليس للمملوك فيها أيُّ نحو من الوجود إلّا بالارتباط بوجود مالكه.

الأبعاد المعرفيّة للملكيّة الحقّة

جعل الله تعالى عالم الوجود كلّه يرتبط بوجوده تعالى، ولا يوجد شيء يستغني عنه تعالى طرفة عين، ونحن نعترف بعجزنا وضعفنا عندما نقول: (لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم)؛ لأنّ معنى الحوقلة أنّ الموجودات كلّها مرتبطة بالله تعالى،

هو المالك لها بالملكيّة الحقّة، وله التصرّف فيها كيف شاء، وأنّى شاء، وبما شاء؛ لذا نجد الإنسان يحبّ الحياة، ويريد أن يحيَا بالغنى والسعة في المال والولد، وغير ذلك، وأن يُعمّر في الدنيا كما يريد، لكن ذلك لا يتاح له لأن الله عزّ وجلّ أراد له أن يحيا برهة زمنيّة بمقدار، والإرادة الإلهيّة كائنة لحِكَمٍ ومصالح، غير أنّ الإنسان ينسب الأشياء إلى نفسه جهلاً وغروراً وطغياناً وتكبّراً، ويقول هذا ملكي، وهذا مالي، وإذا أصبح عارفاً بالله تعالى نسب كلّ شيء له تعالى ﴿**إِنَّا لِلّهِ وإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ**﴾[1].

وهناك تعبيرات في القرآن شرحت معنى الملكيّة الحقّة لله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾[2]، قوله: ﴿**أَنتُمُ**﴾ أي في وجودكم فقراء تحتاجون إليه عزّ وجلّ، والله تعالى هو الغنيّ عنكم، وهو المعطي، والرازق، والمنعم لكم، هو المعطي للسمع والبصر والعقل ليستفيد الإنسان من النعم ويصل إلى السعادة بطاعة الله تبارك وتعالى، ومن عرف ذلك عرف معنى قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾، أي أنّ جميع السماوات والأرض لله جلّ وعلا، وأنّ قول الإنسان هذا مالي، وهذا مال الله بجعل نفسه في عرض الله تعالى وفي مقابله، جهلاً منه، وعندما يأتي يوم القيامة سيعرف الإنسان أنّ جميع الأشياء حتّى الجوارح التي أُعطي إيّاها، وتصرّف فيها، والجسد الذي استفاد منه، فضلاً عن أمواله وأولاده، هي ملك لله تعالى، وتظهر الأُمور على حقيقتها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾[3]، ففي ذلك اليوم ينكشف كلّ شيء على حقيقته وواقعيّته، وعندما يسألهم الله تعالى

---

(١) البقرة ٢: ١٥٦.

(٢) فاطر ٣٥: ١٥.

(٣) سورة ق ٥٠: ٢٢.

﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ﴾؟ يجيب الجميع بجواب واحد: ﴿لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾[١]، أي القاهر لجميع الموجودات، وهذا ظهور للحقّ تعالى، ومعرفة للأشياء بواقعيّتها في عالم الجبروت.

أمّا في عالم الملك فهناك مانع يمنع من ذلك، هو وجود الحُجُب على قلوب الناس فتجعلهم يتصوّرون أنّ الملك لهم، وأنّ الأشياء تحت سيطرتهم، ولسان حالهم يقول: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[٢]، ينسب الأشياء إلى نفسه وقدرته وجدارته، ومن أزال الحُجُب والأغشية وخرج عن عبودية هواه، وارتقى قليلاً بذكر الله تعالى في السرّ والعلن سيتدرّج حتّى يصل إلى معنى (لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم)، ويتمثّل ضعفه وعجزه، ويعرف حقيقة ﴿إِنَّا لِلَّهِ وإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ﴾[٣]، التي توصله إلى فقره وحاجته إليه تعالى، وأنّه هو ﴿الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾.

عبّر القرآن الكريم بدقّة، وجاء بكلمات تنسجم مع المعنى الذي يهدف الإيصال إليه، قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ بيان إلى الملكيّة التعلّقيّة التي أوضحناها، وأنّ جميع الأشياء متعلّقة في وجوداتها بالقدرة اللامتناهية والمطلقة لله تعالى، ونستطيع تشبيه ذلك بمن ينزل إلى بئر عميق، ويتعلّق بحبل فإنّه لو ترك الحبل لسقط، وعالم الوجود كذلك متعلّق ومرتبط بوجود الله عزّ وجلّ، وليس لوجوده وجود في قِبَالِه عزّ وجلّ ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾، وهذه حقيقة وجود الموجودات الممكنة حقيقتها هي ارتباطها بالله عزّ وجلّ. وقوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ تظهر آثاره في المقطع القرآنيّ بعده ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾،

---

(١) غافر ٤٠: ١٦.

(٢) القصص ٢٨: ٧٨.

(٣) البقرة ٢: ١٥٦.

يرى الإنسان الحياة والموت في الموجودات ، ففي فصل الخريف والشتاء يرى أنّ أشجاراً تموت وأُخرى تحيى ، وحيوانات تنفق وأُخرى تولد وتعيش وتحيى ، والموت والحياة في نفس الإنسان ، ففي كلّ يوم هناك خلايا تموت وأُخرى تحيى ، ﴿**يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ ، والإحياء والإماتة قانون عامّ ، قال تعالى : ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ**﴾[١] ، ونجد هذا المعنى في أدعية أهل البيت عليهم السلام ، الذين هم ترجمان القرآن ، والآيات والأدعية لا تعبّر عن الموت بالعدم بل بمخلوق لله تعالى ﴿**يُحْيِي وَيُمِيتُ**﴾ ، ومن ينظر إلى الإحياء والإماتة ويرى أنّ من يتصرّف في الأشياء على أنّها ملكه ـ مع أنّه يملكها بملكيّة اعتباريّة ـ في أدنى مراتب الملكيّة ، إلّا أنّ تصرّفاته في أي شيء تجعله يغفل عن الشيء الآخر . أمّا الله تعالى فـ ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ ، هو على كلّ شيء قدير بكامل وجوده ، وبكلّ شيء يرتبط به ، والعالم بأجمعه لله عزّ وجلّ ، أمّا غيره فيقدر على شيء دون سواه ، وفي زمان دون آخر ، وفي مكان دون ثانٍ ، ولا يستطيع أحد أن يقدر على كلّ شيء في كلّ مكان ، وبكلّ صفة ، ويرجع ذلك إلى القدرة اللامتناهية والتي ليس لها حدّ ، وهي قدرة الله التي هي عين ذاته تعالى ، من هنا نتذوّق الجمال في قوله تعالى : ﴿**وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ .

تذكّرنا هذه السورة المباركة بالمبدأ والمعاد ، ففي بدايتها ﴿**سَبَّحَ لِلَّهِ**﴾ ، وهذا تذكير بملكيّته للأشياء وارتباطها به تعالى ، وعلينا أن نتصرّف معها بهذا المنظار ، ذلك أنّ الإنسان إذا تصرّف مع الأشياء من خلال أنّها مملوكة لله تعالى سيختلف تصرّفه وتختلف نظرته ، أمّا إذا نظر إلى الأشياء على أنّها له وهو المالك لها فسوف يتجبّر ويتغطرس ويفعل بها ما يريد ، بل ويعصي الله بها ، لكن رؤيته أنّها ملك لله تعالى تجعله يتعامل معها بمنتهى الرفق والرحمة ، لهذا نقرأ في سيرة الأئمّة عليهم السلام

---

(١) الملك ٦٧ : ٢ .

أنّ أحدهم حجّ على ناقة سنوات طويلة ولم يضربها لأنّه عرف أنّها ملك لله تعالى، ولا يتصرّف بها كيفما شاء، بل على وفق ما يريده الحقّ تعالى.

للمعصوم المكانة الكبيرة التي آتاه الله تعالى إيّاها، ومنحه العلوم اللّدنيّة التي تقصر عقولنا عن إدراكها، غير أنّه يتصرّف بمنتهى العبوديّة لله تعالى مع الحيوان والنبات والجماد، ومع الأشياء كلّها، أمّا نحن فنتصرّف كأرباب لنا القدرة، وهذا عين الجهل الناشئ من عدم علم الإنسان أنّها ملك لله تعالى، وعليه أن يتصرّف بها كما يريده سبحانه وتعالى.

﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾

من المباحث التي تتعرّض لها السورة مسألة المعاد ـ رجوع الأشياء إلى الله ـ والمبدأ وهو الله تعالى، تعطي السورة المباركة أوصافاً وأسماءً له عزّ وجلّ، ومن يريد أن يتعرّف عليه تعالى لن يستطيع ذلك إلّا من خلال إدراك وجوده سبحانه، أو إدراك وجود الكائنات الموجودة المستندة في وجودها إليه تعالى، وبذلك يتحقّق إثبات المبدأ والتعرّف على وجود الله عزّ وجلّ، وبعد ذلك يتعرّف على صفاته تعالى.

وقد قسّم العلماء التوحيد إلى أربعة أقسام:

الأوّل توحيد الذات

والمقصود منه أنّ الذات المقدّسة لله تعالى واحدة لا تركّب فيها ولا تعدّد، والله تعالى واحد أحد، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾(١).

(١) سورة الأخلاص.

الثاني توحيد الصفات

ومعناه أنّ جميع الصفات المقدّسة ترجع إلى ذاته، فهو الواحد الأحد، المتّصف بالعلم والقدرة والحياة والوجود والإرادة، السميع البصير، وجميع الصفات المتعدّدة له ترجع إلى ذاته تعالى. ولا يمكن أن تكون مغايرة للذات الواجبة الوجود لأنّها لو كانت كذلك لكانت غير الله تعالى ولتعدّد القدماء، إذن صفاته عين ذاته.

اتّفق علماء الإماميّة على أنّ جميع صفات الله تعالى هي عين الذات المقدّسة ولا تعدّد فيها، فهو سميع بذاته، وبصير بذاته، وهو عالم بذاته، أي أنّ ذاته هي نفس العلم، وهو تعالى قادر بذاته، أي أن ذات الله وعلمه تعالى شيء واحد لا تعدّد فيه، والاختلاف في التعبير لا يدلّل على اختلاف في الواقع، الواقع واحد، أي أنّ علمه وذاته شيء واحد، وقدرته وذاته كذلك، وحياته وذاته شيء واحد، ووجوده عين ذاته، وقدرته وعلمه تعالى شيء واحد، والتعدّد في الألفاظ وليس في الواقع والمصداق؛ إذ المصداق شيء واحد؛ لأنّ العلم والقدرة والحياة لا تعدّد فيه، فهو واحد أحد، قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة: «**أَوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ، وَكَمالُ مَعْرِفَتِهِ التَّصْدِيقُ بِهِ، وَكَمالُ التَّصْدِيقِ بِهِ تَوْحِيدُهُ، وَكَمالُ تَوْحِيدِهِ الْإِخْلاصُ لَهُ، وَكَمالُ الْإِخْلاصِ لَهُ نَفْيُ الصِّفاتِ عَنْهُ، لِشَهادَةِ كُلِّ صِفَةٍ أَنَّها غَيْرُ المَوْصُوفِ، وَشَهادَةِ كُلِّ مَوْصُوفٍ: أَنَّهُ غَيْرُ الصِّفَةِ**»[(١)]، أي أنّ كمال التوحيد أن لا نقول بوجود صفات متعدّدة تغاير الذات، بل صفاته هي عين الذات المقدّسة له تعالى، وهو ما يعبّر عنه بتوحيد الصفات.

الثالث توحيد الأفعال

المقصود منه أنّ جميع الأفعال هو خالقها المبدع الموجد لها.

---

(١) نهج البلاغة في خطبة له عليه السلام يذكر فيها ابتداءَ خلق السماءِ وَالأَرض، وخلق آدم...

الرابع توحيد العبادة

ويراد به أنّ العبادة له عزّ وجلّ وحده، ولا يجوز لأحد أن يعبد غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾(١).

وهذا هو التوحيد الحقّ الذي يكرّره الإنسان في صلواته اليوميّة في قوله تعالى: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**﴾، يحصر العبادة بالله تعالى.

توحيد الصفات في القرآن

تحدّثت آيات كثيرة عن صفات الله تعالى، يظهر منها التوحيد الصفاتيّ، لعلّ من أجلى تلك الآيات قوله تعالى:

﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ الضمير ﴿**هُوَ**﴾ يرجع إلى الله تعالى، أي ذاته، ثمّ إنّ الذات هي الأوّل، وتختلف الأوّليّة هنا عنها عندما تطلق في التعبيرات الأُخرى، فأوليّة الله تعالى لا ثاني لها، ولم تُسْبق بغيرها، وليس لها ما بعد، أي أنّه تقدّم تعالى على غيره لا بمعنى أنّ غيره جاء بعده، فأصبح ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ**﴾، بل بمعنى أنّه (قبل القبل بلا قبل)، (وهو الآخر) ليس بمعنى أنّه جاء بعد الأشياء، بل بمعنى (أنّه بعد البعد بلا بعد).

وهناك مصطلح كلامي لـ(**قَبْلَ الْقَبْلِ بِلَا قَبْلٍ**) يعبّر عنه بالأزل، وآخر لـ(**بَعْدَ الْبَعْدِ بِلَا بَعْدٍ**)(٢) يعبّر عنه بالأبد، والله قبل القبل بلا قبل، أي: أزليّ في وجوده، وهو بعد البعد بلا بعد، أي: أبديّ في وجوده، ولا شيء غيره يكون قبل القبل بلا قبل، فلا وجود إلّا لله تعالى، وكلّ ما يطلق عليه قبل غير الله تعالى فهو منه يستمدّ وجوده، والله عزّوجلّ هو الأزليّ في وجوده، ولا شيء له الدوام والبقاء إلّا

---

(١) الأنعام ٦: ١٦٢.

(٢) التوحيد: ١٧٤.

هو سبحانه وتعالى. ويعبّر عن المعنيين (**قَبْلَ الْقَبْلِ بِلا قَبْلٍ**) و (**بَعْدَ الْبَعْدِ بِلَا بَعْدٍ**) بالسرمد، الله سرمديّ الوجود، أي: أنّ قبليّته بلا قبل وبعديّته بلا بعد، وهو دائم الوجود، قال تعالى: ﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ**﴾، هو أوّل وهو آخر، وأوّلويّته وآخريّته عين ذاته وحقيقة وجوب وجوده، أي: أنّ وجوده ليس وجوداً مستفاداً من قِبل الغير كوجود الممكنات.

﴿**هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ**﴾، والظاهر هو الظاهر في وجوده، وقد عبّر القرآن الكريم عن ظهور الله تعالى بتعبيرات مختلفة، منها ما يرتبط بكيفيّة رؤية الله سبحانه وتعالى في الأشياء، فإنّه تعالى ظاهر في كلّ شيء في الوجود، قال تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**﴾[١]، وفي كلّ عوالم الوجود هو ظاهر، وهو تعالى ظاهر للنفس، قال تعالى: ﴿**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ**﴾[٢]، أي أنّ نفس الإنسان يظهر لها وجوده سبحانه وتعالى كما ظهر في الآفاق، فأيّ وجودٍ نراه نجده فقيراً محتاجاً إليه عزّ وجلّ وإن تعدّدت الوسائط، فكلّ موجود يستمدّ وجوده من الوجود الذي قبله إلى أن يصل الأمر إليه سبحانه وتعالى.

هذا في الظاهر، أمّا الواقع فالوجود حقيقته بارتباطه بالخالق المبدع، والعلّة للخلق وواجب الوجود لذاته، الذي لا يحتاج إلى الغير في وجوده.

هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ

(١) فصلت ٤١: ٥٣.

(٢) الذاريات ٥١: ٢١.

وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

ماهيّة التوحيد الأفعاليّ

ذكرنا التوحيد الأفعاليّ، وخلاصته: أن يعتقد المؤمن أنّ الله تعالى هو الخالق للكون بأجمعه، لا شريك له في خلقه، ويؤمن بأنّ الله تعالى واحد في ذاته وواحد في صفاته، وهو المستحقّ للعبوديّة دون ما سواه (التوحيد في العبادة)، ويؤمن أيضاً بتوحيد الأفعال، وهو الاعتقاد بأنّ جميع ما نراه من الأفعال مخلوق له تعالى، غاية الأمر أنّ بعض الأُمور خلقها الله عزّ وجلّ مباشرة، وبعضها بالتسبيب، أي: أنّ الله عزّ وجلّ أوجد شيئاً ثمّ أصبح ذلك الشيء سبباً لإيجاد غيره، وهكذا، والجميع مخلوق له تعالى، إمّا مباشرة أو بالتسبيب، فكلّ الأشياء خلقها الله، وهو العلّة للخلق، لا علّة سواه لهذا الوجود.

وقد أفاد ذلك القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ**﴾[١]، وقال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**﴾، وقد قام الدليل العقليّ على ذلك بأنّ جميع عوالم الوجود مخلوقه لله تعالى؛ لأنّ الخالق لا بدّ أن يكون غنيّاً جامعاً لجميع صفات الكمال، ومنزّهاً عن جميع صفات النقص، وهو منحصر في الله تعالى.

كيفيّة إيجاد عالم الوجود

الدليلان العقليّ والنقليّ يُدلّلان على أنّ الله تعالى خلق جميع عوالم الوجود. وهناك حيثيّة بيّنها القرآن وأشارت إليها العلوم الحديثة نلخصها في نقطتين:

الأُولى: أنّ الله تعالى قادر بقدرة غير محدودة، فهو القادر على إيجاد جميع عوالم

(١) الزمر ٣٩: ٦٢.

الوجود المجرّدة والمادّيّة في أقلّ من طرفة عين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾(١).

الثانية: أنّه تعالى مع قدرته الفائقة لإيجاد العوالم المادّيّة والمجرّدة في آنٍ واحد إلّا أنّ حكمته اقتضت أن يخلق الخلق (بالتدريج)، أي: في ضمن مراحل متعدّدة، تستغرق كلّ مرحلة ملايين السنين، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم والكتب السماويّة بأنّ الله تعالى خلق عالم الوجود في ستّ مراحل، كلّ مرحلة هي فترة زمنيّة لم تحدّد، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾، والستّة أيّام هي المراحل الستّ التي تحدّثنا عنها، ولا يراد هنا باليوم أنّه اليوم المعلوم عندنا المتكوّن من أربع وعشرين ساعة، بل المراد منه الاستعمال الشائع الدالّ على البرهة الزمنيّة كما نستعمله في محاوراتنا الشائعة عندما نقول: إنّ اليوم هو حُكم آل فلان، وغداً سيكون حكم آخرين، ولا نقصد منه اليوم المحدّد، وإنّما الفترة الزمنيّة؛ لأنّ اليوم يطلق على البرهة الزمنيّة، وقد استخدم القرآن الكريم ذلك، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ هذا هو المعنى المراد، وليس المراد منه اليوم المعروف بل البرهة الزمنيّة الممتدّة التي لا نعلم مقدارها بالسنين، ونحتمل أنّها تمتدّ إلى آلاف، أو عشرات الآلاف أو مئات الآلاف والملايين من السنين، **والخلاصة:** أنه قد مرّت على الخلق ستّ فترات تكامل فيها عالم الوجود.

أسباب خلق الموجودات على ستّ مراحل

وقد ذكر العلماء نكتة جميلة تفيدنا في هذا المقام وهي أنّ الله ﷻ إذا كان له القدرة المطلقة على إيجاد الخلق في طرفة عين، بل أقلّ من ذلك، فلماذا خلق

---

(١) يس ٣٦: ٨٢.

الله ﷻ الخلق على ستّ مراحل ؟

وعلّل ذلك بأُمور:

الأوّل: إظهار القدرة الإلـٰهيّة

الهدف إظهار القدرة الإلـٰهيّة بنحو أكبر، فالإنسان عندما يفكّر في عوالم الوجود ويتأمّل يجده مخلوقاً في مراحل متعدّدة ضمن ملايين السنين أو مليارات السنين، وذلك يثير الانتباه فيه والتفكير والتعرّف بنحو أكبر وأعظم على قدرة الله ﷻ.

الثاني: أهمّيّة العامل الزمنيّ في طيّ مراحل التكامل

إنّ الله ﷻ يُعَلِّمُ الإنسان أنّ التكامل في عالم الوجود يُطوى في مراحل تدريجيّة، وخطوات مترابطة، ومن يتصوّر أنّ لديه قدرة كبيرة في الصعود التكامليّ، ويستعجل في طيّ المراحل ليُنهيها بسرعة، فلن يتمكّن من ذلك؛ لأنّ الله ﷻ علّم الإنسان أنّه تعالى مع قدرته التي بها يستطيع أن يخلق عالم الوجود في لحظة واحدة، غير أنّه خلق الخلق في مراحل ستّ، لإثبات أهمّيّة العامل الزمنيّ في طيّ المراحل التكامليّة.

بل أنّ العامل الزمنيّ له أهمّيّة مطّردة في حياة الإنسان، وترتبط بجميع شؤون حياته المختلفة، والأحاديث والروايات التي وردت عن النبيّ ﷺ وعن الأئمّة عليهم السلام فيها إشارات جميلة جدّاً لمن أراد أن يُنجز عملاً من الأعمال، أو أراد التكامل في طريق عبوديّته لله ﷻ، وقد ضرب النبيّ ﷺ مثلاً جميلاً صوّر فيه هذا المعنى فقال: «**إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلُوا فِيهِ بِرِفْقٍ، وَلَا تُكَرِّهُوا عِبَادَةَ اللهِ إِلَى عِبَادِ اللهِ فَتَكُونُوا كَالرَّاكِبِ الْمُنْبَتِ الَّذِي لَا سَفَراً قَطَعَ، وَلَا ظَهْراً أَبْقَىٰ**»(١). وصفه ﷺ

---

(١) الكافي: ٢: ٨٦، الحديث ١.

الدين بالمتانة مجاز رائع، يعبّر عن المشقّة والصعوبة في القيام بوظائف وتشريعات الدين، ممّا يتطلّب الرفق للوصول إلى مدارج الكمال بطريقة صحيحة، ثم أوضح الرسول ﷺ مراده بأروع مثال عندما شبّه النفس في سيرها التكامليّ بالمسافر، وشبّه البدن وقواه بالمركوب؛ لأنّ النفس في سيرها تحتاج إليهما، وكما أنّ المسافر في سيره يحتاج إلى مركوب، عليه أن يراعيه ولا يحمله أثقالاً كثيرة كي لا يهلك ويعطب، كذلك النفس إذا حُمّلت فوق طاقتها نفرت وبالتالي عطبت، وتعبيره ﷺ بالراكب المُنبت إشارة إلى الشخص الذي يتعب دابّته حتّى تعطب وتتوقّف عن الحركة، وهو حينئذٍ لم يصل إلى مقصده، ولم يُبقِ على حياة مركوبه ودابّته، وهكذا السائر في مراتب الكمال يحتاج إلى التدرّج وعدم الاستعجال في طيّ المراحل حتّى لا يؤذي نفسه من جهة، ويعجز عن قطع أي مرحلة تكامليّة من جهة أُخرى. وفي الآية درس تربويّ يتعلّمه الإنسان من الحقّ تعالى فالله سبحانه وتعالى مع كمال قدرته وعدم محدوديّة هذه القدرة إلّا أنّه خلق الوجود في مراحل متعدّدة.

معنى العرش

﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾: ﴿**ثُمَّ**﴾ هنا لا تدلّل على فاصل زمنيّ، فعامل الزمن ملغى، ومجيئها في هذا الموضع للبيان فقط؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه.

والتعرّف على ماهيّة العرش مفيد في نفي التجسيم عن الحقّ تعالى، إنّ العرش له معنيان:

الأوّل: الشيء المرتفع الذي يجلس عليه الإنسان ـ كعرش الملك ـ وهو الكرسيّ.

الثاني: الاستيلاء.

من البديهي أنّ الله لا بدّ أن يتنزّه عن الزمان والمكان، ولا يتعقّل أن يكون سبحانه وتعالى قد جلس على عرش بالمعنى المادّيّ، أي جلس على مكان مرتفع كجلوس الملوك، فهذا المعنى ليس بمراد. وعليه فالعرش كناية عن القدرة المطلقة

في التصرّف في المخلوقات في عالم الوجود ، والله ﷻ عبّر عن هذا التصرّف بقوله : ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ ، وهو تعبير موجود ومستعمل في اللغة ، يقال عن الملك أنّه (ضَعُفَ في ملكه) أي ضعفت قدرته ، ولكن عرشه ازداد ، أي توسّعت مملكته مع ضعف في سيطرته عليها ، ولا يراد بذلك المكان الذي يجلس عليه وكرسيّ الحكم والسلطة المرصّع بالذهب والمجوهرات الثمينة ، فهذا باقٍ على حاله ولا يتحرّك ، أمّا لو عبّرنا بأنّ الملك (ثُلَّ عرشه) فذلك يعني : أنّ قُدرته ضَعُفت عن التصرّف في ملكه ، ولا يقصد أنّ عرشه المادّيّ ـ أي كرسيّ حكمه ـ قد ضعف .

فالضعف في القدرة عبّر عنه بثلّ في عرشه ، ويقابله الاقتدار والتصرّف التامّ المعبّر عنه بالاستواء ، قال تعالى ﴿**ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ ، ولا يراد أنّه جلس في مكان ، وإنّما المراد بيان أنّ الله ﷻ استولى على جميع خلقه .

والمعنى موجود في الشعر العربيّ ، قال الأخطل (الشاعر المعروف) يمدح بشراً أخا عبد الملك بن مروان حين ولي إمارة العراق :

ثُمّ اسْتوى بِشْرٌ عَلى الْعِراقِ مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَلَا دَمٍ مِهْراق

والمقصود استيلاء بشر على العراق من دون إراقة الدماء أو الاضطراب ، بل بحكمة في إدارة الأمور بنحو جيّد .

إذن اتّضح أنّ اللغة يستعمل فيها ويستخدم ﴿**اسْتَوَىٰ**﴾ بمعنى استولى ، وهذا ما يليق بالله ﷻ ، ولو قلنا أنّ الله ﷻ له مكان لكان قبل الكون في المكان ، ثمّ أتى للمكان ، وحينئذٍ تجري عليه الحركة والسكون ، ويصحّ السؤال عنه مَن الذي خلقه ؟ والصحيح أنّه ﷻ هو الذي خلق المكان ، وهو قبله وقبل الخلق كلّه ، ولو لم يكن كذلك لصحّ القول بأنّ الله قبل خلق المكان أين جلوسه تعالى ؟

والصحيح أنّ الله تعالى غنيّ عن خلقه ، فليس له مكان ، أي لا يحتاج إلى المكان ، وإذا كان كذلك فهو غنيّ لا يحتاج إلى المكان قبل الخلق وبعده ؛ لأنّه

الموصوف بالغنى المطلق، ولو احتاج إلى المكان لأصبح مفتقراً، والافتقار علامة للإمكان والحدوث، والله منزّه عن كلّ ذلك، فهو الغنيّ المطلق.

إحاطة الله بعالم الوجود

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾

إنّ من جملة صفات الله ﷻ العلم بكلّ صغيرة وكبيرة، فلا يوجد شيء جَلَّ وعَظُم، أو حَقُر وضَعُف، إلّا والله ﷻ يحيط به علماً.

وعند النظر في قوله تعالى: **﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ﴾** نتعرّف أنّ الأشياء التي تدخل في الأرض من قطرات المطر التي تسقط، والبذور والشهب والنيازك وأجساد الموتى، وأشياء أُخرى كثيرة كلّها يعلمها الله عزّ وجلّ، وكذلك ما يخرج من الأرض من أنواع النباتات، وبعث الأجساد من الأرض في يوم القيامة، والمياه التي تنبع منها، كلّها يحيط بها علماً.

ويعلم أيضاً **﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾**، أي الأشياء التي ينزلها من السماء المعنويّة كنزول الوحي من السماء، والمادّيّة كالحديد الذي تحدّث عنه القرآن: **﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾**، فهو ﷻ أنزل الحديد، وهذا ما ثبت علميّاً، إنّ الحديد كان مجهولاً والعلماء لا يعرفون المصدر الأساسي لتكوّنه، والثابت الصحيح عندنا ما حدّث به القرآن من أنّ الله ﷻ أنزل الحديد، أي خلقه وأنزله وباركه، فجعل الكثير من الشؤون الإنسانيّة وغيرها تترتّب عليه.

﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ﴾

العروج: ذهاب في صعود، والمقصود منه مايصعد من البخار والملائكة وأعمال العباد، قال تعالى: **﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾**[1]،

---

(١) المعارج ٧٠: ٤.

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾(١).

ثمّ إنّ المقطع الأخير من الآية: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ يتحدّث عن المعيّة الإلـٰهيّة وذلك لارتباط وثيق بما قبلها، فالله تعالى محيط بكلّ دقائق عالم الوجود بما فيها الإنسان ولا يغيب عنه شيء في أي زمان أو مكان، وهذه الإحاطة التامّة من قِبله تعالى تستدعي اطّلاعه الكامل على كلّ أعمال البشر فلا يخفى عليه شيء، وهنا إشارة أخلاقيّة للإنسان بأنّ عليه أن يلتفت دائماً إلى هذه المعيّة التي عبّر عنها العرفاء بالحضور الإلـٰهي، واستشعار وجوده تعالى في كلّ لحظة وآن، ممّا يجعل الإنسان مراقباً لأقواله وسلوكه كي يتوافق مع هذه المعيّة الإلـٰهيّة التي جسّدها أمير المؤمنين عليه السلام قولاً وعملاً في كلمته المشهورة: «**ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله**».

لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٥﴾

الهدف من تكرار الملكيّة في الآية

استعرضنا في الآية الثانية قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ معنى الملكيّة، وهذه الآية تتحدّث أيضاً عن الملكيّة فهنا تكرار لملكية الله سبحانه وتعالى في السورة، وقد ذكرنا سابقاً أنّ الملكيّة لله سبحانه وتعالى هي ملكيّة حقّيّة، بمعنى أنّ جميع من في السماوات والأرض يرتبط بالله سبحانه وتعالى في وجوده، ولولا أنّ الله يمدّه ويفيض عليه الوجود لتلاشى وانعدم.

والسبب في تكرار الملكيّة يرتبط بالمعاد، بخلاف ما جاء في الآية الثانية، فإنّه يرتبط بقدرة الله سبحانه وتعالى ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ**

(١) فاطر ٣٥: ١٠.

شَيءٍ قَدِيرٌ﴾، أمّا هنا فالملكيّة بلحاظ رجوع الأشياء إلى الله تعالى، **﴿لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾**.

المعاد في القرآن

إنّ المعاد أُسّ العقائد، لذا قال العلماء: إنّ أُصول العقائد ثلاثة: (المبدأ والمعاد والإيمان بالرسالة)، والإماميّة يضيفون إلى الثلاثة أصلين آخرين هما الإمامة والعدل، غير أنّهما يرجعان إلى الأُصول الثلاثة، فالعدل يرجع إلى التوحيد؛ لأنّ حقيقة العدل صفة من صفات الله تعالى، وقد قلنا إنّ صفاته ترجع إلى ذاته، فالعدل يرجع إلى التوحيد. والإمامة ترجع إلى النبوّة إذِ الإمامة استمرار وديمومة للرسالة، بمعنى أنّ وظيفة الإمام هي الحفاظ على الرسالة التي جاء بها النبيّ صلى الله عليه وآله، فهو قَيِّمٌ عليها، وليس له وظيفة غير الهداية والرعاية للرسالة، فتكون الأُصول ثلاثة: (المبدأ والمعاد والرسالة).

والتأمّل في الآية ـ وغيرها من آي الذكر الحكيم ـ يظهر منه التركيز على أهمّيّة المعاد برجوع الأشياء إلى الله تعالى. إنّ المعاد في حقيقته واضح وبيّن يربط الإنسان بالله تعالى، فالإنسان يرجع إلى الله تعالى بَعْدَ موته ليلقى جزائه، ويحاسب بما عمل في الحياة الدنيا، بل أنّ بعض الآيات تؤكّد على أنّ المعاد لا يرتبط بالإنسان وحده، بل يشمل غيره من الحيوانات، كقوله تعالى: **﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾**(١)، فالحيوانات سترجع إلى الله تعالى، وقد يظهر من بعض الآيات أنّ المعاد عامّ وليس بمختصّ بالإنسان والحيوان والملائكة والجنّ، بل يشمل عوالم الوجود، وأنّ كلّ شيء يرجع إلى الله تعالى، قال تعالى: **﴿لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾**. إنّ أكثر الناس لم يكونوا يُصدّقون بالمعاد في السابق، بل كانوا

---

(١) التكوير: ٨١: ٥.

يرون أنّ المعاد مستحيلاً، واستمرّ هذا الاعتقاد إلى زمن النبيّ ﷺ، وقد جاءه شخص وأخذ عظماً بالٍ وفتّه أمام الرسول ﷺ وقال: يا محمّد ﷺ، هل يستطيع ربّك أن يعيد هذا العظم البالي، وعندها نزل قوله تعالى: **﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾**(١)، والله سبحانه وتعالى يَرُدُّ عليه: **﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾**(٢)، تبيّن الآية أنّ الله تعالى هو الذي أنشأها من العدم، لا مِنْ شيء، وهو قادر على إعادتها، والإنسان عندما يموت ويتلاشى جسده، فإنّ الله سبحانه وتعالى قادر على إعادة كلّ عنصر من العناصر التي يتكوّن منها العظم أو اللحم إلى أصله، وكذلك الحال بالنسبة إلى الوحوش والشجر والنبات وعالم الوجود الذي سيرجع إلى الله سبحانه وتعالى. نعم، الأرض تبدّل غير الأرض، والسماوات غير السماوات، ولكن ذلك لا يمنع من رجوعها إليه سبحانه وتعالى.

كيفيّة رجوع الأشياء إلى الله تعالى

يمكن أن نفهم رجوع عالم الوجود إلى الله سبحانه وتعالى بنحو دقيق من خلال رواية جاءت عن الصادق عليه السلام، قد جاء رجل إليه عليه السلام وسأله: ما تقول في هذه الآية: **﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا﴾**(٣)، أي أنّ الجلود التي عصت عذّبت فما ذنب غيرها ليعذّب؟ فقال عليه السلام: **وَيْحَكَ! هِيَ هِيَ وَهِيَ غَيْرُهَا**. قال السائل: أعقلني هذا القول؟ فقال عليه السلام له: **أَ رَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلاً عَمَدَ إِلَى لَبِنَةٍ فَكَسَرَهَا، ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهَا الْمَاءَ وَجَبَلَهَا، ثُمَّ رَدَّهَا إِلىٰ هَيْئَتِهَا الْأُولىٰ، أَلَمْ تَكُنْ هِيَ هِيَ وَهِيَ غَيْرُهَا؟** فقال: بلى أمتع الله بك»(٤)، إنّ هذا الرجل الذي جاء للإمام عليه السلام يسأل عن الجسد

---

(١) يس ٣٦: ٧٨.

(٢) يس ٣٦: ٧٩.

(٣) النساء ٤: ٥٦.

(٤) بحار الأنوار: ٧: ٣٩.

الذي يعذّب ، هل هو نفس الجسد الذي ارتكب المعصية أو غيره ؟ حسب ما تذكره الآية فالذي لم يرتكب المعصية لماذا يعذّب ؟

فأجابه الإمام عليه السلام جواباً دقيقاً بكلمات موجزة ، وقال له : الجسد هو هو وهو غيره ، وأبان الإمام عليه السلام معنى كلامه بمثال قريب للأفهام ، حيث إنّ اللبِنة مصنوعة من الطين ، وتستخدم للبناء ، ثمّ تكسر وتحوّل إلى تراب ، ثمّ يصبّ عليها الماء وتشكّل لَبِنَة جديدة غير اللبِنة الأُولى ، ولكن المادّة هي نفسها لم تتغيّر ، وذلك معنى كلام الإمام عليه السلام ، وكذلك حال جميع عالم الوجود عندما يرجع إلى الله سبحانه وتعالى فهو هو وهو غيره .

شبهة إعادة المعدوم

أثار بعض الفلاسفة شبهةً حول المعاد ، مفادها أنّ المعاد هو عودة الروح إلى الجسد ، وقد تلاشى الجسد وانعدم ، فكيف يعود ؟ ! مع أنّ القاعدة العقليّة تحيل ذلك (استحالة إعادة المعدوم) ، والجسد عندما تخرج منه الروح ينعدم فيستحيل إعادته بعد ذلك .

وقد أجاب العلماء عن هذه الشبهة بجوابين :

الأوّل : أنّ القاعدة ليست بمسلّمة ، بل أنّ حدود هذه القاعدة في عالم الإمكان ، فلا يمكن إيجاد شيء ممكن من العدم ، ولا تشمل القاعدة القدرة اللّامتناهية للباري تعالى واجب الوجود ، فهو قادر على إيجاد الأشياء لا من شيء ، وقادر على إعادتها . إذن يمكن إعادة الوجود إلى العدم ، والحكم في ذلك قبل الخلق وبعد الخلق واحد .

الثاني : إنّ القاعدة لا تنطبق على المعاد ، فهو ليس إعادة للمعدوم ، ذلك أنّ الأجساد موجودة ، والله سبحانه وتعالى خلقها وأوجدها من العدم ، وبعد الموت لا تنعدم ، بل تتبعثر ، والقادر على إيجادها من العدم قادر على إعادتها وهي موجودة ومتبعثرة .

وقد تبنّى هذا الجواب كثير من العلماء، ومفاده أنّ الأشياء التي نراها تموت وتنتهي ولا تنعدم كما أومأنا، بل يرجع كلّ عنصر إلى أصله ومعدنه، والله ﷻ يجمع هذه العناصر ويرجعها كما كانت أوّل مرّة، قال تعالى: ﴿**وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ * قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ**﴾(١)، إنّ الله ﷻ عالم بمكان وجود كلّ عنصر من العناصر، وليس الأمر هنا إعادة للمعدوم، وإنّما إعادة لشيء موجود وتجميع لذرّاته التي تحوّل بعضها وذهب إلى التراب، وبعضها إلى الهواء، وبعضها رجع إلى العناصر الأُخرى.

إثبات الشيء بدليله في الآية

قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ من إثبات الشيء بدليله، والآية تذكر المدّعى وتقرنه بالدليل، والتأمّل في قوله تعالى: ﴿**وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ**﴾ يفصح عن رجوع الأشياء إلى الله، فأموال الإنسان وما يملكه بالملكيّة الاعتباريّة المستمرّة إلى الموت تنتقل إلى ورثته، جيلاً فجيلاً، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وعندئذٍ ترجع جميع الأشياء إليه تعالى: ﴿**إِنَّا لِلّهِ وإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ**﴾(٢). إذن إعادة الملكيّة لله ﷻ والتوكيد عليها لإثبات المعاد دليله قوله تعالى: ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾، فهو برهان على أنّ الله ﷻ سوف ترجع إليه الأمور؛ لأنّه المالك الحقيقيّ لها بالملكيّة الحقّة، وجميع عوالم الوجود يرجع إليه، وليس هناك شيء لا ترجع ملكيّته إلى الله تعالى فيكون قد خرج عن ملكه، فإنّ ذلك غير ممكن.

---

(١) يس ٣٦: ٧٨ و ٧٩.

(٢) البقرة ٢: ١٥٦.

إنّ دعوى إثبات المعاد برجوع الأشياء إلى الله تعالى اقترن دليلها بها ، فهو تعالى مالك لها ولا بدّ أن ترجع إليه ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ .

أثر الاعتقاد بالآية على الإنسان

للآية المباركة أثر عميق على سلوك الإنسان وحياته من خلال أمرين :

الأوّل : إنّ الإقرار بالملكيّة الحقّة لله تعالى يُغيّر نمط حياة الإنسان إلى المنحى الإيجابيّ ، ولن يظلم ولن يطغى ، لأنّه لا يرى نفسه مالكاً للأشياء ، بل يرى أنّ كلّ ما في الوجود هو ملك لله تعالى ﴿إِنَّا لِلهِ وإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ﴾ ، وإذا أقرّ الإنسان على نفسه بأنّها مملوكة لله تعالى فإنّه سيعمل على وفق إرادة المالك ، فإذا أراد أن ينفق رأى أنّ المال لله تعالى هو الذي خوّله التصرّف فيه بما يحقّق رضاه ، وتجذّر هذا الاعتقاد في النفس تدريجاً يصير حياة الإنسان منسجمة مع القانون الإلـٰهيّ بنحو طبيعيّ .

الثاني : إنّ الاعتقاد برجوع الأشياء إلى الله تعالى : ﴿وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ يؤثّر سلوكيّاً على الإنسان ، فمن عَلِم بأنّ ماله سيعود إلى الله تعالى ، وأنّ نفسه وقُدُراتُه التي زُوِّدَ بها سترجع إلى الله تعالى ، فإنّ ذلك سيشكّل له حصانة تؤدّي إلى عدم اغتراره بماله وجاهه ونفسه ، وسوف يتواضع للحقّ تعالى ، ولن يتعلّق بالدنيا ، وسيسعى إلى تحقيق رضا الله تعالى لينال السعادة الأُخرويّة عند رجوعه إليه تعالى .

والآية من غُرر الآيات التي تُدلّل على المعاد بنحو كلّيّ ، وأنّ جميع الأشياء ترجع إلى الله تعالى ﴿لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَىٰ اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ .

يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٦﴾

إنّ الله تعالى دلّل على وجوده وحكمته ، وعلى بدائع صنعه ، ولطائف قدرته ،

بأدلّة كثيرة لا يمكن لأحد أن يحصيها، فالأدلّة الدالّة على وجوده ﷻ أو الدالّة على حكمته ﷻ، أو الدالّة على لطائف صنعه وبدائع قدرته، وعلى الإتقان العجيب والعظيم الموجود في الكون كثيرة ومتعدّدة.

والآية المباركة توضّح مظهراً نعيشه يوميّاً، ولا يلتفت إليه أحد، وهو إدخال النهار في الليل، وإدخال الليل في النهار ﴿**يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**﴾.

معنى ولوج الليل في النهار

الإيلاج في اللغة بمعنى الإدخال، والليل والنهار معروفان، ولكن الأمر الذي يمكن أن يخفى هو معنى إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل، الذي فُسِّر بمعنيين كلاهما صحيح:

الأوّل: إنّ الله ﷻ يجعل الليل يأخذ من النهار فيطول الليل ويقصر النهار، وبالعكس فيجعل النهار يأخذ من الليل فيطول النهار ويقصر الليل، وهذا مظهر مشاهد طوال السنة.

الثاني: إنّ الله ﷻ يدخل الليل في النهار بنحو تدريجيّ، وكذلك يدخل النهار في الليل بنحو تدريجيّ، أي أنّ دخول الليل والنهار لا يأتيان فجأة، بل هناك مقدّمات وعلامات تدلّنا على قُرب الليل، كاتّجاه الشمس جهة الغرب وبعدها تدخل في مراحل الغروب، حتّى تختفي عن الأنظار ويخيم الظلام، وكذلك هناك علامات تدلُّ على قُرب النهار كانبلاج نور الفجر، وبالتدريج يزداد الضياء حتّى تشرق الشمس، وإذا تحقّقت هذه العلامات عُلم بدخول النهار.

إذن دخول الليل في النهار ودخول النهار في الليل يستتبع بعض العلامات التي تجعل الإنسان يتهيّأ ويستعدّ في ترتيب أُموره وأوضاعه بما يتناسب مع دخول الليل أو النهار، ومعنى إدخال الليل في النهار وإدخال النهار في الليل هو ولوج أحدهما

في الآخر بنحو تدريجيّ ، وليس بمفاجئ يؤدّي إلى اختلال وضع الإنسان واضطرابه ، ولعلّ الدخول المفاجئ في مكان مظلم والخروج منه فجأة يوضّح لنا ما يحدث من اضطراب للإنسان ، فإنّه لن يرَ بوضوح ، ويحتاج إلى مقدار من الوقت ليرجع إلى طبيعته ، ولا يختصّ ذلك بالإنسان ، بل حتّى مظاهر الطبيعة تنسجم مع الدخول التدريجيّ لليل والدخول التدريجيّ للنهار ، وقد يخفى علينا الكثير من الأُمور المترتّبة على هذا التدرّج بإيلاج النهار في الليل وإيلاج الليل في النهار وعلاقتهما بمظاهر الطبيعة .

مراتب تأثير علم الله على الإنسان

﴿وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

من جملة الدلائل الدالّة على علم الله تعالى بكلّ شيء جَلَّ وَعَظُم ، أو صَغُر وحَقُر ، هو أنّ الله تعالى يعلم بالضمائر ، وخفايا الصدور وما يدور في الأذهان والأفكار ، ولا يخفى عليه تعالى شيء ، قال تعالى : **﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾**(١) ، هو تعالى أقرب إلينا من حبل الوريد ، ويعلم ما يخطر في أذهاننا ، وما نفكّر به ، ولهذه المسألة الأثر الكبير على الإنسان إذا أعطاها حقّها ، وهناك مراتب لهذه الحالة :

الأُولى : اعتقاد الإنسان بأنّ الله تعالى يعلم به بنحو مطلق .

الثانية : أن يستحضر الإنسان علم الله تعالى به دائماً وأبداً .

الثالثة : أن يبلغ الحال بالإنسان أن يرتقي بيقينه وبإيمانه بالله تعالى إلى العلم بأنّ الله تعالى مطّلع على ما يدور في خَلده وفي كُنْهِ وجوده .

---

(١) سورة ق ٥٠ : ١٦.

أثر معرفة الإنسان باطّلاع الله عليه

إذا توجّه الإنسان إلى أي فكرة يفكّر بها، وعلم أنّ الله ﷻ يعلم بها، فإنّ ثمرة ذلك سوف تعود عليه باجتناب الأفكار السيّئة، ويدفعه إلى التفكير بما يعود عليه وغيره بالفائدة.

وتفيد الآية السالك في وصوله إلى الله ﷻ، والمؤمن في مجال تكامله الإيمانيّ ورقيّه المعنويّ إلى الله ﷻ، عندما يستحضر أنّ الله ﷻ يَطَّلِعُ على أفكاره، ويبدأ التفكير بالخير، وسوف يجرّه ذلك إلى خيرٍ آخر، والأفكار الطيّبة تأتي بأفكار طيّبة أُخرى، وقد أثبت ذلك علم النفس، قال علماء النفس: «إنّ صدور الشرّ من الإنسان يبدأ بالأفكار السيّئة والشريرة التي يفكّر بها، ثمّ يدعوه ذلك إلى تحقيق وتنفيذ ما فكّر به، أي أنّ أساس الشرّ تنطلق شرارته من التفكير الذي يدور في خَلَد الإنسان، وإذا علم الإنسان أنّ ما يفكّر به يحيط به الله ﷻ ويعلمه، واستحى من الله ﷻ، وبدأ بمراجعة نفسه وإصلاح أفكاره، سيرجع إلى الله ﷻ ويستغفره وينيب إليه، وسيدعوه متضرّعاً ليحقّق مراده، وهذا من أقوى الدواعي الدافعة للإنسان أن يُغيّر أفكاره السيّئة ويستبدلها بأفكار خيّرة غايتها الصلاح.

الخواطر التي تخطر على الإنسان

من هنا تحدّث علماء السير والسلوك عن الخواطر التي تخطر في ذهن الإنسان وصنّفوها إلى قسمين:

خواطر رحمانيّة وخواطر شيطانيّة

فإن توجّه الإنسان إلى نفسه، وعمل على تحقيق رغباتها وإشباع شهواتها، وقصر نظره إلى عالم المادّة فقط، فلن يلتفت إلى الله ﷻ وسينعكس ذلك على أفكاره، فتدعوه إلى الرذيلة والسوء ولن يستطيع الخروج من هذه الظلمة إلّا إذا التفت

إلى الله ﷻ ، وعلم بأنّه يحيط به علماً ، قال تعالى : ﴿**وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً**﴾(١) ، إنّ من يحمل الظلم خائب ولن يصل إلى السعادة الحقيقيّة ، إلّا أن يعي أنّ الخواطر تصدر من جهتين : من الله ﷻ ومن الشيطان ، فإن سعى إلى مراقبة أفكاره بإغلاق جهة الشيطان ، ورفض خواطر السوء ، فقد فسح المجال للخواطر الرحمانيّة وهيّأ نفسه لقبولها ، وبذلك سيحصل له الاستعداد لقبول الحقّ ، وقد حضّ الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام على هذا وأولوه أهمّيّة بالغة ، قال الإمام الصادق عليه السلام : «**اجْتَمَعَ الْحَوَارِيُّونَ إِلَى عِيسَىٰ عليه السلام فَقَالُوا لَهُ: يَا مُعَلِّمَ الْخَيْرِ ، أَرْشِدْنَا ؟ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ مُوسَىٰ كَلِيمَ اللهِ عليه السلام أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَحْلِفُوا بِاللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كَاذِبِينَ ، وَأَنَا آمُرُكُمْ أَنْ لَا تَحْلِفُوا بِاللهِ كَاذِبِينَ وَلَا صَادِقِينَ.**

قَالُوا: يَا رُوحَ اللهِ ، زِدْنَا ؟ فَقَالَ: إِنَّ مُوسَىٰ نَبِيَّ اللهِ عليه السلام أَمَرَكُمْ أَنْ لَا تَزْنُوا ، وَأَنَا آمُرُكُمْ أَنْ لَا تُحَدِّثُوا أَنْفُسَكُمْ بِالزِّنَا ، فَضْلاً عَنْ أَنْ تَزْنُوا ، فَإِنَّ مَنْ حَدَّثَ نَفْسَهُ بِالزِّنَا كَانَ كَمَنْ أَوْقَدَ فِي بَيْتٍ مُزَوَّقٍ ، فَأَفْسَدَ التَّزَاوِيقَ الدُّخَانُ وَإِنْ لَمْ يَحْتَرِقِ الْبَيْتُ»(٢).

ويؤيّد هذا الكلام بالتجارب ، فعلماء النفس أجروا تجربة جميلة على بعض المظاهر السلوكيّة التي تحدث للإنسان ، ومن ضمنها أنّ شخصاً كان لديه خادمة كان يريد أن يختبر أمانتها ، فخبّأ مبلغاً من المال في مكان لا يدخل فيه إلّا الخادمة لتنظيفه ، وبقي المال في مكانه والخادمة تراه يوميّاً ، وبعد أن طالت المدّة ، وسوس الشيطان لها في أحد الأيّام بأنّ المال قد نُسي ويُمكنكِ أخذه.

إنّ الشيطان يداوم على الوسوسة للإنسان ، فإن استشعر الإنسان وجود الله وعلمه بما يدور في خلده ، فقد أبعد عنه الرذيلة والسوء ، واقترب نحو الخير والفضيلة ، وفي الآية الكريمة إلفات الإنسان وتوجيهه إلى إحاطة علم الله ﷻ بدقائق الأُمور

---

(١) طه ٢٠: ١١١.

(٢) بحار الأنوار: ١٤: ٣٣١.

ليحصل على مصدر لإلهامه الخير والفضيلة ، ويتحرّك بنحو طبيعيّ ليتدرّج في مدارج الكمال باستشعاره إحاطة الله ﷻ به وعلمه بما في ضميره .

آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

الآية الكريمة تأمر بالإيمان والإنفاق ؛ ذلك أنّ الإيمان بالله تعالى هو الأساس للقيم والمكارم ، ولهذا فإنّ الأمر بالإنفاق كأنّه رُتّب على الإيمان ، ومن الواضح هنا أنّ الخطاب يعمّ المؤمنين وغيرهم ، ويراد بخطاب المؤمنين أن يعلموا بأنّ الإيمان هو القاعدة الصلبة لكلّ عمل طيّب ، ولا بدّ للمؤمن أن يلتفت إلى أهمّيّة ترسيخ وزيادة إيمانه ليكون عمله الصالح ، ومنه الإنفاق ذا أثر مبارك ، خصوصاً في عالم الآخرة ؛ إذ أنّ الأعمال لا قيمة لها إلّا بالإيمان بالله تعالى ، قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُوراً**﴾(١) .

وهنا أمران هامّان :

الأوّل: الأمر بالإيمان بالله والرسول ﷺ .

والثاني: الأمر بالإنفاق من المال ، غير أنّ الأمرين يختلفان ، فالأمر بالإيمان بالله تعالى والرسول هو أمر إرشاديّ يرشد إلى حكم العقل بوجوب الإيمان بالله ﷻ والإيمان برسوله ، ومعنى ذلك أنّ الإيمان بالله تعالى والرسول من مقتضيات الفطرة ، فلا حاجة إلى الأمر المولويّ بهما لوضوح ذلك ﴿**أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾(٢) ، أمّا الأمر بالإنفاق في سبيل الله تعالى : ﴿**وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم**

---

(١) الفرقان ٢٥ : ٢٣.

(٢) إبراهيم ١٤ : ١٠.

مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾ فهو أمر مولويّ ، وإنفاق المال في المكارم حضّ عليه القرآن الكريم ، ففيه آيات كثر تحثّ على الإنفاق وتبيّن أهمّيّته ، والآية إحدى الآيات الدالّة على أهمّيّة الإنفاق من خلال تبيان أنّ المال المنفق هو لله تعالى ، وأنّ الإنسان مستخلف عليه لينظر ماذا يعمل به ؟ فقوله تعالى : ﴿**لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ لبيان أنّ جميع ما في السماوات والأرض ملك بالملكيّة الحقّيّة له ، والمنفق ينفق من مال الله تعالى وليس من ملكه وماله ؛ إذ أنّ الحقّ تعالى هو المالك ، غير أنّه خوّل الإنسان بالإنفاق ، وذلك لأنّه تعالى جعل حقّ التصرّف في المال لمالكه وأثابه على إنفاقه بالأجر الكبير ، فمن أنفق المال في سبيله ﷻ وهو مؤمن نال الأجر والسعادة .

إنّ الله ﷻ أمرنا بالإنفاق في سبيله ، وبيّن لنا أنّ المنفقين في سبيله المؤمنين به لهم الأجر الكبير ؛ إذِ الإنفاق ينطلق من الإيمان بالقِيَمِ والمثل والمبادئ التي تحضّ الإنسان على المعروف .

لقد أكّد العلماء أنّ الإنسان المؤمن الذي يُنفق في سبيل الله ﷻ ينفق من مال الله وليس من ملكه ، لمبدأ إسلاميّ هامّ سمّي بمبدأ الملكيّة المحدودة التي سنشرحها من ناحيتين .

الملكيّة في الاقتصاد الرأسماليّ

يركّز الاقتصاد الرأسماليّ على الملكيّة المطلقة للفرد ، طبقاً لثلاثة مبادئ :

١ـ حرية التملّك. ٢ـ حرّيّة الإنفاق. ٣ـ حرّيّة الاستهلاك.

ثلاث حرّيّات يعطيها الاقتصاد الرأسماليّ الحديث للفرد .

الملكيّة في الاقتصاد الإسلاميّ

أمّا في الاقتصاد الإسلاميّ ، فليس للفرد الحرّيّة المطلقة في المال حتّى وإن أضرّ بالآخرين ، له الحقّ في التملّك بـ (ملكيّة محدودة) ، أي أنّ الله ﷻ جعل له حقّ

التملّك ، وجعل الكثير من الأشياء خاضعة لسلطته ، غير أنّ للدولة (السلطة الشرعيّة) تحديد تلك السلطة لئلّا تضرّ بالآخرين ، وليس كما يرى الاقتصاد الرأسماليّ الحديث : بأنّ الإنسان له حرّيّة التملّك بنحو مطلق ما عدا حالات استثنائيّة . إنّ الاقتصاد الإسلاميّ يكفل للفرد حرّيّة التملّك بنحو محدود ، ويجعل له حرّيّة في إنفاق أمواله في الطرق المشروعة والمباحة ، وليس له الحرّيّة المطلقة في ذلك حتّى وإنْ أضرّ بالآخرين ؛ إذْ أنّ (لا ضرر ولا ضرار في الإسلام) مبدأ عامّ ، وحرّيّة الفرد في التصرّف في الحدود التي لا تعود بالضرر على غيره ، وكذلك له حرّيّة الاستهلاك في نطاق معيّن ومحدود .

الملكيّة في الاقتصاد الاشتراكيّ والشيوعيّ

أمّا في الاقتصادين الاشتراكيّ والشيوعيّ فليس للفرد حرّيّة التملّك بنحو مطلق ، لأنّ الأصل في الملكيّة أن تكون للدولة ، هي التي تُشرف على الملكيّة ويستفيد منها الجميع . نعم ، في الاقتصاد الاشتراكيّ يمكن أن تجعل ملكيّة خاصّة للأفراد .

المقارنة بين الأنظمة الاقتصاديّة الثلاثة

أوضح علماء الاقتصاد الإسلاميّ ـ ومنهم الشهيد الصدر ﷺ ـ : أنّ كلا الاقتصادين الرأسماليّ والشيوعيّ ينطلقان من التركيز على النوازع الفرديّة ، بخلاف الاقتصاد الإسلاميّ ، فإنّ التركيز فيه على القيم والمثل والمبادئ التي ينطلق منها الإنسان في العمل .

أي أنّ هناك تداخل بين المصلحتين ـ مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع ـ وتمازج بينهما ، وليس للفرد حرّيّة التملّك وإن أضرّ بالمجتمع كي لا تتكدّس الثروات في أيدي القلّة من الناس فيستعبدون بها ويتحكّمون في الآخرين كما هو حاصل في الاقتصاد الرأسماليّ ، إنّ الاقتصاد الإسلاميّ لا يلغي حقّ الملكيّة الشخصيّ

كما هو الحال في الاقتصاد الاشتراكيّ والشيوعيّ، ولا يعطي حرّيّة مطلقة في التصرّف بالمال بل يتّصف بالوسطيّة، فقد مزج الإسلام بين الاقتصادين، فيرى أنّ الفرد له حقّ التملّك، غير أنّ هذا الحقّ ضمن أُطر وشروط (ملكيّة محدودة) ليُربّي نوازع الخير والفضيلة والرشد، فينطلق الفرد والمجتمع من خلال هذه المبادئ، لتصبّ مصلحة المجتمع في مصلحة الفرد ومصلحة الفرد في المجتمع، وتكتمل السعادة لهما.

ارتباط الإنفاق بالإيمان بالله تعالى

يقرن القرآن الكريم بين الإنفاق والإيمان ﴿**وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾، أي أنّ الإنسان إذا أنفق ولم يكُ مؤمناً فلن يحصل على الأجر الكبير، وإنْ كان إنفاقه سيؤثّر على نفسه فيترسّخ فيها ملكة البذل والعطاء، وسينال مكتسبات اجتماعيّة ومادّيّة ولن يضيع الباري تعالى أجره، قال تعالى: ﴿**أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ**﴾[1]، عمل أي عامل لن يضيع، غير أنّ الأجر الكبير لن يحصل عليه الإنسان إلّا إذا تحقّق أمران:

الأوّل: يرتبط بالجانب العقديّ في الإنسان وهو الإيمان بالله تعالى، وأيّ عمل لم ينطلق من الإيمان بالله تعالى تأثيره ضعيف.

الثاني: أنّ الإنفاق في الخارج إذا اقترن بالإيمان بلسم الجراح، وحقّق للمنفق أعظم الأثر بالإنفاق والإيمان، وحصل المرء على الأجر الكبير.

إنّ بعض الناس يُغطي حُبُّ الأنا على عقولهم، خصوصاً الذين يمتلكون أموالاً طائلة، فيتمنّى المرء أن يمتلك كي ينفق في سبيل الله، ويعمل العمل الصالح،

---

(١) آل عمران ٣: ١٩٥.

غير أنّه بعد أن يمتلك يتحوّل إلى شخص آخر ، ويرى أنّ ما ملكه جاءه من خلال جَهْدِه الذاتيّ ، وعليه أن يحتفظ به ولا ينفقه في سبيل الله ﷻ ، فيمسك عن الإنفاق الواجب فضلاً عن المستحبّ ، إنّ الإنفاق الواجب الذي جعله الله ﷻ على الإنسان من زكاة وخمس وكفّارات وجبت على الإنسان لارتكابه بعض المحظورات ، والإنفاق المستحبّ ببذل المال للفقراء والمعوزين يحقّقان للمجتمع درجة عالية من الرفاه الاجتماعيّ ، فمن أنفق بالإنفاق الواجب أسهم في جعله المجتمع مكفولاً بكلّ أفراده ، فنظام الكفالة في الإسلام للمعوزين والفقراء أقوى من نظام ولرفير (***Welfare***) الموجود في الغرب .

الإنفاق بين الواجب والمستحبّ

إذا أراد المجتمع أن يعيش الرفاهية والتقدّم المطّرد بين فئاته فعليه أن يسهم في الإنفاق الواجب والمستحبّ ؛ ذلك أنّ الإنفاق الواجب يحقّق للإنسان الحدّ الأدنى في المأكل والمشرب والمسكن ، أمّا الإنفاق المستحبّ فيحقق للإنسان التقدّم في سبل الحياة المختلفة ويتيح له أن يسير في طرقها المتعدّدة لوجود الدعم ، وما تحقّق من تقدّم للإنسانيّة في العصر الحديث رهن هيئات ومنظّمات أسهمت في جمع الأموال وإرسالها إلى الشعوب الفقيرة كمنح دراسيّة يستفاد منها في المجالات العلميّة والعمليّة ، ومعونات لمعالجة الأمراض المستعصية في الدول الفقيرة ، وما إلى ذلك من أُمور ، وهذه الإنجازات الاجتماعيّة لهذه المنظّمات الإنسانيّة تسهم فيها بعض الدول والحكومات ، بالإضافة إلى ما يتبرّع به بعض الرأسماليّين الكبار من أصحاب الثروات لأجل الشهرة .

مفهوم المصلحة في الإسلام

إنّ الإسلام دين حياة وذلك أنّ مصلحة كلّ واحد من المسلمين في مصلحة أخيه

المسلم ، قال النبيّ ﷺ : « **أنّه لا يؤمن أحدكم حتّى يحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه** »[١] ، أي أنّ الإيمان يدعو الإنسان إلى مبدأ التكافل الاجتماعيّ الموجب للتقدّم في سبل الحياة المختلفة ، والمؤمن يريد لإخوانه المؤمنين أن يتقدّموا ولا يريد أن يستغلّهم ويتقدّم على جهدهم وجماجمهم ، ويمنعهم من التقدّم ، وهنا نحضّ أصحاب الثروات الكبيرة الذين أُتيح لأبنائهم فرصة الالتحاق بالدراسات العُليا ، والسكن في المنازل الراقية ، أن يفكّروا في الأفراد الآخرين من أبناء المجتمع الذين لا يملكون الموارد الماليّة الكافية ، ولا يتاح لهم إكمال التعليم العالي ، فإعطائهم ليتعلّموا من أعظم القربات ، ويندرج في مبدأ التكافل الاجتماعيّ الذي حضّ عليه التشريع الإسلاميّ ، وحتّى لا يصدق عليهم ما قاله عليّ عليه السلام : « **فَما جاعَ فَقِيرٌ إلَّا بِما مُتِّعَ بِهِ غَني** »[٢] أي : هناك تلاقي بين حالات المترفين الذين يتنعّمون دون أن يحسبوا الحساب الصحيح لإخوانهم من الفقراء والمعوزين ، فإنّ تمتعهم بالنِعَم سيكون على حساب إخوانهم الفقراء ، إنّنا نستطيع أن نؤكّد بأنّ كمال الإيمان يتوقّف على التكافل الاجتماعيّ ، ولا يمكن للمجتمع أن يتقدّم إيمانيّاً وبعض أفراده يرزح تحت وطأة الفقر والجوع والمرض ، والبعض الآخر منه يرفل في النعيم ، ويتمتع بملذّات الحياة بما أُتيح له من فرصة ، فإذا أردنا الانسجام مع الفطرة السليمة والتقدّم باطّراد فلا بدّ أن ننطلق في مسارين :

الأوّل : تقوية مبدأ القيم والمبادئ في أنفسنا وذواتنا .

الثاني : العمل بمقتضى قِيَمنا ومبادئنا ، خصوصاً في الجانبين الاقتصاديّ والاجتماعيّ . ففي الجانب الاقتصاديّ ينبغي التركيز على الإنفاق الواجب والمستحبّ الذي يغفل عنه كثير من الناس ، فهناك بعض يؤمن بالله سبحانه وتعالى وبرسوله ﷺ

(١) مسند أحمد بن حنبل : ٣ : ١٧٦ .

(٢) نهج البلاغة : الكلمات القصار .

وبالأئمّة عليهم السلام على المستوى النظريّ، غير أنّه بعيد عن الجانب العمليّ والتطبيقيّ للإسلام، فلا يدفع الحقّ الشرعيّ من خمس وزكاة، ويتهاون في أدائه لأنّه يرى أنّ المال له، ولا يتمكّن أن يدفع جزءً منه.

طريقة القرآن في الحثّ على الإنفاق

سعى القرآن الكريم إلى تغيير التفكير الخاطئ بالتأكيد على أنّ المال ملكٌ لله والإنسان مخوّل في التصرّف فيه، قال تعالى: ﴿**وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللهِ الَّذِي آتَاكُمْ**﴾(١)، والمؤمن لا يؤدّي ما افترضه الله تعالى عليه فقط، وإنّما يجود بسخاء في سبيل تقدّم كلّ فئات المجتمع في التعليم والصحّة والثقافة والفكر، وكلّ الأُمور التي توجب للمجتمع الرقيّ في سبل الحياة، وذلك هو ما ينبغي أن نتوجّه إليه ككلّ وليس كفرد، لله الحمد فإن بعض الأفراد المؤمنين يعمل الخير ويستحقّ المدح، إلّا أنّه لا يمدح من المجتمع ككلّ، لذا ينبغي أن يكون المدح توجّه عامّ في المجتمع، كي يتقدّم على جميع الأصعدة، ولا بدّ أن تتوافر في المجتمع الإرادة الجماعيّة وإرادة الأكثريّة من أفراده، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾(٢).

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

اللطف العامّ والخاصّ

﴿**وَمَا لَكُمْ**﴾ هذا نمط خاصّ من الاستفهام يريد الله تعالى فيه أن يبيّن أنّه لا سبب

---

(١) النور ٢٤: ٣٣.

(٢) الرعد ١٣: ١١.

يدعو إلى عدم الإيمان بالله، بل أنّ السبب للإيمان به تعالى أقوى وذلك لدعوة الرسول صلى الله عليه وآله إلى الإيمان به تعالى بالإضافة إلى دعوة الفطرة ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ**... ﴾، بعد أن بيّن تعالى في الآيات السابقة صفاته والدلائل الدالّة على وجوده من تسبيح كلّ شيء، يبيّن في هذه الآية أنّ فطرة الإنسان ودعوة الأنبياء كفيلان بإثارة الانتباه بعدم وجود السبب لعدم إيمان الإنسان بالله سبحانه وتعالى، والقرآن يؤكّد على نوعين من الدلائل والمنبّهات التي تدلّل على وجوده سبحانه وتعالى، ويلفت انتباه الإنسان إلى الإيمان بوجوده سبحانه وتعالى، والنوعان من الدلائل يعبّر عنهما العلماء باللطف ويقسّمونه إلى قسمين:

اللطف العامّ

وهو الدلائل الموجودة في الكون التي تدلّل على وجوده سبحانه وتعالى، ومن جملتها عقل الإنسان.

اللطف الخاصّ

فبالإضافة إلى اللطف العامّ فهناك نعمة أُخرى هي اللطف الخاصّ، الذي يعني وجود أنبياء ورسل يدعون الإنسان إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والباري يشير إلى أنّه بَعْدَ بيان اللطف العامّ الذي تقدّم في الآيات السابقة تأتي الآية للإشارة إلى اللطف الخاصّ، قال تعالى: ﴿**وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ**﴾، فالرسول صلى الله عليه وآله لطف خاصّ يدعو الإنسان إلى التنبّه للدلائل الموجودة في الكون التي توصل إلى الإيمان بالله تعالى، والدلائل الكونيّة هي اللطف العامّ.

الهدف من بعث الأنبياء والرسل

حتّى يتّضح لنا اللطفان العامّ والخاصّ نبيّن كلاماً لسيّدنا ومولانا أميرالمؤمنين عليه السلام يوضّح فيه فلسفة بعث الرسل والأنبياء قال: «**لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ**

مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ العُقُولِ »[١] ، أي أن الأنبياء والرسل جاءوا لهدف وغاية تتلخّص في أُمور :

الأوّل : المطالبة بأداء ميثاق الفطرة

الفطرة هي مقتضى خلْق الإنسان ، فإنّ خلقه يرتبط بالإيمان بوجود إلـه للكون ، والأنبياء يطالبون الناس بأداء ما يقتضيه ميثاق الفطرة من الإيمان بالله تعالى المتعلّق بالجانب المعرفيّ والفطريّ في الإنسان ، قال تعالى : ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[٢]

الثاني : التذكير بالنعم الإلـهيّة

من جملة الأدلّة الدالّة على وجود الله ﷻ ما سمّاه علماء العقائد بوجوب شكر المنعم ، أي أنّه إذا أنعم شخص بنعمة يجب على المنعَم عليه أن يشكر المنعم ، ولا يتحقّق الشكر من دون معرفة ، وهذا ما يعنيه العلماء في قولهم : الأوّل المعرفة ومن ثمّ الشكر .

أمّا قوله عليه السلام : « **وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ** » فيبيّن فيه عليه السلام أنّ النعم التي يرفل فيها الإنسان ، وتُغدق عليه ليلاً ونهاراً ، يغفل عنها وتعزب عن ذهنه ، لانشغاله بالأمور الدنيويّة ، من هنا يأتي دور الأنبياء في إثارة انتباه الإنسان للنعم وتذكيره بها ، ثمّ بيّن نقطة هامّة فقال : « **وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ العُقُولِ** » العقول قد تغطّيها الذنوب والأدران والتبعات فلا يستطيع الخلق عندئذٍ إدراك الحقّ ﷻ ، فيبعث الله تعالى الأنبياء ويرسل الرسل كي يثيروا دفائن العقول ، ويزيحوا الرُكام عن العقل الإنسانيّ والتبعات التي تُعرقل مسيرته الفكريّة ، وقد أبان النبيّ ﷺ لبعض الصحابة ذلك

---

(١) نهج البلاغة : ٤٣ (صبحي الصالح) .

(٢) الروم ٣٠ : ٣٠ .

عندما جاء الصحابيّ فقال لرسول الله صلى الله عليه وآله : إذا كنّا عندك فذكّرنا الجنّة والنار حتّى كأنّا رأى عين ، فقمت إلى أهلي وولدي فضحكت ولعبت فذكرت الذي كنّا فيه ، فخرجت فلقيت أبا بكر فقلت : نافقت يا أبا بكر ، قال : وما ذاك ؟ قلت : نكون عند النبيّ صلى الله عليه وآله يذكّرنا الجنة والنار كأنّا رأى عين ، فإذا خرجنا من عنده عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا . فقال أبو بكر : إنّا لنفعل ذلك . فأتيت النبيّ صلى الله عليه وآله ، فذكرت له ذلك فقال : **يا حنظلة ، لو كنتم عند أهليكم كما تكونون عندي لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي الطريق . يا حنظلة ، ساعة وساعة** »[1] ، يُزيل النبيّ صلى الله عليه وآله الركام عن النفوس لساعات محدودة فتستفيد وتتذكّر ، كما قال أمير المؤمنين عليه السلام : « **وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيَّ نِعْمَتِهِ** » ، أي أنّ النِعَم التي ينساها المرء يذكّره بها الأنبياء بأنّها من الله تعالى ، وكلام الإمام عليه السلام جميل رائع ، يشرح فيه الدور العظيم الذي يقوم به الأنبياء .

قوله تعالى : ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ**﴾ أي أنّه حقيق بكم أن تؤمنوا بالله تبارك وتعالى لوجود دلائل العقل وبراهين واضحة بيّنت لكم ذلك ، فكلّ من تأمّل في الكون سيذعن بأنّ الله تبارك وتعالى هو الخالق والمبدع له ، وقدرته تعالى المطلقة التي لا تحدّ بحدّ هي التي أوجدت الكون ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون أوجد نفسه ، بل لا بدّ له من موجد وهو الله تبارك وتعالى ، ومن طرائف القصص العجيبة أنّ ملكاً من الملوك كان له وزير ، وكان الوزير محبوباً عند الملك ، وكان الملك كافراً والوزير مؤمناً ، ولذا كان الملك لا يعيب على وزيره إلّا إيمانه بالله تبارك وتعالى ، وأمّا خصال الوزير كأمانته وخلقه وغير ذلك ، فهي محلّ إعجاب من الملك ، وكان الملك عادلاً رغم كفره ، وكان الوزير محبّاً للملك لعدله ، والملك محبّاً للوزير لأمانته ، وكلّ منهما يريد أن يأخذ الآخر إلى طريقه ، وفي يوم من الأيّام أفصح الملك للوزير بما في نفسه ،

---

(١) كنز العمّال : ١ : ٢٤٣ ، الرقم ١٢٢١ .

وقال له : إنّني معجب بك في كلّ شيء إلّا أنّك ناقص في عقلك .

فقال الوزير : وما هو النقص يا صاحب الجلالة ؟

قال الملك : إيمانك بوجود إله لهذا الكون .

وعندئذٍ سكت الوزير ولم يُجب الملك . وأخذ يفكّر في إيجاد طريقة توصل الملك إلى ما يعتقد به وتغيّر من قناعاته . وكان الوزير ذكيّاً ومبدعاً فبنى قصراً جميلاً في مكان بعيد يرتاده الملك للاستجمام والصيد دون اطّلاع الملك على ذلك ، وفي أحد الأيّام ، قال الملك لوزيره : ما رأيك في أن نخرج للصيد .

فوافق الوزير وقال : لا مانع لدي ، وهناك المكان الجميل الذي ترتاده ، فاتّفقا وفرح الملك وأمر حاشيته وخدمه بالاستعداد للذهاب إلى الصيد ، فأبعدهم الوزير عن القصر وقضوا وطراً في الصيد حتّى انتهوا منه وشعروا بالتعب ، فوجّههم الوزير إلى ذلك القصر الذي بناه ، وكان مهيّئاً بوسائل الراحة والرفاهية ، وأُعجب الملك بالقصر إعجاباً كبيراً لأنّه لم يره من قبل ، فقال للوزير : هذا القصر الجميل والأنيق يدلّ على الذوق الرفيع لمن بناه .

فقال الوزير : أيّها الملك ، إنّ هذا القصر لم يقم أحد ببنائه ، بل وُجد هكذا دون بناء .

فاندهش الملك وقال : هذا أمر عجيب ، فقد أرى أنّ عقلك فيه نقص ، بَيْد أنّه تبيّن أن لا عقل لك ، فكيف يوجد قصر جميل بهذا البناء الدقيق دون بنّاء ماهر ؟

قال الوزير : أيّها الملك ،كيف لا تقبل أن يوجد قصر صغير دون بناء أتقنه ، ويقبل عقلك أن يوجد الكون الفسيح بأرضه وسماواته وبحاره وأنهاره وجباله ، التي صمّمت بمنتهى الدقّة والإتقان دون موجد وخالق ؟ !

عند ذلك أذعن الملك لكلام وزيره ورأى أنّه موافق للعقل السليم .

قال تعالى ﴿**وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ**﴾ تأكيد على

النعم الإلهيّة التي منحها الحقّ تعالى للخلق وأنّها داعية للإيمان ﴿لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ﴾، فهو ﷻ الذي سهّل لكم الأمور، وهيّأ الأسباب، وجعل الكون وما فيه يتناسب معكم، فهو المربّي لكم والمنعم عليكم، والآية لم تقل «لتؤمنوا بالله» لهذه الدقيقة التي أشرنا إليها.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، ما هو الميثاق؟

تفسير الميثاق

قال المفسّرون للميثاق معنيان:

الأوّل: أنّ المراد من أخذ الميثاق هو ما حدث في عالم الذرّ، وأنّ على الإنسان أن يؤمن بربه ﷻ، وتبنّى هذه النظريّة جملة من العلماء وفسّروا بها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾(١) أذعن الجميع بربوبيّة الله ﷻ كما ذكر في الآية.

الثاني: أنّ المراد من الميثاق ليس عالم الذرّ، وأنّ قوله تعالى: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ يراد به ما دلّت عليه الدلائل من وجوب الإيمان بالله ﷻ وأنّ على الإنسان أن يرتبط بالحقّ تعالى ويؤمن به، والدلائل العقليّة والفطريّة هي الميثاق بين الله ﷻ والإنسان، وبمقتضى ذلك على الإنسان أن يؤمن بالله ﷻ لهذه الدلائل، والآية تشير إلى أنّ الميثاق هو الدلائل الملزمة بالإيمان، ولا تشير إلى أنّ الميثاق هو عالم الذرّ، بل أنّ بعض العلماء أنكر وجود عَالَم الذرّ.

قال تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، أي إن تمّت الدلائل لديكم، وأصبحت الحجّة واضحة بيّنة، فعليكم أن تؤمنوا؛ لأنّ الإيمان يترتّب على الدلائل والبراهين، وتكون الآية بمثابة أن نقول: افعل هذا الشيء إن كنت فاعلاً، أي إن كنتم تريدون

---

(١) الأعراف ٧: ٧٢.

الإيمان بحقّ وصدق فقد ظهرت الدلائل والحجج التي توجب عليكم أن تؤمنوا، ولا يوجد أي عذر تتذرّعون به في ترك الإيمان.

هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾

قاعدة اللطف

بيّن اللهﷻ في هذه الآية المباركة أنّهﷻ الذي ينزل الوحي القرآنيّ على قلب الرسولﷺ، وهذا من اللطف الخاصّ. قال العلماء: إنّ اللطف الخاصّ هو الذي يُقرّب إلى الطاعة، ويُبّعد عن المعصية، ولا حظّ له في التمكين، ولا يبلغ حدّ الإلجاء.

إيضاح القاعدة

إنّ العرف يحكم بأنّ من أراد أن يتوصّل إلى تحقيق مقصوده، فإنّ عليه أن يفعل أموراً:

الأوّل: أن يُهيّئ الأسباب التي تؤدّي إلى تحقيق ما يقصد، فلو أراد أن يدعو شخصاً إلى مأدبة، وكان يعلم أنّ الشخص له طبع خاصّ، ولا يأتي إلى الوليمة إلّا إذا جاءه الداعي بنفسه لدعوته، أمّا إذا لم يذهب وكلّف شخصاً آخر، أو أرسل رسالة، فلن يأتي لتناول المأدبة، لا بدّ أن يُدعى من قِبَل صاحب الوليمة بنفسه، وإذا لم يقم بنفسه فقد نقض غرضه؛ إذِ الغرض لا يتحقّق إلّا بدعوة ذلك الشخص بنفسه، ونقض الغرض قبيح بنظر العقل؛ لأنّه يتنافى مع الهدف والغاية التي كان يريد أن تتحقّق (إنّ الذهاب إلى ذلك الشخص ودعوته من قبل الداعي بنفسه) يسمّى لُطفاً خاصّاً؛ لأنّه قَرَّبْ ذلك الشخص إلى المجيء وتناول المأدبة.

اتّضح معنى اللطف الخاصّ فهو لم يبلغ حدّ الإلجاء ؛ إذ أنّ دعوة ذلك الشخص لم تكن جبراً وقسراً ، ولم يهدّد بالقتل إذا لم يحضر الدعوة ، وإنّما وجّهت إليه الدعوة بأُسلوب فيه لطف يتناسب مع شخصيّته (لطف خاصّ) .

وأمّا معنى (لا حظّ له في التمكين) أي أنّه ليس كالآلة التي تمكّن صاحبها من الإتيان بالعمل ، فإنّ المدعوّ يستطيع أن يأتي ويتناول الطعام دون هذه الدعوة الخاصّة .

والخلاصة أنّ اللطف الخاصّ يُقرّب إلى الإتيان بالشيء ، ولذا قال العلماء : إنّ بعث الرسل والأنبياء ونصب الأئمّة عليهم السلام لطف خاصّ يُقرّب العبد إلى الطاعة ، ويُبّعده عن المعصية ، ولا حظّ له في التمكين ، ولا يبلغ حدّ الإلجاء .

فائدة اللطف الخاصّ

أوضح سبحانه وتعالى في الآية : ﴿ **هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ** ﴾ ، اللطف الخاصّ الحاصل بتنزيل الوحي على الرسل والأنبياء ، والأثر الذي يحقّقه اللطف على الناس ، وهو اهتداؤهم إلى الخير والطاعة وبعدهم عن المعصية ، وبين ذلك بقوله تعالى : ﴿ **لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ ، فالإنسان في الحياة الدنيا يعيش مجموعة من الظلمات كظلمة الشكّ ، يبقى شاكّاً لا يدري ماذا يعمل ! وخروجه من ظلمة الشكّ إلى نور اليقين يحصل ببركات الوحي الذي نزل على النبيّ صلى الله عليه وآله ، وظلمة الكفر والمعصية ولا يخرج منهما إلى نور الإيمان والطاعة إلّا ببركة النبيّ صلى الله عليه وآله ، قال تعالى : ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** ﴾[١] .

---

(١) البقرة ٢ : ٢٥٧ .

أسباب الرحمة الإلـٰهيّة

الإخراج من الظلمات إلى النور ببركة الوحي، أكّده القرآن الكريم وبيّن أنّ ذلك يتحقّق للرأفة والرحمة من الله قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾، فهو الرؤوف الرحيم بكم، لذا نزل على عبده الآيات البيّنات.

معنى الرؤوف هو الذي هيّأ أسباب الخير للعبد، والرحيم هو الذي يعطف على عبده في الشدّة، فيكشف البلواء والضرّاء، قال تعالى: ﴿**أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ**﴾[١].

والرؤوف والرحيم متقاربان في المعنى، غير أنّ معنى الرؤوف هو مهيّئ الأسباب كي لا يقع العبد في المشقّة والعنت، ومعنى الرحيم أنّه إذا وقع العبد بسوء اختياره في العنت والمشقّة، وسلك طريق المعصية، واتّبع الشيطان، أنقذه وتداركه برحمته، فيُقْبِلُ عليه ويرحمه إذا توجّه الإنسان إليه تعالى، وسعى إلى تهيئة الأسباب الموجبة لقرب الرحمة منه ولنيلها إيّاه، قال تعالى: ﴿**إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٢]، وإذا لم يبتعد الإنسان عن الطريق المؤدّي إلى الرحمة بسلوكه المعصية، وتعريض نفسه لسخط الله سبحانه وتعالى، فإنّه سينال الرحمة لتحقّق أسبابها المتمثّلة في الندم والتوبة النصوح الحاصلة بالندم الحقيقيّ، والعزم الراسخ في عدم الرجوع إلى المعصية والاستغفار، ليكون مشمولاً للطفه سبحانه وتعالى ورحمته الواسعة.

هيّأ الله سبحانه وتعالى للإنسان الوسائل التي تؤدّي به إلى الخير، غير أنّ هناك أسباباً تؤدّي به

---

(١) النمل ٢٧: ٦٢.

(٢) الأعراف ٧: ٦٥.

إلى السقوط ، لكن أسباب الخير أقرب للإنسان من أسباب الشرّ إذا لم يغوه الشيطان بتزيين أسباب الشرّ ، والشيطان ليس له سلطان على الإنسان ، دوره يقتصر على التزيين والإغراء فقط ، وهو أشبه بوسيلة الإعلام والدعاية في العصر الحديث التي ليس لها سلطان على الإنسان ، لكنّه يتأثّر بها باختياره وقصده ، كذلك الشيطان طريقته التزيين والإغراء ، يسوّل للإنسان أنّ الحرام مفيد له ، ويشبع رغباته ويحقّق له اللذّة الحسّيّة ، فيجعل الإنسان يهرول خلف هذا التسويل دون تفكير في شرعيّة العمل الذي قام به ، ودون تفكّر في العواقب الوخيمة التي تنتظره جرّاء اقترافه للحرام ، إلى أن يغلق أبواب الرحمة الإلـهيّة على الإنسان ، رغم وجود الخير الكثير والوسائل المتعدّدة التي يستطيع بها الإنسان أن يتغلّب على الشيطان بمكره وخدعه ، ومن توجّه إلى كرم الله تعالى وعفوه ورحمته الواسعة وتأثير الطاعة غلب الشيطانَ ، قال الإمام الصادق عليه السلام أنّ جدّه زين العابدين عليه السلام كان يقول : **وَيْلٌ لِمَنْ غَلَبَتْ آحَادُهُ أَعْشَارَهُ** .

فقلت له : وكيف هذا ؟ فقال : **أَ مَا سَمِعْتَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا﴾**[1] ، **فَالْحَسَنَةُ الْوَاحِدَةُ إِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْراً ، وَالسَّيِّئَةُ الْوَاحِدَةُ إِذَا عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ وَاحِدَةً ، فَنَعُوذُ بِاللهِ مِمَّنْ يَرْتَكِبُ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ ، وَلَا تَكُونُ لَهُ حَسَنَةٌ وَاحِدَةٌ ، فَتَغْلِبَ حَسَنَاتُهُ سَيِّئَاتِهِ**»[2] ، والرواية توضّح المعنى بإشراق أكثر من غيرها من الروايات ، أي أنّ بعض الناس يستولي عليهم الشيطان فتغلب آحادهم عشراتهم .

وفي رواية أُخرى عن الإمام الباقر عليه السلام : « **مَا مِنْ عَبْدٍ إِلَّا وَفِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ ، فَإِذَا أَذْنَبَ ذَنْباً خَرَجَ فِي النُّكْتَةِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ ، فَإِنْ تَابَ ذَهَبَ تِلْكَ السَّوَادُ ، وَإِنْ تَمَادَىٰ**

---

(١) الأنعام ٦ : ١٦٠ .

(٢) بحار الأنوار : ٦٨ : ٢٤٣ .

فِي الذُّنُوبِ زَادَ ذَلِكَ السَّوَادُ حَتّىٰ يُغَطِّيَ الْبَيَاضَ ، فَإِذَا غَطَّى الْبَيَاضَ لَمْ يَرْجِعْ صَاحِبُهُ إِلَى خَيْرٍ أَبَداً ، وَهُوَ قَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[(١)]»[(٢)]، على الحصيف أن يلتفت إلى هذه النكتة المرتبطة بهذين الاسمين المباركين (الرؤوف والرحيم)، فهو ﷻ رؤوف بالإنسان لكونه هيّأ له أسباب الخير، ورحيم به حال مخالفته وعصيانه إذْ يتداركه بنحو سريع إذا توجّه إليه بالدعاء والتوبة والصدقة والضراعة، فتتداركه الرحمة الإلـٰهيّة التي وسعت كلّ شيء.

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَللهِ مِيرَاثُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

بعد أن حثّ الله ﷻ على الإنفاق في سبيله في الآيتين السابقتين بيّن في هذه الآية أحد الأسباب لعدم الإنفاق لدى الإنسان، ويتمثّل هذا السبب في تصوّر الإنسان بأنّه سيبقى مخلّداً، وأنّ المال يُسهم في خلوده قال تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾[(٣)].

إنّ فكرة الخلود لدى الإنسان حاضرة في كيانه وذاته، ويتشبّث دائماً بالوسائل التي يتراءى له من خلالها أنّه سيخلد، ومن هذه الوسائل امتلاك المال، الكثير

(١) المطفّفين ٨٣: ١٤.

(٢) بحار الأنور: ٧٠: ٣٢٣.

(٣) الهُمزة ١٠٤: ٣.

من الناس يعيشون على هذا الظنّ ، والقرآن أبطل هذه النظرية قال تعالى : ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ ، الله ﷻ لا يرث المال فقط ، بل يرث ما في السماوات والأرض ، وجعل الدنيا فانية مضمحلة وزائلة ، وجميع ما فيها يرجع إليه ويرثه ، قد بيّنّا فيما سبق أنّ الكون بأجمعه من إبداع الباري ﷻ ، هو الذي أوجده لا من شيء ، وسيرجع إليه ﷻ.

وفكرة الخلود في الدنيا غير صحيحة ، فالله ﷻ أوجد الإنسان وغرس في وجوده فكرة الخلود لهدف وغاية ، هي أن يتعلّق الإنسان بعالم الآخرة لا عالم الدنيا ، غير أنّ الإنسان يُخطئ الطريق ويضلّ الهدف ويسير إلى غير ما جُبِلَ عليه فيَقْلِبُ فكرة الخلود من عالم الآخرة إلى الدنيا الزائلة الفانية ، ويربط الخلود بأشياء زائلة ، منها المال الذي يمتلكه.

كلمة المال عندما يرجع إلى أُصولها اللغويّة نجد أنّها ما يُتَمَوَّل ، وقد أُشرب في معناها كما قال أحد البلغاء والأُدباء : المَيَلان ، أي يميل من أُناس إلى آخرين ، فالمال يكون لديك ثمّ ينتقل منك إلى غيرك بطرق متعدّدة كالإرث والبيع والشراء ، وفيه ميلان أُشرِبَ في معناه ، أي أنّ الزوال والاضمحلال والتعدّي إلى الغير من طبيعة المال ، والله تعالى يجيب على سؤال مُقدّر وفكرة متغلغلة لدى الإنسان بأنّ المال هو الغاية التي يسعى إليها ، وينبّهه الحقّ تعالى أنّ المال وسيلة توصله إلى غاية والغاية الحقيقيّة التي من أجلها خلق هي العبادة والمعرفة ، قال تعالى : ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ**﴾(١).

وقد ألفت النبيّ ﷺ في حوار رائع نظر بعض أصحابه حيث قال لهم : أيكُم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟ قالوا : ليس منّا أحد مال وارثه أحب إليه من ماله يا نبي الله ـ أي كُلُنا مالُه أحبُّ إليه من مال وارثه ـ ثمّ قال ﷺ : يقول الله: ابن آدم ملكي ملكي

(١) الذاريات ٥١ : ٥٦.

ومالي مالي، يا مسكين! أين كنت حيث كان الملك ولم تكن؟! وهل لك من مالك إلّا ما أكلت فأفنيت، أو تصدقت فأبقيت؟ إمّا مرحوم به وإمّا معاقب عليه؟ فالمال الذي تملكه هو ما تنفقه في سبيل الله ﷻ، ومال وارثك أو غيرك هو الذي تُبقي عليه محافظاً، هذه معادلة لا يمكن أن يخرج منها أحد أبداً، والناس واهمون فالتاريخ يُحدثنا من زمن النبيّ ﷺ إلى زماننا هذا عن الأكثريّة الساحقة من الناس أنّهم لا يملكون المال بل المال يملكهم، أي أنّ المال والثروة يتصرّفان فيهم، فيكدح المرء للحفاظ على ماله ويحرسه ويُؤذي نفسه بجهد فكره في سبيل الحفاظ عليه حتّى يُرسّخ فكرة الخلود في كيانه بنحو أكبر.

إنّ بعض الناس من المساكين يوصي بعد موته أن يُخرج ورثته الحقوق الشرعيّة من ماله، لأنّه لا يستطيع أن يُخرج الحقوق الشرعيّة في حياته؛ لأنّ حُبَّ المال قد تغلغل في وجوده، وأقليّة من الناس هم الذين يمتلكون المال ولا يملكهم، فيتصرّفون في المال دون أن يُسيطر المال عليهم، ويُؤدّون الحقوق الشرعيّة، ويبذلون المال كلّما دعت الحاجة الاجتماعيّة إليه من أجل بناء مجتمع فاضل، فينالون الذكر الحسن في الدُنيا والآخرة.

إنّ من المؤسف أنّ بعض المتديّنين الذين يُواظبون على أداء الصلاة والصوم جيّداً لا يُؤدّون الحقوق الشرعيّة.

قال بعض العلماء: إنّ الشيطان يُوسوس لبعض الناس في الطهارة والصلاة والصوم والحجّ، فيُكرّر الأعمال العباديّة أكثر من مرّة حتّى يطمئنّ بأدائها صحيحة، بينما لا يوسوس له الشيطان في إخراج الحقّ الشرعيّ في حالة الشكّ، بل يسعى الشيطان لمنعه من أدائه بجعله أكثر تعلّقاً بالمال.

أصناف الإنفاق

صنّف القرآن الكريم بعض أنماط الإنفاق الذي يُؤدّيه الناس إلى صنفين:

الأوّل: الإنفاق في الشدّة

يُنفق بعض الناس في سبيل الله تعالى في وقت الكرب والشدّة والعسر، وإذا أُصيب المجتمع بوباء واحتاج إلى معونات طبيّة ووقاية فهو من أوائل الناس الذين ينفقون أموالهم، وكثير من الناس يتوانى في بذل المساعدة لغيره، بينما قِلّة من الناس يُقدّمون أموالهم، وأعزّ ما يملكونه وقت الكرب والمحن، فإذا داهم العدوّ البلاد واحتاج من يقاومه إلى المال دعم المجاهدين، وأنفق في سبيل الله تعالى لإنقاذ البلاد والعباد مؤمناً مخلصاً، وبهذا يستطيع أن يختبر الإنسان نفسه في أوقات الشدّة والحرج، فهي بمثابة امتحان لطبيعة إيمان الإنسان ومغالبته لنفسه، والانتصار على الحرص، ببذل المال لحاجات المجتمع، وينظر المنفق إلى المجاهد المضحّي بأغلى ما يملكه بنفسه، فيرى أنّ واجبه التضحية الماديّة كي لا يتأثّر المجاهدون في سبيل الله تعالى، إنّ إسهام الفرد يخفّف العبء المالي الثقيل، خصوصاً إذا تكفّل بذلك جمع من الناس المخلصين، ويمكن أن يدعم من لا يجد المال بالعمل والمساعدة فإنّ حاجات المجاهد لا ترتبط بشخصه، بل بأفراد أُسرته الذين فقدوا المعيل والقائم بشؤونهم.

الثاني: الإنفاق في الرخاء فقط

أشار القرآن الكريم إلى صنف آخر من الناس لا يُنفق على المجتمع، ولا يُساعده وقت الحاجة والشدّة، ويُنفق في وقت الرخاء فقط، فإذا كان المجتمع في حاجة ماسّة للإنفاق أمسك، هذا الصنف من الناس لا يتحقّق من إنفاقه الفائدة المرجوّة.

والتقسيم بمثابة اختبار يستطيع المرء أن يصنّف نفسه فيرى من أيّ الصنفين هو وأن يزِنَ أعماله بطريقة صحيحة، إنّ الإنسان قد تمرّ عليه في حياته كربة أو شدّة ـ خصوصاً إذا كان يسافر وينتقل من مكان إلى آخر ـ فيتذكّر أنّه في تلك السنة مرّت عليه الكُربة أو الشدّة، وكان بحاجة إلى الإنفاق وبذل ما يملك،

ولكنّه أمسك في وقت كان المجتمع بحاجة إلى إنفاقه وبذله ، ولا فائدة من عطائه وإنفاقه بعد زوال الشّدة والضائقة ، بخلاف الآخرين الذين بذلوا وأعطوا وساعدوا المجتمع كي لا يتعرّض إلى إخفاقات ، ولا يُمكن أن يتساوى من بادر وأعطى في الشدّة مع الآخر الذي أعطى بعد زوالها ، والله ﷻ لا يُساوي بين الصنفين ؛ لأنّ من أعطى وأنفق هو الذي استحقّ التكريم والشكر على مواقفه المُشرِّفة ، وقد انقسم الناس في إنفاقهم إلى صنفين :

الأوّل: من يتعامل بمرونة وأخلاق عالية ، ويُساعد الآخرين إذا كانت أوضاعهم الماديّة جيّدة ، أي في حالة رخاء ، كي يتمكّن من الاستفادة والانتفاع في منصبه الاجتماعيّ أو وضعه الماديّ .

الثاني: من اتّصف بأخلاق حسنة وسلوك راقٍ في التعامل مع الآخرين ، بغض النظر عن مستواهم الماديّ أو الاجتماعيّ ، فإذا رأى فقيراً أو محتاجاً لا يتأخّر في المبادرة إلى إعطائه ومساعدته ، ورفع مستواه الماديّ ، حتّى إذا لم ينتفع ماديّاً من إعطائه ؛ لأنّه يعلم أنّ الجزاء الحقيقيّ في الآخرة وليس في الدنيا ، لذا فإنّ العطاء القليل في ساعات العُسر تأثيره أكبر وأعظم من العطاء الكثير في الرخاء ، قال تعالى : ﴿**لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ**﴾ .

المقصود من الفتح في الآية

فسّر الفتح في الآية بتفسيرين :

الأوّل: أنّ المراد منه هو فتح مكّة أو صلح الحديبية ، عندما جاء المسلمون إلى مكّة ولم يدخلوها وأبرموا صلحاً مع المشركين ، وقد عبّر القرآن الكريم عن الصلح بأنّه فتح ، قال تعالى : ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً**﴾[١] ، وتحدّث القرآن عن الإنفاق

(١) الفتح ٤٨ : ١ .

قبل الفتح يُشير إلى المؤمنين الذين قدّموا أموالهم للجيش الإسلاميّ وأعدّوه عسكريّاً وجهّزوه بالأسلحة، وقاموا بالإنفاق على عوائل المجاهدين الباقين في المدينة المنوّرة، وبعد أن أُبْرِمَ الصلح وتمّت المعاهدة بين المسلمين والمشركين أراد بعض المسلمين أن يُنفق ويُعطي كي يُكفّر عن إمساكه قبل الفتح (فتح مكّة أو صلح الحديبية).

الثاني: أنّ المراد بالفتح هو الفتح بنحو مطلق، سواءً كان في حربٍ أو في شدّة، وهذا الرأي لعلّه الأقرب إلى الآية، والمعنى يُمكن فهمه من سياق الآية وإطلاقها.

الإنفاق قبل الفتح وبعده

تؤكّد الآية على وجود إنفاق قبل الفتح وبعده، وللإنفاق درجات ومراتب ترتبط بنيّة الإنسان وخلوص النيّة، فتختلف نيّة المُنفق في الرخاء عن المُنفق في الشدّة، ويرجع ذلك إلى الهدف والغاية من الإنفاق، هل أنّه كان بدافع شخصيّ أم أنّه بدافع إلهي وإخلاص تامّ لله تعالى دون شائبة تُؤثّر على الإخلاص؟! قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذىً لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِم وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[١] إبراز لأهمّيّة الإخلاص لله تعالى في الإنفاق في سبيله.

مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١)

ماذا يعني القرض؟

الآية من جملة الآيات التي تحضّ الإنسان على الإنفاق والعطاء في سبيل

(١) البقرة ٢: ٢٦٢.

الله ﷻ، وأوّل ما يستوقفنا في الآية معنى القرض، القرض في اللغة: هو ما يعطيه الإنسان لآخر ليؤدّيه الآخر إليه بعد حين، وأصله لغة من القطع، فكأنّ المقرض يقتطع جزءاً من ماله ليعطيه للغير على أن يُرجع ذلك المال إليه. إذن القرض في اللغة معناه: القطعة والجزء من المال الذي يعطيه الإنسان لآخر على أن يُرجعه الآخر لينضمّ بعد ذلك إلى أصل المال.

إنّ الله ﷻ بعد أن أغدق على الإنسان النعم المتعدّدة، جعلها ملكاً للإنسان؛ إذ أنّ كُلّ شيء بيد الإنسان ليس مِلكاً له، بل هو مُلكٌ لله ﷻ بالملكيّة الحقيقيّة، غير أنّ الله كرّم الإنسان بجعله مالكاً لما بيده ملكيّة اعتباريّة قابلة للانتقال والزوال، والله ﷻ هو المالك الحقيقيّ ويطلب من الإنسان أن يُقرضه بأن يقتطع جزءاً من ماله ليعطيه للباري ﷻ، قال تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾.

والمقصود من المضاعفة في الآية: ﴿**فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ الزيادة على المقدار إمّا بمثله أو أمثاله، كأنّ الذي يقترض يُرجع مِثلُ المال أو أكثر.

والآية تفتح لنا الطريق للبحث في نقاط هامّة:

النقطة الأُولى: فكرة خلود المال

كثير من الناس لديه شبهة في ذهنه ناشئة ممّا أشرنا إليه في الآية السابقة من تغلغل فكرة الخلود في نفسه، وظنّه أنّ المال يُخَلّده، وعند ذلك يصعب عليه إنفاق المال، قال تعالى: ﴿**يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ**﴾(١)، ويحاول أنّ يُبرر هذه الشبهة بافتعال دليل يُثبت دعواه ويُصحّح فعله، فيقول: إنّ الله هو المالك للسماوات والأرض، فلماذا يقترض منّي ما أملكه مع أنّه هو المالك لكلّ شيء، وبيده

---

(١) الهُمزة ١٠٤: ٣.

كلّ شيء، فلم لا يعطي من ملكه ؟

والله تعالى يشجب هؤلاء الناس قال تعالى: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَوْ يَشَاءُ اللهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾(١)، هذه الطريقة من التفكير غير سديدة ومجانبة للصواب؛ إذ منطق هؤلاء أنّ الله تعالى لو شاء أن يعطي الفقراء والمعوزين لأعطاهم بنفسه ولم يعطنا المال، فإذا أعطانا إيّاه فهو مُلكٌ لنا نحتفظ به لأنفسنا، وقد ورد عن إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام شجب هذا التفكير في إيضاح قوله تعالى: ﴿**إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ**﴾(٢)، وإيضاح قوله تعالى: ﴿**مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾، قال عليه السلام: «**فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزائِنُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، وَإِنَّما أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**»(٣).

وهو عليه السلام يشير إلى الشبهة التي طرحها بعض، وهي أنّ الله تعالى له جنود السماوات والأرض، فلماذا يطلب منّا النصر وهو تعالى قادر على أن يهلك الأعداء الذين يفعلون المنكر والبغي، ويقتلون الأنبياء والأولياء، فلماذا يأمرنا الله تعالى بالجهاد في سبيله ؟ والله تعالى عنده خزائن السماوات والأرض فلماذا يستقرضنا ويطلب أن نُعطي في سبيله ؟

فيجيب الإمام عليه السلام عن الشبهة بقوله: «**فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ**» أي أنّه تعالى ليس بذليلٍ وضعيف حتّى يطلب منكم النُصرة، «**وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ**» فليس

---

(١) يس ٣٦: ٤٧.

(٢) محمّد صلى الله عليه وآله ٤٧: ٧.

(٣) نهج البلاغة: من خطبة له عليه السلام في قدرة الله، وفي فضل القرآن، وفي الوصيّة بالتقوى.

بمحتاج لأموالكم لقلّة أمواله فيطلب منكم العطاء والإنفاق، ولكن السبب «**أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**»؛ إذ «**اسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزائِنُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**».

إذن المسألة هي ابتلاء وامتحان للإنسان، الفقير قدّر الله تعالى عليه الفقر في الدنيا ليمتحن بذلك أيصبر أو يتعدّى على القوانين؟ والغني يسّر الله تعالى له سبيل تحصيل الرزق الوفير ليبتلى أيُؤدّي الحقوق الماليّة أم لا؟

غير أنّ بعض الأغنياء ـ وللأسف ـ يخزن المال كالجرذان فهي تُخزن الأطعمة دون أن تستفيد منها، وكذا الإنسان الذي يُخزن المال ويجمعه ثمّ يُفارقه ويتركه لغيره، فهو لم يستفد الاستفادة المطلوبة لتعود فائدتها عليه في الدنيا والآخرة.

النقطة الثانية: مواصفات القرض الحسن

أبان المحقّق الطبرسيّ ـ صاحب تفسير مجمع البيان ـ أنّ للقرض الحسن مواصفات عشرة:

الأُولى: حلّيّة المال

المال الذي يُعطى ويُؤدّى لله تعالى لا بدّ أن يكون آتٍ من حلال وبطرق مشروعة، وهذه نقطة يؤكّد عليها في فكر أهل البيت عليهم السلام؛ إذ أنّ بعض الذين لا يتّبعون أهل البيت عليهم السلام يهتمّ بجمع المال من دون مراعاة للطريق في تحصيله من طريق مشروع، ويتعدّى على المحرم، ثمّ يُنفق بعضه في سبيل الله تعالى، يبني مسجداً ويتصدّق ويشارك في أعمال البرّ والخير، غير أنّ ذلك لن يفيده؛ لأن الله تعالى يُريد من الإنسان أن يكتسب المال من حلال ويُنفقه في الحلال، قال صلى الله عليه وآله: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتّىٰ يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ** ـ منها ـ: **وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَا أَنْفَقَهُ؟**»[1].

---

(١) أمالي الصدوق: ٩٣. الخصال: ٢٥٣.

ذلك أنّ حلّيّة المال تُؤثّر تأثيراً بالغاً على نفسية الإنسان وأخلاقه ونسله وأعماله التي تبقى، والمال الذي يكسبه المرء من حرام ثمّ يُنفقه في وجوه الخير لا فائدة فيه، بل يُؤثم ويُحاسب الإنسان عليه لأنّه تصرّف في مال لا يملكه، وقد ذكرتُ قصّة حدثت للإمام الصادق عليه السلام عندما كان يراقب تصرّفات شخصٍ يدّعي الزهد والإعراض عن الطيّبات، وكان يريد الذهاب إلى الحجّ، فرآه الإمام عليه السلام يمرّ على خبّاز ويسرق قرصين من الخبز، ثمّ يتصدّق بأحدهما، ويأكل نصف القرص الآخر داعياً شخصاً آخر ليأكل معه النصف، فذهب الإمام عليه السلام إليه وأخذ يتحدّث معه، ثمّ قال عليه السلام: رأيت منك اليوم عجباً، فقد أخذت قرصين من الخبّاز من دون علمه وعملت كذا وكذا، فذكر عليه السلام له ما شاهده منه.

قال الرجل: من أنت، وما اسمك؟ قال عليه السلام: جعفر بن محمّد الصادق ابن رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال الرجل: وما ينفعك نسبك من رسول الله إن كنت لا تفقه في الدين. قال عليه السلام: كيف لا أفقه في الدين؟

قال الرجل: ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿**مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلاَ يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا**﴾(١)؟

قال الإمام عليه السلام: بلى.

قال الرجل: أخذت قرصين بسيّئتين، وتصدّقت بقرص واحد بعشر حسنات فزالت السيّئتان، وبقيت ثمان، أمّا القرص الثاني فقد دعوت شخصاً آخر وأكل نصفه، فهذه خمس حسنات بالإضافة إلى الثمان الأُولى فأصبح عدد الحسنات ثلاثة عشر حسنة.

قال الإمام عليه السلام: ليس لك حسنات، وإنّما حملت على ظهرك سيّئات، إذْ أخذت

---

(١) الأنعام ٦: ١٦٠.

المال بالحرام سرقةً، وأنفقته دون إذن صاحبه، فإنفاقك المال الحرام غير جائز[١].

إنّ بعض من ينفق بهذه الطريقة المحرّمة، لا يختلف عمّن يكسب المال بالحرام وينفقه في الحرام، إلّا أنّ الطريقة الأُولى أقلّ حرمة وعقاباً لكونها أنفقت في الحلال، ومن أنفق المال الحرام في الحلال عقابه أقلّ، فإذا كان عقابه في الدرجة السابعة من جهنّم، خفّف الله تعالى عليه وجعله في الدرجة السادسة، أي أنّ عقابه أقلّ من الشخص الذي أنفق أمواله في الحرام؛ لأنّ العقاب سيكون مضاعفاً وأشدّ إيلاماً.

الثانية: أن يكون المال من أفضل ما يملك

إنّ على المنفق أن ينفق من أكرم ما يملكه، لأنّ ما يملكه متفاوت بعضُه أدنى من بعض، وبعضه أفضل من بعضه الآخر، فإذا أراد أن ينفق عليه أن يختار أكرم أمواله، ولا يُنفق الرديء من التمر، قال تعالى: ﴿**وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ**﴾[٢]، وقال صلى الله عليه وآله: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ وَلَا يَقْبَلُ إِلّا الطَّيِّبَ**»[٣].

الثالثة: الإنفاق في حال الصحّة والسلامة

وعلى المنفق أن يتصدّق في حال صحّته؛ إذ أنّ بعض الناس يوصي بالإنفاق عنه إذا وصل إلى أرذل العمر، ولم يكن بينه وبين القبر إلّا خطوات معدودة، وقد يكون في حالة لا يستطيع فيها الحركة فيقول: تصدّقوا عنّي وأنفقوا في وجوه البرّ! بيّن صلى الله عليه وآله عندما سُئل أي الصدقة أفضل؟ **أَنْ تَتَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَأْمُلُ الْبَقَاءَ، وَتَخَافُ الْفَقْرَ**»[٤]، أي تحبّ المال وتريد أن تتمسّك به،

---

(١) راجع معاني الأخبار: ٣٤.

(٢) البقرة ٢: ٢٦٧.

(٣) عوالي اللئالي: ٢: ٧١.

(٤) بحار الأنوار: ٩٣: ١٨٢.

فمن قال: لا أتصدّق، لأنّ الدنيا قد تتغيّر فأحتاج للمال الذي تصدّقت به، فقوله دالّ على بخله، قال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ قَتُوراً﴾(١)، أي بخيلاً، وقد عالج القرآن إشكاليّة الإمساك عن الإنفاق بالتأكيد على إعطاء العوض عن كلّ ما يتصدّق به في سبيل الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾(٢)، إنّ بعض من لا يتصدّق في حياته ويُوصي بالصدقة إذا مات، يشبه ما حدث في عهد النبيّ ﷺ، حيث أنّ رجلاً غنيّاً في المدينة لم يستطع أن يُنفق في حياته شيئاً، فأوصى لرسول الله ﷺ بالإنفاق عنه بعد موته بأن يُنفق النبيّ ﷺ أمواله كلّها في سبيل الله، ولم يكن لديه عيال ترثه، فأخذ النبيّ ﷺ المال وأنفقه على الفقراء، فمدح الرجل وقيل: إنّه عمل خيراً كثيراً، فتبسّم النبيّ ﷺ ثمّ أخذ تمرة فقسمها نصفين وقال ﷺ: لو أعطى نصف هذه التمرة في حياته لكان أفضل من إنفاق هذه الأموال بعد موته؛ لأنّ الصدقة في حياته باختياره التامّ ورغبته، وأمّا بعد موته فهو ليس بحاجة إلى المال ولا يستطيع الاستفادة منه، والله تعالى يريد أن يبتلي الإنسان بأمواله ليرى صموده أمام غريزة حبّ التملّك والحرص الشديد على المال، وهل أنّ المال يملكه أم يملك هو المال؟

الرابعة: دفع الصدقة للأكثراحتياجاً

أن يضع صدقته في المحلّ الأشدّ احتياجاً، وهذه مسألة هامّة في حالة تعدّد المشاريع الخيريّة، وعليه أن يقدّم الأفضل منها.

فإذا كان هناك مجموعة من المشاريع الخيريّة أحدها للفقراء والثاني للتعليم والثالث للصحّة أو للثقافة والفكر، فالأولويّة ينبغي أن تكون للمشروع الذي يحتاج

---

(١) الإسراء ١٧: ١٠٠.

(٢) سبأ ٣٤: ٣٩.

إليه المجتمع ، وفي مثل هذا الوقت نجد مجتمعنا بحاجة ماسّة إلى الكتاب الثقافيّ الذي يرفع مستواه الفكريّ ، وعلى المنفق أن يبذل أمواله في هذا الطريق لدعم تأليف الكتاب وطبعه ونشره ؛ ذلك أنّ نشر الكلمة الهادفة والعقيدة الصحيحة من الأولويات التي ينبغي ملاحظتها في الإنفاق ، للأسف فإنّ قسماً من الناس لا ينفق إلّا على الفقراء فقط ، ويترك الإنفاق في الجهات الأُخرى التي تحقّق تقُدّماً مطّرداً للمجتمع ، كطبع التراث العلميّ لعلمائنا الماضين ، هناك تراث علميّ كبير من الكتب المطمورة في طيّ النسيان ، يحتاج إلى تصدٍّ من المؤمنين المتمكّنين مادّيّاً . إنّ طبع الكتب وإحياء التراث وتثقيف المجتمع يرفع من شأنهم ويتاح للآخرين أن يتعرّفوا على ما لدينا من فكر وتراث أصيل .

الخامسة : إخفاء الصدقة

بعض الأشخاص من أصحاب الأموال إذا طلب منه مساعدة لمشروع خيريّ أو لأرحامه وأقاربه يُعطي بسخاء إذا كان بمرأى ومسمع من الآخرين ، أمّا إذا ذهبت إليه وحدك فيُعطيك قليلاً ، قد تخجل من أخذه ، وقد لا يُعطيك شيئاً وترجع بخفّي حُنين ، من هنا ينبغي أن يكون الباعث على الإنفاق هو الله تعالى لا الناس ولا الجاه والشهرة ، قال تعالى : ﴿**إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ**﴾(١) الصدقة إذا كانت لله تعالى فإبداؤها قد يكون جيّداً في بعض الأحيان غير أنّ الأفضل إخفاؤها .

السادسة : عدم المنّة في الإنفاق

على المنفق أن لا يُتبع ما ينفقه بالمنّ والأذى ، البعض إذا أعطى الفقير وساعده ومن ثمّ أصبح الفقير شخصيّة اجتماعيّة مرموقة نجد أنّ من أعطاه يمنّ عليه في

(١) البقرة ٢: ٢٧١.

كلّ مناسبة وفرصة بما أعطاه، ويُكرّر أنّه صاحب فضل عليه، ولولا إعطاؤه له لم يصل إلى ما وصل إليه، والله ﷻ يريد عزّة للمؤمن وكرامة، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ**﴾[١]، للإنسان كرامة عند الله عزّ وجلّ، ولا يرضى الحقّ تعالى بإهانته بكلمة واحدة، والأموال التي أعطاها المنفق لا تساوي الكلمة التي تُسيء له بالمنّ عليه، وقد ورد عن النبيّ ﷺ في الحديث القدسيّ: «**مَنْ أَهَانَ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ فَقَدِ اسْتَقْبَلَنِي بِالْمُحَارَبَةِ**»[٢]، وأثنى القرآن الكريم على الذين ينفقون دون منٍّ ولا أذىً قال تعالى: ﴿**لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنّاً وَلَا أَذىً**﴾[٣].

السابعة: الإخلاص في الصدقة

الإنفاق لوجه الله ﷻ من أهم ما ينبغي أن يلتفت إليه، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً**﴾[٤]، هذا طريق عليّ وآل عليّ عليهم السلام في الإنفاق، وفيه درس كبير ينبغي أن نستفيده ليكون الإنفاق لله وحده دون أن يقترن بأهداف ومصالح شخصيّة؛ لأنّ الصدقة تمثّل الخلود والبقاء عند الله ﷻ، ونزول ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ**﴾[٥] كان بعد الصدقة، والآية فضيلة عظيمة للإمام عليه السلام لخصوصيّة نيّة القربى لله تعالى، فقد جاءت بإخلاص لم يتحقّق لبقيّة المتصدّقين، ويظهر ذلك من خلال المقارنة بين عليّ عليه السلام وغيره، فقد قال غيره: تصدّقت في بيت الله بسبعين خاتم في الصلاة ولم ينزل شيء في ذلك، قد تكون هذه السبعين خاتماً

---

(١) الإسراء ١٧: ٧٠.

(٢) مستدرك الوسائل: ٢: ٩٤.

(٣) البقرة ٢: ٢٦٢.

(٤) الإنسان ٧٦: ٩.

(٥) المائدة ٥: ٥٥.

التي تصدّق بها أغلى من خاتم الإمام أمير المؤمنين عليه السلام ، إذِ المسألة لا تتعلّق بالكمّ ، وإنّما ترتبط بالكيف ونيّة التقرّب ، والإمام عليه السلام عندما تصدّق بالخاتم لم يكن يمتلك غيره ، جاء الفقير وقال : أطعموني واسقوني ، فما استجاب له أحد ، فأشار الإمام بيده وهو في الصلاة فاقترب الفقير منه ، فنزع الخاتم وأخذه ، وامتدح الله سبحانه وتعالى هذه الصدقة كونها لوجهه تعالى وكون الفقير محتاجاً إليها ، قال تعالى : ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ**﴾[1] ، إنّ سمة هؤلاء هي أنّهم يُطعمون الطعام ويعطون الآخرين ويُؤثرونهم على أنفسهم مع حبّهم واحتياجهم للطعام من أجل سدّ جوعهم .

الثامنة : الإنفاق ممّا يُحبه الإنسان

الإنفاق من الأموال التي يُحبّها الإنسان ، بل من أحبِّ ماله إليه غاية في الأهمّيّة ، بعض الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام كان يحبّ بعض أنواع الحلوى ، فيتصدّق بها على الفقراء . وحريّ بنا اغتنام الوقت كشهر رمضان الذي تتوافر فيه الأطعمة الطيّبة ، وبعض الناس يتصدّق بالطعام الزائد من الإفطار على الفقراء ، وهذا عمل حسن وفيه ثواب ، إلّا أنّ الأحسن أن يقوم الشخص بعزل الطعام الذي يحبّه من البداية ثمّ يقدّمه للفقراء فهذا أحسن ، وقد مدح الله تعالى من يفعل ذلك ، قال تعالى : ﴿**لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ**﴾[2] ، فمن أنفق ما يحبّه ويميل إليه سيصل إلى درجات عالية .

التاسعة : استحقار ما يُنفقه

إنّ استقلال ما يتصدّق به ويُعطى فينظر إليه على أنّه قليل لا يساوي شيئاً مقابل النعم الإلهيّة التي أغدق الله بها على المنفق ، غير أنّ بعض الناس يقوم بعمل خيريّ

---

(١) الإنسان ٧٦ : ٨.

(٢) آل عمران ٣ : ٩٢.

كبناء مسجد أو حسينيّة ويفتخر أمام الناس بين فترة وأُخرى مذكّراً بإنجازه، وهذا العمل صغير لا قيمة له إذا نظر إلى النعم المتعدّدة التي أعطاها الله تعالى للمنفق ومنحه إيّاها.

العاشرة: المال لله والإنسان مستخلف عليه

المال الذي بأيدينا هو لله سبحانه وتعالى، فمن أعطى وتصدّق عليه أن يُشعر نفسه أنّ المال لله وليس بملك للمنفق، قال تعالى: ﴿**وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ**﴾. إنّ الله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان على المال وجعله أمانة في يده ليمتحنه في كيفيّة تصرّفه في المال، هل المنفق يراه ملكاً له أو ملكاً لله خوّله التصرّف فيه؟

النقطة الثالثة: الجهة المتصرّفة في القرض الحسن

من الأُمور التي أكّد عليها في الروايات القرض الحسن، فالمنفق يعطي النبيّ والأئمة من أهل البيت عليهم السلام والعطاء على أنماط وأنواع منها القرض الحسن، وقد جعل الله تعالى جميع ما ينفقه الإنسان في سبيله قرضاً حسناً، وأفضل القرض الحسن ما بُذل لنشر العلم والفضيلة، فمن بذل في ذلك وأعطى المال سوف تصبح له مكنة في الإنفاق على الأُمور التي يراها المعصوم أو العالم ضروريّة والإنفاق عليها لازم، هناك روايات وردت عن الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام تبيّن أن من أعلى القربات التي يقدّمها الإنسان في الحياة الدنيا ما يعطيه الإنسان في إيضاح مقام الإمامة الحقّة لأهل البيت عليهم السلام.

وقد أشار الشيخ المكارم وبعض علمائنا أنّ القرض الحسن يستمرّ في هذا الزمان للعلماء الأعلام الذين يمثّلون القيادة الرساليّة الحقّة الهادية لأهل البيت عليهم السلام، والمؤمن إذا أراد أن ينفق عليه أن يُعطي المراجع والعلماء الذين يجسّدون الشريعة

الحقّة بتصرّفاتهم ؛ لأنّ إعطاء هؤلاء يجعل الشريعة تنبض بالحيويّة وتأخذ المَنْحَى السليم والسديد ، فهم بفقههم وعلمهم يعرفون موارد الصرف والأولويّات التي تُقدّم على غيرها ، فإذا كان المعصوم والقائد الربّانيّ يشخّص الأولويّات فكذلك نائب المعصوم عليه السلام ، النوّاب من المراجع العظام والعلماء الأعلام في كلّ عصر ومصر هم من يقدّم لهم المال لإنفاقه في سبيل الله تعالى .

النقطة الرابعة : الآثار الوضعيّة للإنفاق في الدنيا

هناك آثار وضعيّة تتحقّق للمعطي المنفق في الدنيا ، منها الأجر الكريم قال تعالى : ﴿**وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾ ، وقد حمل بعض المفسّرين الأجر الكريم ليس على مضاعفة المال وإنّما على الآثار الوضعيّة الأُخرى المترتّبة على الإنفاق في سبيل الله تعالى ، وهي أُمور :

الأوّل : دفع البلاء عن المُنفقين .

إنّ الله تبارك وتعالى يدفع البلاء عن المُنفقين لأموالهم والمقرضين له تبارك وتعالى فيمتّعهم بالصحّة في أجسادهم وفي عقولهم وأذهانهم ، ويبارك في أعمالهم وفي أعمارهم .

الثاني : البركة في العمر .

قد يعيش اثنان نفس العمر ـ كلّ منهما يعيش ستّين سنة ـ إلّا أنّ عمر أحدهما من حيث البركة أعظم وأكثر لتوفّقه للأعمال الصالحة التي قد لا يوفّق لها من يعيش مائتي سنة ، ويرجع السبب في ذلك إلى الأجر الكريم عند الله تبارك وتعالى فيبارك في عمره ، وفي رزقه ، وفي ولده .

الثالث : أنّ الله يرزقه الولد الصالح .

من يُواظب على الإنفاق في سبيل الله تعالى ويُكثر منه فإنّ الله تبارك وتعالى يرزقه الولد الصالح ، وهذا من الآثار الوضعيّة للإنفاق لله تعالى .

وهناك كثيرٌ من الآثار أشار إليها العلماء تترتّب على الإنفاق، فالأجر الكريم في الآية حمل على الآثار الوضعيّة المتحقّقة على الإنفاق في سبيل الله ﷻ وإقراض الله القرض الحسن.

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾

لا تختصّ الآثار الوضعيّة للإنفاق في سبيل الله بالدنيا، بل تتعدّاها إلى الآخرة، وقد بيّن الله ﷻ بعض آثار القرض الحسن في عوالم الغيب، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**﴾، أي أنّ المنفقين لهم نور يضيء لهم بل ولغيرهم فأنوارهم تضيء المحشر، ولنورهم جهتان:

الأولى: النور المعنويّ.

قال تعالى: ﴿**يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾، وفيه إشارة إلى النور المعنويّ لذواتهم، وذلك أنّ الإنسان لا ينفق إلّا إذا تكاملت نفسه وسمت عن أُفق عالم المادّة، فأصبح يسيطر على المادّة ويتصرّف فيها، فتكون ذاته نورانيّة رغم وجودها في عالم الدنيا، إلّا أنّه يرى أهل الكشف والشهود في عالم الآخرة وعوالم الغيب فتصبح الدنيا مستضيئة بنوره، ويصبح هو حقيقة ماثلة يراها جميع أهل الآخرة، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ**﴾ والآية مشيرة إلىنور ذواتهم، أمّا قولهتعالى: ﴿**وَبِأَيْمَانِهِم**﴾ فيشير إلى نور الأعمال.

تجسّد الأعمال

قال تعالى: ﴿**وَبِأَيْمَانِهِم**﴾ هذه مسألة هامّة تعرّضت لها الروايات الواردة

عن أهل البيت عليهم السلام وحُققت من العلماء كالسيّد الطباطبائيّ في الميزان، والإمام الخمينيّ قدس سره في الأربعين حديثاً، وكتب أُخرى للعلماء، خصوصاً العرفاء، فقد أكّدوا على هذا المطلب، ويسمّى عندهم بتجسّد الأعمال.

فكلّ عمل صالح يقوم به الإنسان ذكراً لله سبحانه وتعالى له صورة نورانيّة، وزيارة المؤمن تقرّباً لله سبحانه وتعالى لها صورة نورانيّة، والقرض الحسن الذي ينفقه الإنسان في سبيل الله له صورة نورانيّة، وكلّ عمل كذلك، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾(١).

يؤكّد الله سبحانه وتعالى على أنّ العمل الذي يقوم به المرء هو نفسه الجزاء، وعبّر القرآن عن العمل بقوله تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**﴾، هناك نوران: أحدهما لأعمالهم، والآخر لذواتهم النورانيّة، كلاهما يضيئان، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ**﴾(٢)، الكتاب باليمين تكريم لهم، ومعنى أنّ أيمانهم تضيء، أي أنّ كتبهم التي دوّنت تضيئها أعمالهم، فذواتهم النورانيّة تضيء وكذلك أعمالهم.

ذلك أنّ الإنسان تارة يكون صالحاً في ذاته، قال تعالى: ﴿**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾(٣).

وأُخرى يكون صالحاً في عمله، ما يصدر منه من عمل صالح وإنْ كان في ذاته خبث، والإنسان تصدر منه الأعمال الصالحة بالرغم من خبث ذاته، ومن الممكن أن يكون الإنسان له صلاح في ذاته وتصدر منه بعض الأعمال الخبيثة غير الطيّبة فيجازى على أساسها في الآخرة.

---

(١) الطور ٥٢: ١٦. التحريم ٦٦: ٧.

(٢) الحاقّة ٦٩: ١٩. الانشقاق ٨٤: ٧.

(٣) النمل ٢٧: ١٩.

الآثار المعنويّة للإنفاق

من ينفق في سبيل الله ويقرضه ﷻ قرضاً حسناً، يوفّقه الله تعالى. ويُحقّق الإنفاق في سبيل الله أثرين معنويّين هامّين:

الأوّل: صلاح الذات.

الإنفاق في سبيل الله ﷻ يجعل الإنسان (صالحاً ذاتاً)، وبعد أن تصبح ذاته صالحة تضيء، وصلاح الذات له مراتب، على المرء أن يجتهد ليصل إلى أعلى المراتب، فقد حكى الله تعالى أنّ طلب صلاح الذات ديدن الأنبياء، قال تعالى حاكٍ عن نبيّه سليمان عليه السلام: ﴿**وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ**﴾[١].

الثاني: جعل الأعمال صالحة.

الأثر الآخر لعمل المنفق في سبيل الله ﷻ هو تحوّل أعمال الإنسان ببركات إنفاقه إلى أعمال صالحة، وقد نتساءل كيف يتحقّق ذلك؟

في البدء لا بدّ من التنويه أنّ الأعمال التي تصدر من الإنسان ـ كالصلاة والصوم والزكاة والمودّة للمؤمنين وصلة الرحم ـ قد يعتريها بعض النقص، بل قد تتلاشى كما إذا اقترنت بالعجب فإنه يُوجب إحباط العمل، وقد يكون العمل لم يكتمل غير أنّ الإنفاق يحوّله إلى عمل صالح، بل أنّ العمل السيّئ قد ينقلب إلى حسن ببركات الطاعات والحسنات التي تصدر من الطائعين المحسنين، وقد وعد الله تعالى بذلك قال تعالى: ﴿**فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ**﴾[٢]، يؤكّد بعض العلماء من المتخصّصين في الفلسفة والعرفان أنّه لا يعرف حقيقة هذا الوعد الإلهيّ وكيفيّة تبدّل السيّئات إلى حسنات؛ لأنّ عقل الإنسان قاصر لا يستطيع فهم ذلك،

---

(١) النمل ٢٧: ١٩.

(٢) الفرقان ٢٥: ٧٠.

إلّا أنّه هناك مقاييس في عوالم الغيب والآخرة تختلف كلّياً عن مقاييسنا ونظرنا المحدود. فالله ﷻ يبدل عمل الإنسان الناقص لعدم الإخلاص في النيّة أو العجب ويصيّره صالحاً ببركات الإنفاق في سبيله ﷻ، وتصبح أعمال الإنسان مضيئة نيّرة لعطائه في سبيل الله ﷻ، ونلفت الانتباه هنا إلى أنّ ذلك لا يختصّ بالإنفاق، بل يعمّ كلّ عمل صالح يقوم به المرء، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ**﴾، هذه بشارة بالجنّة، وفيها مطلبان هامّان:

الأوّل: إنّ الله ﷻ عبّر عن هذا النور بأنّه: ﴿**يَسْعَىٰ نُورُهُم**﴾، للنور حركة سريعة تصل إلى ثلاثمائة ألف كيلومتراً في الثانية في الوضع الطبيعيّ، وفي الآية هناك زيادة فـ ﴿**يَسْعَىٰ**﴾ دالّة على هذه الزيادة، أي أنّ النور يتحرّك بسرعة أكثر من انتشاره في وضعه الطبيعيّ، ويُومي ذلك أنّ هؤلاء ينتقلون بسرعة من المحشر إلى مقاماتهم المعنويّة، ويصعدون درجاتهم العالية، والكرامات التي أعدّها الله ﷻ لهم، وينظر إليهم النبيّ ﷺ، بل والناس الذين يُعذبون، أي أنّ الجميع يراهم وينظر أنوارهم تشعّ من ذواتهم.

تنبيه:

عندما يُطلق المؤمن في القرآن يشمل المؤمنة أيضاً، وقد ذكر الله ﷻ المؤمنين والمؤمنات مقدّماً للمؤمنين على المؤمنات في الإنفاق، ويعود السبب في ذلك إلى أنّ التقرّب بالإنفاق في سبيل الله تعالى مع كونه لا يختصّ بالرجل دون المرأة، إلّا أنّ الرجل ينفق أكثر، والله تعالى بذكره للمؤمن والمؤمنة أكّد أنّ الإنفاق في سبيله للجميع دون استثناء، المرأة يمكن أن تملك المال عن طريق الإرث أو العمل، وتنفق كالرجال، بل أنّ بعض النساء تتفوّق على الرجال في إنفاقها وبذلها في سبيل الله تعالى، كالسيّدة خديجة عليها السلام. والآثار الوضعيّة تتحقّق للرجال والنساء.

إنّ الله والملائكة يبشّرون المنفقين والمنفقات بالجنّة، قال تعالى: ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

الجنّة في اللغة: هي البستان الذي فيه الأشجار والثمار، وقد توسّع في إطلاقها لغويّاً فأُطلقت على المكان الذي فيه الأشجار والمباني والأرائك، أي المكان الذي تتوافر فيه سبل الراحة والرفاهية من النواحي المادّيّة، وهذا معنى أوسع من المعنى اللغويّ الأصليّ للكلمة، إلّا أنّ الجنّة في عالم الآخرة أخذت معنىً أوسع ففيها ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على خيال بشر، وهذا توسّع في المعنى أكثر من التوسّع السابق، فالجنة فيها أشياء لا عدّ لها ولا حصر، وليست هي أشجار مثمرة ومياه جارية فحسب، أو أُضيف إليها مبانٍ وسرر وأرائك، بل هناك نعم كثيرة يعطيها الله تعالى لأهل الجنّة.

أي أنّ لفظة الجنّة أصبحت أوسع من المعاني السابقة تتضمّن أنواعاً من النعيم والرفاهية لا تخطر على بال أحد، إلّا أنّ هذا النعيم المقيم غير المحدود بفترة زمنيّة، بل أنّ الإنسان يخلد فيه ويأنس به، وهذا ما يحقّق له ما أُودع في جبلته، وما رُكّب فيه من تفكير للخلود بحيث يمسك المال ولا ينفقه من أجل أن يخلد متوهّماً أنّ الحفاظ على المال خلود واستمرار وبقاء، والله ﷻ يصحّح له تصوّره الخاطئ لخلطه بين مفهوم الخلود الدائم الذي لا يكون إلّا في الآخرة، وبالإنفاق في سبيل الله ﷻ، وبين إمساك المال الذي يتصوّر أنّه يخلّده، والبشارة هنا للمنفق من الملائكة بأنواع من الرفاهية والنعيم منها ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ بمكث لا يزول، وتواجد فيها ليس لفترة زمنيّة، بل خلود واستمرار.

أمّا نعيم الدنيا فهو معرض للزوال والانتقال لا يبقى؛ لأنّ الدنيا لا تبقى، بل أنّ الإنسان على يقين بعدم بقاء الدنيا لأنّه يرى شخصاً معه قبل يوم وفي اليوم الآخر يسمع بوفاته، فالخلود ليس إلّا في عالم الآخرة، فالشابّ يموت والكبير يموت، والصحيح يموت والسقيم يموت، بل قد يبقى السقيم ويموت الصحيح

السليم، فقد يكون الإنسان في وضعه الصحّيّ الجيّد من جميع الجهات إلّا أنّه يموت بسبب لا نعرفه أو مرض يخفى على الناس. إنّ الله ابتلى الإنسان بالموت والحياة، قال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾(١)، والموت والحياة من خلق الله ﷻ لابتلاء الإنسان بهما، أيحسن العمل أم يظلم نفسه فيسيئ.

الفوز العظيم

﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

عند تتبّع آي القرآن الكريم نجد أنّها ذكرت الفوز في مواضع متعدّدة، قال تعالى: ﴿**فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ**﴾(٢)، من يبتعد عن النار وينجو منها، ويدخل الجنة فقد حصل على الفوز من الله ﷻ، وهذا الفوز ليس فوزاً عادياً، بل هو فوز عظيم لأنّ الإنسان يدخل امتحاناً ويجتازه بتفوّق فيحصل على مرتبة عالية فيفرح فرحاً شديداً؛ لأنّ طموحاته وآماله قد تحقّقت ووصل إلى ما يبتغيه في هذه الدنيا، ومع أنّ هذا الفوز لا يقاس بالفوز الأُخرويّ لأنّ الدنيا زائلة والآخرة باقية. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**لو كانت الدنيا من ذهب والآخرة من خزف لاختار العاقل الخزف الباقي على الذهب الفاني**»(٣)، وهذا مدرك فإنّ من يعطيك ذهباً تقتنيه وتحتفظ به لمدّة محدودة، ويخيرك بينه وبين خزف يبقى تستفيد منه طوال حياتك، فإنك تختار ما يدوم وتترك ما تستفيد منه قليلاً رغم كونه نفيساً.

---

(١) الملك ٦٧: ٢.

(٢) آل عمران ٣: ١٨٥.

(٣) شرح أُصول الكافي للمازندراني: ١: ١٦٧.

يقرّب الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الفكرة التي يريد إيصالها بالذهب والخزف والعاقل يرجّح الخزف الباقي على الذهب الزائل. كيف وحال الآخرة عكس ذلك تماماً؟ فنعيم الدنيا خزف في قبال نعيم الآخرة، ونعيم الدنيا خزف فانٍ ونعيم الآخرة ذهب باقٍ.

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾

تتحدّث الآية المباركة عن قسم خاصّ من الناس خسروا أنفسهم يوم القيامة، وهم المنافقون وأُلحقوا بالكفّار؛ إذِ النفاق داء عظيم يصيب بعض الناس فيجعل الإنسان يظهر خلاف ما يبطن، ويقول شيئاً ويعتقد بشيء آخر، فإذا كان مع الفئة المؤمنة قال لهم: إنّي منكم، وإذا ذهب إلى الفسقة والكفرة أو المشركين قال: إنّني منكم.

له لسانان ووجهان، وحالتان مختلفتان يظهر بأحدهما أمام المؤمنين، وبالأُخرى أمام جماعته من المشركين والفسقة والمنافقين.

يصف الله تبارك وتعالى هذا الصنف من الناس ويبيّن أنّه يتصوّر أنّ القيامة حالها كحال الدنيا، كما أنّ الدنيا يحصل الإنسان فيها على بعض ما يريده عبر النفاق والمكر والحيلة والواسطة والرُّشا، كذلك يريد أن يحصل على ما يبتغيه في القيامة عبر بعض هذه الطرق، والله تبارك وتعالى أنبأ أنّ المعيار في القيامة أمر آخر، قال تعالى: ﴿**وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾[1]، الأسباب التي ينتفع بها الإنسان في الدنيا

(١) البقرة ٢: ١٦٦.

غير موجودة في القيامة منقطعة، ولا ينفع في الآخرة إلّا العمل الصالح والقلب السليم، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**﴾[١]. أصحاب القلوب السليمة هم الذين تشعّ أنوار ذواتهم وأعمالهم الصالحة التي كساهم الله بها، وعندما يرى المنافقون تلك الأنوار البهيّة يطلبون جزءاً ممّا لدى المؤمنين من ذلك النور، ﴿**يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا**﴾، النظر له معنيان: فإذا قيل: نظر إلى فلان، وعدّيت الفعل بـ(إلى) فمعناه النظر بالبصر، فمعنى: نظرتُ إليك: أي رأيتك، وأمّا إذا قيل: نظرتك، فمعناه انتظرتك. فحذف حرف الجر يجعل معنى النظر بمعنى الانتظار، والحالتان تأتيان بالعكس، أي: تأتي (انظرونا) بمعنى التفتوا إلينا، كما لو تعدّت بالحرف (إلى)، ويأتي (انظر) المتعدّي بالحرف (إلى) بمعنى الانتظار شذوذاً.

وقوله تعالى: ﴿**انظُرُونَا**﴾ بمعنى انتظرونا لأنّهم يرون المؤمنين يسيرون إلى مقاماتهم بسرعة فيطلب المنافقون منهم أن يتمهّلوا وينتظروهم كي يلحقوا بهم؛ لأنّهم في ظلمات، كما ذكر الله ﷻ ذلك في قوله تعالى: ﴿**ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُورٍ**﴾، فالمنافقون عكس المؤمنين تماماً؛ إذِ المؤمنون يعيشون النور في ذواتهم وعن أيمانهم، أمّا المنافقون فيعيشون الظلمة في كلّ النواحي، وأهمّها ناحيتان الظلمة الذاتيّة، فذواتهم مظلمة، وظلمة أعمالهم من الفسق والفجور.

﴿**انظُرُونَا نَقْتَبِسْ**﴾ الاقتباس: أخذ شيء من النار، وقد جاء في قضيّة موسى عليه السلام لمّا نظر إلى النار فأراد أن (يأخذ جذوة منها) قال تعالى: ﴿**إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً**﴾[٢]،

---

(١) الشعراء ٢٦: ٨٨ و ٨٩.

(٢) طه ٢٠: ١٠.

فأصل الاقتباس أخذ شعلة من النار، وقد تُوسِّع فيه، وأُطلق على أخذ الكلمة أو العبارة من القرآن أو السنّة أو الشعر، وجعل تلك الكلمة جزءاً من القصيدة، فإذا أخذ الأديب بعض الكلمات من شعر أو نثر لشاعر أو أديب آخر يقال: اقتبس، فأصبح الاقتباس بمثابة الأخذ وقوله تعالى: ﴿**انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ**﴾ لا يراد منه المعنى الأصليّ للاقتباس، وهو أخذ شيء من النار، بل يريد المنافقون أن يأخذوا من نور المؤمنين.

فيأتيهم الردّ: ﴿**قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً**﴾؛ وذلك أنّ الدنيا التي خلّفوها ورائهم هي محلّ أخذ الأنوار، فالدنيا فيها العمل بلا حساب، والآخرة الحساب بلا عمل، والدنيا هي المزرعة للآخرة، ومن ترك مكان التزوّد بالأنوار لن يستفيد منه بعد تركه له، والجواب منطقيّ، على المنافقين أن يرجعوا إلى الدنيا للتزوّد منها، وهم يتمنّون ذلك غير أنّه لا يحصل قال تعالى: ﴿**حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾(١)، يُرَد تمنّي الرجوع بقوله تعالى: ﴿**كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ**﴾، يتمنّى بعض الناس عندما يشاهد أهوال عالم البرزخ الرجوع إلى الدنيا كيف إذا شاهد أهوال يوم القيامة ورأى نور المؤمنين يضيء كلّ مكان، وعلم أنّه لا يستطيع أن يرجع فيطلب قبساً من النور المضيء ليضيء له الظلمات التي تحيط به من كلّ مكان، ويأتيه الجواب رادعاً ﴿**ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً**﴾.

وبعد هذا المشهد الحاسم يحصل ما هو أعظم قال تعالى: ﴿**فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾ ضرب السور هاهنا إبانة عن الفصل التامّ بين المؤمنين والمنافقين، وعدم استفادة المنافق من أيّ نور من

---

(١) المؤمنون ٢٣: ٩٩ و ١٠٠.

المؤمنين ، السور هو الحائط الذي يبنى ويسوّر به البيت أو المدينة ، ويوضع على السور أبراجاً ، وعلى الأبراج حرساً . وفي القيامة سور يحيط بالمؤمنين ففي المشهد الأوّل يَصُفُّ الناس أقدامهم إمّا إلى جنّة وإمّا إلى نار ، ويرى الخلق بعضهم البعض الآخر ، وفي المرحلة الأُخرى ينفصل المؤمنون عن المنافقين والكفّار ، ويُحاط المؤمنون بسور له باب لا يتاح للمنافق أن يتزوّد من نور المؤمن في هذه المرحلة ، مرحلة الفصل وتميّز القسمين .

الفاصل بين المؤمن والمنافق والكافر ﴿**بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ**﴾ أيّ الباطن الذي من قِبَل المؤمنين ، ومن جهتهم فيه الرحمة والرضوان ، وظاهره العذاب .

من المعروف أنّ أفراد الإنسان على أقسام متعدّدة في ارتكابهم للذنوب ، وكلّ ذنب له درجات ، والذي يرتكبه الإنسان في الدنيا له درجات ، بل دركات ؛ لأنّ الصحيح أنّ التسافل لا يُسمّى درجات ؛ إذِ الدرجات للعلوّ ، وتطلق على مراتب الطاعات والحسنات ، أمّا الذنوب والمعاصي فمراتبها دركات ، قال تعالى : ﴿**إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً**﴾(١) ؛ لأنّها توجب التسافل والنزول ، وأمّا الدرجات فتوجب العلوّ والصعود ، غير أنّ المشهور عرفاً إطلاق الدرجات على التصاعد والنزول ، وسوف نطلق على مراتب الذنوب والمعاصي درجات لهذه الشهرة ؛ إذْ أنّ كلمة درجات أصبحت أوضح في الذهن من الدركات أو الدرك الأسفل . فالمنافق على درجات ، والنمّام على درجات ، والمغتاب على درجات ، ومن يُسيئ إلى الآخرين على درجات ، والناس ليسوا سواء في الذنوب ، هناك من يتوغّل في الذنب ويصل إلى سيطرة الذنب على وجوده وكيانه ، قال تعالى : ﴿**بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ**﴾(٢) ، فإحاطة الخطيئة

(١) النساء ٤ : ١٤٥.

(٢) البقرة ٢ : ٨١.

يراد بها أنّ بعض الذنوب تستولي على صاحبها من كلّ جهة بحيث لا يتاح له الخروج عن أُفق الذنب، وتسمّى مرحلة الطبع الكامل على القلب، ومن وصل إلى هذه الدرجة في تسافله فهو في الدرك الأسفل، لا يتاح له أن يصل إلى الجنّة، بل يكون من الخالدين في النار. ومن لم يصل إلى الدرك الأسفل كالمنافق صاحب الدرجة البسيطة من النفاق إذا تاب توبة حقيقيّة تاب الله تعالى عليه كما حصل لبعض الصحابة في القصّة المشهورة التي حدثت في عهد النبيّ عندما عزم ﷺ على قتل الخائنين من اليهود الذين خانوا العهد وانضمّوا إلى قريش لمقاتلة المسلمين عند إحساسهم بضعف المسلمين، وأخبر النبيّ ﷺ أحد الصحابة بالأمر، وأكّد عليه أنّه سرّ لا يجوز إفشاؤه، غير أنّ الصحابي لمّا سأله بعض اليهود عن الأمر أفشاه، وقال لليهود ليس وراء محمّد إلّا السيف، وبعد ذلك ندم ورجع إلى الله وتاب، وعلم الله بتوبته النصوحة فقَبِلَها.

قد يتّصف بعض الناس بدرجة بسيطة من النفاق، فيُطهّره الله تعالى من ذلك بالنار الشديدة في عوالم الغيب. إنّ نيران عوالم الغيب شديدة في حرارتها وهي فوق ما يتصوّره البشر؛ لأنّ أشدّ نار في الدنيا تعادل جزءاً من سبعين جزء من أقلّ نار في الآخرة، إنّ الدنيا فيها نار شديدة كالنار التي يصهر بها المعادن كالحديد وغيره فتضاعف حرارة النار حتّى تنصهر المعادن، ومع شدّة النار الدنيويّة فهي تعادل جزءً من سبعين جزء في عالم الآخرة، وحتّى البراكين التي تصهر حرارتها وتذيب كلّ شيء تمرّ به بعد ثورانها فهي تعادل جزءً من سبعين جزء من نار عالم الآخرة. وقوله تعالى: ﴿**بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ**﴾، أي أنّ الذين في ظاهره يعذّبون، ولا يُتاح لهم أن يلجئوا من هذا الباب إلى الجنّة، أو إلى المؤمنين، السور الذي وضعه الله لا يتاح معه لبعض من طُهِّروا بالعذاب أن يدخلوا الجنة من هذا الباب، وبعد أن يأخذوا نصيبهم من العذاب المختلف عن العذاب في الدنيا، ففي الدنيا إذا احترق شخص طفيفاً يتألّم بشدّة، وقد يعاني

من ألم الحروق إلى موته ، أمّا في الآخرة فله جهنّم ، قال تعالى : ﴿**فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ**﴾(١) ، فهو باقٍ في العذاب ، لا يموت ولا يحيى ، وقد يستمرّ آلاف السنين ببعض الذنوب التي اقترفها في عالم الدنيا .

يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾

عاش المنافقون مع المؤمنين في الدنيا ، وشاركوهم في العبادات والأعمال الصالحة ظاهراً وأخفوا الكفر والفسق ، وتظاهروا بالصلاح والإيمان ، والالتزام بالشريعة ، الجميع في دار الدنيا من المنافقين والفسقة والمؤمنين عاشوا معاً ، وقد لا يميّز بينهم في كثير من الحالات ، بل قد يغترّ بعض الناس بهم وبظاهر أعمالهم فيتصوّر أنّهم من أهل الصلاح ومن أهل الرشد ، غير أنّهم في الواقع من أهل النفاق والفسق والكفر ، بل أنّ بعض المنافقين قد يتصوّر أنّه من أهل الصلاح ، ولا فرق بينه وبينهم ؛ إذْ ما يصدر منهم من عبادات يصدر منه ، غير أنّه يفاجئ يوم القيامة باختلافه عنهم وبامتيازهم عنه .

فيسأل قائلاً من الذي جعلكم تمتازون علينا مع أنّنا عشنا سويّاً في مجتمع واحد بل في بيت واحد ؟

ولماذا تميّزتم عنّا بهذه النورانيّة ؟ ومن أين جاءت لكم وكيف افترقتم عنّا ؟

﴿**يُنَادُونَهُمْ**﴾ النداء هو الصوت الذي يصدره الإنسان لشخص آخر بعيد عنه يريد منه أن يُلبِّي له طلباً أو أن يسمع صوته ، والتعبير القرآنيّ يشير إلى الفاصل البعيد بين المنافقين وبين أهل الجنّة .

---

(١) طه ٢٠ : ٧٤.

فالمنافقون يقولون لأهـل الجـنّة : ﴿أَلَـمْ نَكُـن مَـعَكُمْ ﴾، وعـند ذلك يـجيب أهل الجنّة : نعم ، كنتم معنا وعشنا سويّاً ﴿قَالُوا بَلَىٰ ﴾، ولكنّكم ـ أيّها المنافقون ـ نافقتم وكفرتم وغرّتكم الحياة الدنيا فتغيّر مجرى حياتكم .

أسباب انحراف المنافقين

هناك أسباب أدّت إلى وصول المنافقين إلى المصير السيئ .

الأوّل : الفتنة .

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ الفتنة مشكلة يبتلى بها الإنسان فتوقعه في عواقب سيّئة .

معاني الفتنة : الفتنة هي وضع المعدن في النار ليكون على درجة من الحرارة ينصهر بها المعدن فيشكل بشكلٍ آخر يريده الواضع له .

وقد استخدمت كلمة الفتنة في اللغة بمعنى الشرك وبـمعنى الكـفر ، وبـمعنى الامتحان والابتلاء ، وبمعانٍ اُخرى .

والمعنى الذي يريده أهل الجنة من كلمة الفتنة في قوله تعالى : ﴿بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾، هو الفتنة بمعنى الابتلاء ، فالإنسان قد يتعرّض للـبلاء مـن قـبل العوامل والظروف الاُخرى التي تحيط به ، وأحياناً يُوقع الإنسان نـفسه فـي الفـتنة ويُعَرِّضها للامتحان والابتلاء .

وذلك عندما يُقحم نفسه في اُمور هو في غنىً عنها أو يدخل نفسه في الباطل ، فلا يتردّد في ارتكاب المعصية فيُعرّض نفسه للابتلاء ، والبعض الآخر مـن النـاس قد يبتعد عن الموارد التي توجب له الافتتان ، فعندما يرى مشكلة تعرّضه للسقوط يحاول أن يبتعد عن تلك المشكلة .

وقد جاء التحذير من أئمّة أهل البيت عليهم السلام بعدم الدخول في الفتن كي لا تطبق على الداخل فيها فـيصعب عـليه الخـروج مـنها ، قـال إمـامنا أمـير المـؤمنين عليه السلام

في وصيّة له يُوصي فيها الإنسان بالابتعاد عن المشاكل التي تعرّض شخصيّة المرء للسقوط قال عليه السلام : «**كُنْ في الْفِتْنَةِ كابْنِ اللَّبُونِ ، لَا ظَهْرٌ فَيُرْكَبَ**»[١] ، فابن اللبون هو ولد الناقة في أثناء الرضاعة ، ليس فيه حليب ليحلب ، ولا قوّة وتحمّل للركوب والسفر به من مكان إلى مكان فيركب . والإمام عليه السلام يؤكّد أنّ على الإنسان أن يقف حياديّاً في مواطن الفتن ، فيحاول قدر استطاعته أن يبتعد عن المواطن الذي تُعَرّض شخصيّته للاهتزاز ؛ لأنّ بعض الناس يعرّض نفسه للامتحان بالدخول في اُمور قد توجب له السقوط إيمانيّاً أو اجتماعيّاً . وعليه أن يتوقّى ذلك ويتذكّر أنّ دخول المرء في الشبهات سهل ولكنّ التفكير في الخروج ، الدخول في المشاكل سهل ولكن الخروج منها صعب مستصعب .

إنّ أوّل إشكاليّة توجب سقوط الإنسان في ظلمات المعاصي تعريضه لنفسه للافتتان ، فيقع في ابتلاءات وامتحانات عسيرة يصعب عليه أن يخرج منها ، أمّا إذا ابتعد عن المعاصي فتلك الخطوة الأُولى التي يخطوها لتحصين نفسه . من هنا يجهد بعض المؤمنين رغم إيمانه الراسخ في الابتعاد عمّا يوجب له الامتحان ، وقد يتصوّر البعض أنّ الإيمان يحميه فلا يبتلى ، غير أنّ هذا التصوّر ليس بسديد لأنّ قوانين الحياة الدنيا قائمة على الابتلاء لجميع البشر حتّى الأنبياء والرسل والصالحين ، قال تعالى : ﴿**مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ**﴾[٢] .

وفي بعض الروايات ورد عن الإمام الصادق عليه السلام : «**إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ**»[٣] ، فلا أحد إلّا ويتعرّض للابتلاء . وبعض أنواع

(١) نهج البلاغة : من حِكمه عليه السلام .

(٢) آل عمران ٣ : ١٧٩ .

(٣) الكافي : ٢ : ٢٥٢ .

الابتلاء التي يتعَرّض لها الإنسان بارتكابه لبعض الذنوب يؤدّي به إلى السقوط الدينيّ أو الاجتماعيّ.

وقد نقل أنّ المقدّس الأردبيليّ ﷺ وهو من أكابر علمائنا، وكان إذا سلّم على الإمام أمير المؤمنين عليه السلام يسمع جواب الإمام عليه السلام في بعض الأحايين، وقد سمع بعض تلامذته جواب الإمام عليّ عليه السلام وهو يقول: «وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته».

ومع هذه الرتبة والانكشاف الذي حصل له لعالم الملكوت والبرزخ وعوالم الغيب، فقد قيل له إذا كنت في مكان مغلق، ولا يراك أحد إلّا الله سبحانه وتعالى، ودخلت عليك امرأة ذات جمال، فهل تختلس نظرة إليها؟ فأجاب المقدّس الأردبيليّ بإجابة دقيقة لم يقل إنّني لا أنظر، بل قال: أسأل الله سبحانه وتعالى أن لا يُعرّضني لهذا الابتلاء والافتتان؛ لأنّ الإنسان قد يختلس نظرة فتوجب له الدخول في فتنة وتلك الفتنة تجره إلى امتحان آخر وهلُمّ جرّاً. ولذا، قال تعالى: ﴿**قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ**﴾.

الثاني: التربّص.

﴿**وَتَرَبَّصْتُمْ**﴾ التربّص معناه الانتظار والتسويف.

يقع بعض الناس في المعصية، وإذا نبّه عليها وقيل له: إنّ ما صدر منك ذنب كبير قد يوقعك في مشاكل عويصة، وقد يؤدّي بحياتك المعنويّة، يجيب قائلاً: إنّ الوقت طويل، وإن شاء الله بعد فترة أخرج من المشكلة، يكون في حالة من التربّص والترقّب للخروج من الأزمات، ولا يلتفت إلى خطورة الذنب الذي اقترفه وإلى آثاره الكبيرة على نفسه وعلى مسيرة حياته، وبعض الناس يُسوّف في أداء الواجبات والحقوق الشرعيّة، وعندما ينصح يقول: إن شاء الله سوف أُؤدّي الحقوق الشرعيّة إذا تحسّنت أوضاعي المادّيّة، أو إذا جاء الصيف وازدادت حركة البيع، ويكون مسَوّفاً وكأنّه من المنافقين الذين كانوا يتربّصون الدوائر بالمسلمين،

ويحيكون المؤامرات، ويترقّبون موت الرسول ﷺ وانهزام الإسلام ليحقّقوا أهدافهم وطموحاتهم الشريرة.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، شجب للمتربّصين الذين يضيعون الفرص الثمينة ممّا يترتّب عليه الدخول في ابتلاءات يصعب عليهم الخروج منها، بخلاف الشخصيّات الناجحة التي تتقدّم في الدين والدنيا، لعدم التأجيل في الأعمال المهمّة والضروريّة، بل يبادرون إلى الأعمال أوّلاً بأوّل، ومن خلال هذا الشجب نفهم أنّ الفاشل هو الذي يتربّص وينتظر مسوّفاً تاركاً أعمال الخير فتراه قد يبدأ في مشروع وقبل إتمامه يدخل في آخر، وهكذا يضيع عمره دون إنجاز شيءٍ ممّا يؤدّي به إلى تدمير حياته المادّيّة والمعنويّة وهو لا يشعر.

الثالث: الارتياب.

يبيّن أهل الجنة المشكلة الثالثة التي توجب السقوط والتردّي للمنافقين وهي الارتياب، قال تعالى: ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ﴾.

الارتياب هو الشكّ، ولا ينبغي للمرء أن يكون متردّداً شاكّاً، بل حازماً جازماً؛ لأنّ الشكّ يورث التردّد، واليقين يورث الإقدام، وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلمة رائعة وجميلة قال عليه السلام: «**لَا تَجْعَلُوا عِلْمَكُمْ جَهْلاً وَيَقِينَكُمْ شَكّاً**»[(١)]، فمن تيقّن عليه أن يُبادر إلى العمل بمقتضى يقينه، غير أنّ بعض الناس يشخّص الخير والشرّ، والصلاح والفساد، ويتعرّف على الأُمور وفائدتها من الناحيتين المعنويّة والمادّيّة، لكنّه لا إقدام لديه، بل يتردّد ويشكّ، ومثل هذا لا يمكنه أن ينجح في حياته ولا في أُمور دينه؛ لأنّ الإقدام والجزم سمتان مؤثّرتان لتحقّق النجاح، فمن جاءته فكرة رائعة، واطمئنّ بفائدتها، عليه أن يعمل بمقتضى ما وصل إليه فكره واطمئنّ به قلبه، وذلك هو السبيل إلى إحراز التقدّم إلى الأمام باطّراد في الناحيتين المادّيّة

---

(١) نهج البلاغة: ٥٢٤ (صبحي الصالح).

والمعنويّة ، وكذلك في النواحي الاجتماعيّة ، فمن كانت لديه أفكار تحقّق التقدّم والرفعة للمجتمع لا بدّ له أن يمضي قُدُماً في تحقيقها . قال الشاعر :

إذا كنت ذا رأي فكن ذا عزيمة   فإنّ فساد الرأي أن تتردّدا

الرابع : الاغترار بالأماني .

المشكلة الرابعة التي واجهت المنافقين الاغترار بالأماني ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ الأماني جمع أُمنية ، يتمنَّى الإنسان أُموراً عديدة ، فمن كان عليه واجبات ملزم بأدائها يُمنِّي نفسه قائلاً : إذا أنجزت هذه الواجبات سوف أقوم ببعض أعمال الخير ، وسوف أُؤدّي الصلاة والفرائض التي أوجبها الله عَزَّ وَجَلَّ علَيَّ ، والأماني كالأحلام توجب للإنسان التواني والابتعاد عمّا يروم تحقيقه ، قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام : « **أَشْرَفُ الْغِنَىٰ تَرْكُ الْمُنَىٰ** »(١) ، أي أنّ من يريد أن يستغني عليه أن يترك الأماني لأنّها أباطيل وضلال ، وأهل الجنة يُركّزون على هذا المرض الذي يصيب الإنسان في الحياة ويؤدّي به إلى الفسق والنفاق والفجور ، ويجعل مصيره إلى النار ، ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ الاغترار والاتّكال على الأماني يضيّع العمر حتّى يأتي أمر الله تعالى ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ﴾ .

أمر الله هو الموت ، فيُمَنّي الإنسان نفسه بالقيام بأعمال متعدّدة ويستعدّ لها ، وبعد ساعة يأتيه الموت ليقطع آماله ولا يمهله ساعة واحدة ، قال تعالى : ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾(٢) ، كلّ إنسان وإنْ طال عمره فمصيره الموت ، والذي يبقى له العمل الذي صدر منه ، وهو الذي يحاسب عليه بدقّة متناهية ، وعلى أساس الأعمال التي تصدر منه تتحدّد ملكاته النفسانيّة ، فيسعد بها أو يشقى .

---

(١) نهج البلاغة : ٤٧٤ (صبحي الصالح) . بحار الأنوار : ٧٥: ٩١.

(٢) الأعراف ٧: ٣٤.

الخامس: الشيطان.

المشكلة الخامسة التي تواجه المنافقين هي ﴿**وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ**﴾، ما هو الغَرُور؟

الغَرُور على وزن فَعُول: صيغة مبالغة، يعبّر القرآن الكريم بهذا التعبير عن الشيطان لأنّه يَغُرّ الإنسان بشكل دائم.

ويشبه بعض العلماء وسائل الإعلام الحديثة بالشيطان، فوسائل الإعلام بعضها يُحقّق الخير وبعضها الآخر يُحقّق الشرّ، وذلك لما تمتلكه من سيطرة على بعض الناس؛ إذْ لها جذب وإغراء، فالسلعة التي لا قيمة لها تقوم وسائل الإعلام بعرضها بأحسن صورة تجذب المشتري، وتُفقده القدرة على الإمساك بزمام نفسه، فيُقدِم على الشراء نتيجة لقوّة الإغراء، والشيطان يوسوس للإنسان حتّى يفعل الحرام، ويأتيه أحياناً عن طريق الحلال للسيطرة عليه.

نُقل أنّ بعض تلامذة الشيخ الأنصاريّ ﷺ رأى الشيطان يحمل حبالاً وسلاسلاً وخيوطاً، فسأله: ماذا تفعل بها؟ فقال الشيطان: إنّ طلّاب العلم على مراتب مختلفة، بعضهم لديه العلم والفكر والثقافة والتقوى، وبعضهم لديه علم وليس لديه تقوى، أو لا يملك ثقافةً تعطيه براعة في التعامل بحنكة مع مختلف الأُمور، ويبدو أنّ هذا التلميذ كان من التلاميذ الاعتياديّين الذين لم يهتمّوا بتربية أنفسهم وتهذيبها، والله ﷻ أراد أن ينبّهه بهذه الرؤية لأنّ بعض الرؤى تنبّه الإنسان، فقال له الشيطان: أنا أربط الناس كلّ واحد بحسب ما يتناسب معه.

قال التلميذ: إنّ بعض هذه السلاسل الكبيرة إذا ربطت بها أحداً سوف يموت.

قال له الشيطان: كلا، هناك من أربطه بهذه السلسة الكبيرة ويقطعها.

فقال التلميذ: وأنا بماذا تربطني؟

فقال الشيطان: أنت لا تحتاج إلى ربط، وتكفيك الإشارة.

فقال التلميذ : ومن الذي تربطه بهذه السلسلة الكبيرة ؟

قال الشيطان : أُستاذك الشيخ الأنصاريّ ، ربطته هذه الليلة بهذه السلسلة الكبيرة ثلاث مرّات فقطعها .

انتبه التلميذ من نومه ، وذهب لأداء صلاة الفجر خلف الشيخ الأنصاريّ وروى له ما حدث في عالم الرؤيا ، فابتسم الشيخ وقال له : صدق الشيطان .

قال التلميذ متعجّباً : كيف ذلك ؟

قال الشيخ : في الليلة الماضية جاءني فقير وطلب منّي مساعدة ، فقلت له : والله ما عندي شيء أُعطيك إيّاه ، فمشى الفقير قليلاً ـ ويبدو أنّ الفقر ضغط عليه ـ فرجع مرّة ثانية وألحّ علَيَّ في الطلب والسؤال ، وكانت عندي أمانة لشخص لي علاقة طيّبة معه ، ففكّرت في أن أُعطيه الأمانة التي عندي ، ثمّ بعد ذلك استأذن صاحب الأمانة ولن يمانع في تصرّفي ، فذهبت إلى الغرفة وأخذت الأمانة كي أُعطيه إيّاها ، ففكّرت كيف أتصرّف في الأمانة وقد أموت هذه الليلة ، فأرجعت الأمانة ، وقلت للفقير : ليس عندي شيء أُعطيك إيّاه ، وأسأل الله أن يطيل في عمرك ، ويدفع عنك البلاء ويرزقك ، اذهب إلى غيري ، لقد تكرّر ذلك من السائل ومنّي ثلاث مرّات ، فالشيطان ربطني إذن ثلاث مرّات غير إنّي تغلّبت عليه بحول من الله وقوّة .

إنّ بعض الناس يتصرّف في أمانات الآخرين وأموالهم دون حساب ، فكيف حاله وعذابه الشديد عند الحساب ، الحفاظ على أمانات الناس واجب يطبّقه من ذكر الله تعالى وخافه واتقاه وراقبه بدقّة ، كالشيخ الأنصاريّ ﵀ ، والذي عبّر عنه الإمام الخمينيّ ﵀ بالتالي لدرجة المعصوم ، أي أنّه بعد المعصوم مباشرة .

﴿**وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ**﴾ يغُرّ الشيطان الإنسان عن طريق الخير قائلاً له : إنّ هذا العمل خير فأعطِ الفقير من المال حتّى لو لم تكن تمتلكه وهو أمانة عندك ،

وهذا غير صحيح ؛ لأنّ من يريد أن يساعد فقيراً عليه أن يستأذن من صاحب الأمانة وبعدئذٍ يتصدّق ، ثمّ يرجع ما أخذه بعد المكنة فوراً ، ولا يجوز بأيّ حال التصرّف في أموال الآخرين إلّا بإذن منهم .

فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

بعد أن أوضح المؤمنون الأسباب التي بموجبها استحقّ المنافقون الدخول في النار خاطبوا المنافقين وأكّدوا على أمرين في غاية الأهمّيّة :

الأوّل : مغايرة عالم الدنيا لعالم الآخرة

يختلف عالم الآخرة عن عالم الدنيا ، ففي عالم الدنيا يتشبّث الإنسان بسببين للخلاص ممّا يقع فيه من المشاكل :

الأوّل : الفداء .

الفداء بالأموال التي يدفعها الإنسان للتخلّص ممّا يقع فيه من ورطة ومشكلة .

الثاني : الاستعانة بالمُنقذ والناصر .

يتّخذ الإنسان ناصراً ومُنقذاً له ، ويعبّر عنه بالواسطة ، ومن خلال الواسطة ـ أو الناصر ـ ينجو الإنسان ممّا حلَّ به .

والمنافقون في عالم القيامة لا يستطيعون أن يحصلوا على أي من السببين ، فلا يستطيعون أن يقدّموا الفدية ليتخلّصوا من العذاب الإلهيّ الشديد ، ولا يستطيعون أن يجدوا ناصراً ؛ لأنّ الناصر الذي أُتيح لهم أن يستنصروا به هو العذاب الإلهيّ ، فيكونون كما يُقال في المثل : (كالمستجير من الرمضاء بالنار) ، فمن يتعرّض للعذاب لا يمكنه أن يستنصر ويستجير بالعذاب من النار .

وفي عالم القيامة جعل الله ﷻ النار أوْلى بالكفرة والفجرة والمنافقين من أيّ شيء آخر، فينتفي السببان أي لا توجد الفدية التي يستطيع الإنسان أن يعطيها ليتخلّص من العذاب، ولا الواسطة التي تنقذه ممّا هو فيه وهي الناصر؛ لأنّ الناصر المتاح إليه هو العذاب.

والله ﷻ بيّن في آي القرآن الكريم أنّ من يستنصر به من الأسياد في الحياة الدنيا سيتبرّأ من المستنصر وتنقطع بينهما الأسباب قال تعالى: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾، فلن يحصل الإنسان على السبب الذي يخلّصه من العذاب لأنّ جميع الأسباب تلاشت منتهية، ولا يستطيع القريب أو الصديق أو غيرهما أن يعملوا شيئاً، بل كلّ واحد يتحمّل وزره، قال تعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ**﴾[١] كلّ نفس مرتبطة بعملها، وقد تبيّن في قوله تعالى: ﴿**يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ**﴾[٢] أنّ الأموال التي ادّخرها الإنسان لن تفيده، ولا الأبناء؛ لأنّ كلّ إنسان في يوم القيامة يقول: نفسي نفسي. لذلك خاطب المؤمنون المنافقين قائلين لهم: ﴿**فَالْيَوْمَ**﴾ الوسائل التي تشبّثتم بها للخلاص من العذاب انتهت، ولا يمكن الاستفادة منها، في عالم الدنيا كانت الوسائل متوافرة غير أنّ الموازين اختلفت في عالم الآخرة ﴿**فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ**﴾، وهناك أصناف أُخرى غير المنافقين لا يأخذ منهم الله تعالى الفدية وهم الكفرة، فإنّ الكافر لا يقبل الله تعالى منه صرفاً ولا عدلاً.

معنى الكفر

الكفر في اللغة بمعنى السِتر، والكافر يستر على نور فطرته وعقله فيغطّيهما، ولا يبصر الحقّ والهدى، فيسير في تيه الضلالة والردى، والكفّار والمنافقون لا يأخذ

---

(١) المدّثّر ٧٤: ٣٨.

(٢) الشعراء ٢٦: ٨٨.

الله عزّ وجلّ منهم فدية ، ولا الملائكة الموكّلون بتعذيبهم ، فلا واسطة تنقذهم ؛ إذ الملائكة لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون ، إنّ عالم الآخرة مغاير لعالم الدنيا ، في عالم الدنيا إذا أراد شخصٌ أن يوقع الضرر بإنسان يمكنه أن يقوم بتوكيل شخص آخر للقيام بذلك ، ويمكن التفاهم مع الشخص الآخر الموكل بنحو يتخلّص من العقوبة ، أمّا في عالم الآخرة فلا يمكن أن يكون ذلك .

قوله تعالى : ﴿**مَأْوَاكُمُ النَّارُ**﴾ ، المأوى هو المثوى والمصير ، فمأواهم النار ومصيرهم إليها ، وفيها يتلقّون العذاب الأليم ، والنار تعذّبهم لأنّها هي الأوْلى بهم من غيرها ، ويشير العلماء إلى مطلب جميل يسمّونه بعلاقة السببيّة ومعناه أنّ لكلّ سبب مسبّب ، والله تعالى أبان ذلك في القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿**إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾(١) ، الإنسان جزاؤه نفس العمل الذي قام به في الدنيا ، فمن كان يعمل عملاً صالحاً فسوف يترتّب الأثر الوضعيّ والإيجابيّ لعمله الصالح في عالم الآخرة بنحو طبيعيّ ، وتكون الجنّة أوْلى به من غيرها ، ومن عمل عملاً طالحاً فسوف يدخل النار والعذاب ؛ إذْ أنّ نفس العمل الطالح نار كما أنّ نفس العمل الصالح نور ، وهذا ما أبانه الحقّ في قوله تعالى : ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم**﴾ .

إذن العمل الصالح نور ، والعمل الطالح نار ، وممّا له مدخليّة في فهم ذلك معرفة مصطلحين :

الأوّل : تجسد الأعمال .

الثاني : أنّ الحقائق تظهر في بعض العوالم بنحو ، وفي بعضها الآخر بنحو آخر .

أي أنّ هناك ارتباط بين السببيّة والمسببيّة من جهة ، وهناك حقائق تظهر في بعض العوالم بنحو ، وفي بعضها الآخر بنحو آخر ، والاختلاف ليس من جهتين مختلفتين ،

---

(١) الطور ٥٢ : ١٦ . التحريم ٦٦ : ٧ .

بل من جهة واحدة يعبِّر عنها بتعبيرين مختلفين، فيقال: تجسد الأعمال ويراد به أنّ كلّ عمل صالح بنفسه نور، وكلّ عمل قبيح بنفسه نار، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾(١).

وقال بعض العلماء: إنّ أكل الإنسان للمال الحرام نار حقيقة حتّى في عالم الدنيا، ولكنّ الله تعالى جعل مانعاً من تأثيرها، أمّا في عالم الآخرة فيرتفع المانع ويؤثّر المُقتضي في المُقتضى، وتظهر الصورة الواقعيّة للمعصية. ولعلّ قوله تعالى: ﴿**مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ**﴾، أي هي ناصركم والأَوْلى بكم، فيكون الاستنصار بالنار لأنّها الناصر للمنافق والكافر والمجرم، فالنار هي التي تنصره وهي أَوْلى به من أي شيء آخر.

تتمّة:

يؤكّد القرآن الكريم دائماً على أنّ الله ﷻ رؤوف رحيم، وقد ذكر ذلك في الآية التاسعة من هذه السورة، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ**﴾، وإذا كان الله ﷻ رؤوف رحيم كيف يعذّب بالنار، فهل العذاب رحمة أم نقمة؟

والإجابة على ذلك: ما قاله بعض العلماء: إنّ التعذيب بالنار رحمة ورأفة، ولإيضاح الأمر نرجع إلى قوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾، فالله ﷻ يريح الإنسان من عالم الدنيا بقبض روحه، فإن كان مؤمناً نال جزاءه من الخير، وإنْ كان فاجراً أو مجرماً فالموت رحمة له؛ إذْ بالموت يقلّ إجرامه، ويقلّ ارتكابه للمعاصي والذنوب، فلا يصل إلى أسفل الدركات من العذاب، وبذلك يكون الموت رحمة له؛ إذْ خلّصه ممّا كان سيصل إليه بالازدياد من الإثم، وذلك معنى قول العرفاء: إن موت المجرم عين الرحمة المتناسبة مع عدل الله تعالى، ينال المؤمن الرضوان وجنات

---

(١) النساء ٤: ١٠.

النعيم، وينال المجرم العذاب والنار، وذلك جزاؤه ليذوق وبال أمره لئلّا يصل إلى أسفل سافلين.

قوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ بئس ونعم في اللغة العربيّة يستعملان للمدح والذمّ، العرب إذا مدحوا شيئاً قالوا: نِعم، قال تعالى: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾(١)، فهذا مدح، وإذا أرادوا أن يذمّوا شيئاً قالوا: بئس. قال تعالى: ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً﴾(٢)، فهذا ذمّ لشراب أهل النار، إذْ يسقون من حميم وزقّوم ومصير أهل النار العذاب، وهو المصير المذموم، وقوله تعالى: ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾، أي لا مصير أسوأ منه؛ وذلك أنّ الإنسان انتخبه لنفسه وباختياره التامّ؛ لأن الله ﷻ أتاح للإنسان أن يصرف قدراته التي أفاضها عليه باختياره، وأعطاه جميع المقوّمات والقدرات كي يتمكّن بها من الوصول إلى الخير والسؤدد، ولكنّه بسوء اختياره أهلك نفسه واختار الطريق السيّئ.

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿١٦﴾

الآية الكريمة من غرر الآيات، وفيها موعظة رائعة وجميلة، اهتدى بها كثير مِمّن توافرت لديهم الأرضيّة الطيّبة، وبعض من سمع هذه الآية من الذين اقترفوا الجرم والذنوب الكبائر أثّرت فيه، فانقلب رأساً على عقب، وكانت سبباً في هدايته. ونشير في البدء إلى أنّها نزلت في المهاجرين الذين كانوا متجاوبين مع آي الله ﷻ

(١) سورة ص ٣٨: ٣٠، ٤٤.

(٢) الكهف ١٨: ٢٩.

ولم تخشع قلوبهم لذكره لتوافر الأسباب المادّيّة التي أدّت إلى قسوة قلوبهم، وقد وبّخهم الحقّ تعالى بهذه الآية، وجلّ المفسّرين يرون أنّ سورة الحديد ـ بما فيها هذه الآية ـ مدنيّة، واحتمل العلّامة الطباطبائيّ صاحب تفسير الميزان رحمه الله أن تكون الآية مدنيّة، وبعض الآيات التي وردت في السورة مكّيّة(١).

والآية تشير إلى أنّ للإيمان دلائل وعلامات متعدّدة، في مقدّمتها الذكر الكثير لله عزّ وجلّ، واستشعار حضوره في كلّ حركة وسكون، والإيمان بالله سبحانه وتعالى من مقتضياته ولوازمه أن يذكر المؤمن الله سبحانه وتعالى في جميع أحواله وأقواله، وسكناته وحركاته، فإذا سمع ذكر الله اهتزّ وجدانه وتوجّه إليه سبحانه وتعالى وذكر عظمته، وتلك سمة الأتقياء والصالحين، والأنبياء والرسل والأئمّة ديدنهم ذلك، ورد في الرواية: أنّ إمامنا الحسن عليه السلام كان إذا توضّأ يرتعد ويصفرّ لونه، وعندما سُئل عن ذلك قال: **حَقٌّ عَلَى كُلِّ مَنْ وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّ الْعَرْشِ أَنْ يَصْفَرَّ لَوْنُهُ، وَتَرْتَعِدَ مَفَاصِلُهُ**(٢)، إنّ الإنسان إذا كان على موعدٍ للقاء شخصيّة كبيرة يتهيّأ لاستقبالها، وتأخذه هيبة اللقاء، ويصبح في حالة خضوع وأدب، فكيف إذا كان موعد لقائه مع أعظم موجود، ملك الملوك، وجبّار السماوات والأرض، عندئذٍ سيؤدّي مراسيم العبادة بكلّ خضوع وخشوع.

والمؤمن إذا ذكر الله سبحانه وتعالى أو سمع ذكره: (لا إله إلّا الله) أو (سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلّا الله، والله أكبر) تأثّر وانعكس ذلك على وجدانه.

والقرآن الكريم ذكر لله عزّ وجلّ، بل هو أعلى مراتب الذكر؛ لأنّه كتاب هداية وموعظة فإذا قُرِأَ علينا أثّر فينا وخشعنا له لكونه يذكر بآلائه ونعمائه، وحسابه وعقابه تعالى.

---

(١) تفسير الميزان: ١٩: ١٦٩.

(٢) مناقب آل أبي طالب: ٤: ١٤.

أصناف الإيمان

لا بدّ أن يخشع قلب المؤمن لذكر الله تعالى، وللإيمان درجات، فأكثر الناس يؤمنون إيماناً نظريّاً، وقليل منهم يؤمن إيماناً عمليّاً. وهناك فرق بين الإيمان النظريّ والعمليّ.

والفرق بينهما أنّ المؤمن بالإيمان النظريّ يُصدّق ويعتقد بوجود خالق الكون ويصفه بصفات الجمال، وينزّهه عن صفات الجلال؟؟ لكنّه لا يخضع له ولا يطيعه وذلك إيمان نظريّ، أمّا المؤمن إيماناً عمليّاً، فيعتقد أنّ للإله العظيم حقّ واجب وهو الخضوع له، والسير على مقتضى عبوديّته في السلوك والعمل، وليس على مستوى الاعتقاد فقط، وبهذا افترق الإيمان العمليّ عن النظريّ، إنّ أكثر الناس يصدّقون بوجود الله ﷻ وقليل منهم يذعنون له تعالى، ويخشعون خاضعين ومتواضعين لأحكامه وشرعه، وأنبيائه ورسله وأوليائه، إنّ الذي يؤمن إيماناً نظريّاً تصدر منه المعصية، غير أنّ الذي يؤمن إيماناً عمليّاً لا يعصي الله تعالى، وقد ورد في الأحاديث عن النبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام عندما سُئلوا: **أَ يَزْنِي الزَّانِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ؟** قالوا: «**لَا يَزْنِي الزَّانِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ**»(١)، والمراد بذلك هو الإيمان العمليّ. إذن فإنّ الإيمان النظريّ موجود.

أمّا الإيمان العمليّ فهو قليل ونادر، أي أنّ قليلاً من الناس يتجسّد ذلك في سلوكهم، وهؤلاء بعد إيمانهم بوجود الله ﷻ نظريّاً ينطلقون إلى عالم الواقع كي يجسّدوا أحكامه ﷻ عمليّاً، والإيمان العمليّ للمؤمن يترتّب عليه عدم صدور شيء يخالف ما يريده الله عزّ وجلّ، فيسير المؤمن دائماً على وفق الجادّة المستقيمة إذا كان إيمانه عمليّاً، أما صاحب الإيمان النظريّ فإنه مُعَرّض للوقوع في المعصية

(١) وسائل الشيعة: ٢٠: ٣١٤، الباب ٢ من أبواب النكاح المحرّم، الحديث ٢٤.

ومخالفة الله تعالى.

وفي هذا السياق هناك قصّة طريفة توضّح ما أشرت إليه سابقاً من أنّ بعض الناس تأثّروا بالآية الكريمة فانقلبت أحوالهم، وأثّر فيهم ذكر الله ﷻ، يحدّثنا التاريخ أنّ الفضيل بن عياض[١] أحد الزهّاد الكبار كان من قطّاع الطرق، أي عندما تمرّ القوافل في الطرق البريّة يتربّص بها، فإذا غفلت عن المراقبة هجم عليها وسلب ما لديها من مال، والفضيل بن عياض لم يكن من الكفّار بالله ﷻ، غير أنّ إيمانه نظريّ كبعض الباعة الذين نتعامل معهم في السوق فيغشّوننا، والإنسان قد يكون مؤمناً بالله ﷻ إيماناً نظريّاً فيكذب، ويرتكب الجرائم والمحرّمات، بخلاف المؤمن عمليّاً، فلا يصدر منه الكذب والغشّ، ويمكن أن نقرّب ذلك بمن دخل في شركة مع غيره، وكان بينهما اتّفاقيّة موقّعة، فإنّ أحد الشريكين إذا كان يطّلع على كلّ صغيرة وكبيرة، ويتباحث مع الطرف الآخر، ولديه مراقبة عمليّة، فلا يستطيع الطرف الآخر أن يخون شريكه، أمّا إذا كان أحدهما لا يعلم شيئاً عمّا يقوم به الآخر من أُمور، فإنّ الشيطان قد يُسوّل لشريكه أن يخون الشركة أو يختلس من أموالها. الرقابة بمثابة السياج الأمنيّ الحافظ لصاحبه عن الخطر، والإيمان العمليّ الذي يستشعر المؤمن به حضور الله تعالى واطّلاعه على كلّ صغيرة وكبيرة ترتبط به، فيرى الله ﷻ حاضراً وناظراً لأفعاله، ويخشع قلبه لذكره ﷻ.

ولنرجع إلى ما جرى على الفضيل بن عياض، الذي كان يسلب القوافل، ففي أحد الأيّام مرّت قافلة، وكان أصحابها يراقبون الطريق، ولمّا رأوا الفضيل قالوا: لنبادر بإعطائه ما يريد حتّى لا يقطع الطريق علينا، وكان في القافلة شخص يقرأ القرآن، فقرأ قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ**﴾، فلمّا سمع الفضيل الآية أثّرت عليه تأثيراً قويّاً، وتفاعل معها وجدانه، فأحيت

---

(١) تحف العقول: ٣٧١ (الهامش).

ضميره، فقال: بلى قد آن ـ أي اقترب الوقت ـ وكأنّه يجيب على التساؤل في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ فيقول: اقترب وحضر وقت الخضوع لله ﷻ، عند ذلك انقلبت حالته من قاطع طريق إلى زاهد كي لا يغترّ بمتاع الحياة الدنيا، وهذه حقيقة الإيمان العمليّ.

إنّ أكثر الناس إيمانه نظريّ يؤمن بوجود الله تعالى، ويؤمن بأنّه أرسل رسلاً، وبعث أنبياءً آخرهم محمّد ﷺ ولهم خلفاء، لكنّه لا يؤمن عمليّاً، بل يرتكب المحضورات.

إنّ الحقّ تعالى دعا الخلق إلى الدخول في ساحة الإيمان العمليّ الذي عليه العمدة، وبه يصل الإنسان إلى درجة التكامل المعنويّ؛ لأنّ الإنسان لا يصل إلى الكمال عبر الإيمان النظريّ فحسب، وإنّما يفيده ذلك في تهيئة الأرضيّة، وأمّا الذي يرتقي به إلى أعلى علّيّين فهو الإيمان العمليّ.

تؤكّد الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ﴾ على أنّ ذكر الله ﷻ مفتاح سداد يسدّد الإنسان في كلّ ما يرتبط بشؤون حياته. قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾(١).

على المرء أن يكثر من ذكر الله تعالى؛ إذ أعظم حالة يكون عليها الإنسان حالة ذكر الله ﷻ، وللذكر آثار كبيرة ومتعدّدة، والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام يضعون برنامجاً يشتغل به المؤمن بذكر الله ﷻ منذ الصباح إلى المساء، وحينئذٍ تتركّز في شخصيّته قيم الخير، ولا يعيش فراغاً كما يعيشه بعض الناس، فيقول: إنّ لديّ فراغ قاتل وأُريد أن أقتل الوقت. إنّ هذا النمط من الناس لا يعرف كيف يسير على البرنامج الذي وضعه أهل البيت عليهم السلام للإنسان المؤمن كي يصبح مشغولاً بذكر الله ﷻ لا فراغ في حياته. إنّ من يعيش الفراغ ولا يذكر الله عزّ وجلّ مع علمه بأنّ الله تعالى

(١) البقرة ٢: ١٥٢.

يدعو الإنسان للعمل والكدح ، ويدعو لذكره الكثير بأن يجعل لسانه يلهج بذكر الله سبحانه وتعالى حتّى بعد أداءه للصلاة ، قال تعالى : ﴿**فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللهِ وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيراً لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾[1] ، والآية الكريمة دالّة على أنّ المرء بعد أن يؤدّي الصلاة وينتشر في الأرض لطلب الرزق أن لا يدع ذكر الله تعالى ، لهذا نرى الأنبياء والرسل والأئمّة من أهل البيت عليهم السلام والصالحين يذكرون الله تعالى آناء الليل وأطراف النهار ، بل ورد تقسيم لساعات النهار ، كلّ ساعة لها ذكر ودعاء ، وبذلك يصبح الإنسان كالأجير الذي يؤدّي عمله وفق نظام الساعات .

هذا بالإضافة إلى الأذكار العامّة التي ليس لها وقت محدّد ، ويشتغل بها الإنسان في أي وقت ، كالاستغفار سبعين مرّة ، وطلب العفو من الله تعالى (العفو العفو) ، والحوقلة (لا حول ولا قوّة إلّا بالله) عشر مرّات ، و (لا إله إلّا الله الملك الحقّ المبين) مائة مرّة ، وسائر الأذكار الموجودة في كتب الأدعية ، فإذا واظب الإنسان على الأذكار تحقّقت له آثار كبيرة وعظيمة ، بعض الأذكار توجب الغنى ، وبعضها توجب الخاتمة الحسنة والطيّبة ، وبعضها إذا داوم عليه الإنسان رأى مكانه في الجنّة ، ودرجته فيها .

إنّ الناس يلاحظون الموظّف إذا تسلّم شخص وظيفته ، بل هو نفسه يراعي بدقّة مقتضيات وظيفته لخشيته من أي شيء يؤدّي إلى عدم ارتقائه في السُّلّم الوظيفيّ ، فيقول : إذا لم أُراعِ بعض الأمور فإنّني لن أرتقِ ، وهكذا ينبغي أن نطبّق ذلك على أنفسنا ، فإنّ الله سبحانه وتعالى وظّفنا وأرسل إلينا رسله ، وقد نصّ خاتمهم صلى الله عليه وآله وخلفائه عليهم السلام على برامج تستوعب جميع جزئيّات حياتنا ، إلّا أنّ البعض لا يلتفت إليها ، وأهمّ البرامج التي قدّمها القرآن الكريم الذكر الكثير الذي به يُرتقى في مدارج الكمال

---

(١) الجمعة ٦٢: ١٠.

والقرب منه تعالى ، قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾[١].

أقسام الذكر

لذكر الله تعالى مراتب وأحكام وخصائص ، وقد قُسّم إلى أقسام :

الأوّل : الذكر اللسانيّ

وهو الذكر بالجارحة فقط دون أن يقترن بوعي معاني الذكر واستحضار عظمة المذكور.

الثاني : الذكر القلبيّ

وهو الذكر الجوانحيّ ، ومن خصائصه إذا أدمن عليه الذاكر فإنّه يرافقه حتّى في نومه ، فيذكر الله ﷻ وهو نائم ، وقد يتعجّب البعض ويتساءل : كيف يمكن أن يكون الإنسان ذاكراً لله ﷻ وهو نائم ؟ إنّ كون الإنسان يشتغل قلبه بذكر الله ﷻ وهو نائم يثير العجب عند بعض الناس ، لكنّ ذلك موجود ، بل أنّ بعض الحيوانات كالذئب لا تنام كلّ جوارحه . قال الشاعر :

ينام بإحدى مقلتيه ويتّقي بأُخرى المنايا فهو يقظان هاجع[٢]

أي أنّه نائم ويقظ يراقب الأعداء الذين قد يهجمون عليه . والإنسان إذا أدمن ذكر الله ﷻ وصل إلى رتبة يصبح فيها ذاكراً له ﷻ في حالة نومه ، وقد سمعنا بعض من وصل إلى هذه المرتبة أنّه كان يتعجّب من نفسه بادئ ذي بدء حتّى علم أنّ ذلك من خصائص إدمان الذكر .

---

(١) الأحزاب ٣٣ : ٤١.

(٢) تاريخ بغداد : ١٣ : ١٢٣.

الثالث: الذكر الاستشعاريّ

نصطلح على هذا الذكر بالذكر الاستشعاريّ اقتباساً من الروايات التي بيّنت أنّ المراد من الذكر هو استشعار القلب بقدرة وعظمة الحقّ تعالى، فيرى الذاكر الله تعالى في كلّ حركة وسكون، بل في كلّ شيء في الكون. قال الإمام الصادق عليه السلام: «**مِنْ أَشَدِّ مَا فَرَضَ اللهُ عَلىٰ خَلْقِهِ ذِكْرُ اللهِ كَثِيراً**.

ثمّ قال: **لَا أَعْنِي سُبْحَانَ اللهِ وَالْحَمْدُ لِلهِ وَلَا إِلـهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ، وَإِنْ كَانَ مِنْهُ، وَلَكِنْ ذِكْرَ اللهِ عِنْدَ مَا أَحَلَّ وَحَرَّمَ، فَإِنْ كَانَ طَاعَةً عَمِلَ بِهَا، وَإِنْ كَانَ مَعْصِيَةً تَرَكَهَا**»[(١)].

إذن المراد بالذكر هنا استشعار قدرة الله تعالى وإحاطته بكلّ شيء.

عودة إلى أجواء الآية في مفرداتها:

قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا**﴾ تذكير للمؤمنين الذين آمنوا به تعالى إيماناً نظريّاً، والمعنى ألم يحن الوقت أن يقترب هؤلاء من الإيمان العمليّ وأن تخشع قلوبهم لذكر الله تعالى؟

قال العلماء: إن الخشوع هو التواضع والخضوع المقرون بالهيبة، كالاستعداد الحاصل عندما يرى المرء سلطاناً أو شخصيّة كبيرة فيتواضع له، وللخشوع إضافة أُخرى غير التواضع، ويدلّل على أنّ من يتواضع له مزيد عناية وإظهار التواضع له، إنّ الذكر حياة القلوب، والطعام حياة الأجساد فالجسد يمرض ويموت إذا لم يحصل على الغذاء الكافي والصحّيّ، وكذلك يموت القلب إذا لم يحصل على ذكر الله تعالى، وكلّ من توجّه إلى أهمّيّة الذكر ملأ به وقته، ولم يجد فراغاً لديه بل يرى أوقاته كلّها عمل ونشاط وتجسيد لذكر الله تعالى، فتصبح حالته الطبيعيّة الذكر بجوارحه وجوانحه.

---

(١) الكافي: ٢: ٨٠.

قراءة القرآن تجلب الخشوع

قال تعالى: ﴿**وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ تلاوة القرآن الكريم، والتدبّر في آياته ذكر لله تعالى، ولا فرق بين أن يقول الذاكر: سبحان الله والحمد لله ولا إلـه إلّا الله والله أكبر ﷻ وسائر الأذكار الأخرى، أو أن يقرأ القرآن الكريم، فإنّ في القرآن موعظة للقلب.

عواقب الابتعاد عن صراط الله

من لم يذكر الله تعالى سيبتعد عنه وعن صراطه المستقيم، ويصبح حاله كالفسّاق، قال تعالى: ﴿**وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ تؤكّد الآية على أنّ المؤمن التارك لذكر الله ﷻ وتلاوة القرآن الكريم حاله كمن فسق وابتعد عن الحقّ لطول الفترة والانتظار، ففقد الصبر والتحمّل، فلم يستطع أن يغرس قيم الحقّ ومبادئ الخير في الآخرين، بل انسلخ عن مبادئه فنقل الضلال إلى غيره، ونشير هنا إلى قانون تعاقب الأجيال وتوارث الأقوام وتكامل الحضارات. فأُمّتنا ورثت ما لديها من الجيل السابق من الآباء والأُمّهات، والآباء والأُمّهات ورثوا آبائهم، وهكذا إلى زمن النبيّ، بل أنّ كلّ تلك المكتسبات التي جاءتنا من لدُن مَن تقدّم علينا هي أمانة في أعناقنا وبأيدينا، وعلينا إيصالها إلى من يخلفنا وإلى الناس كافّة.

فالأجيال التي تقدّمت علينا كانت تنتصر للإسلام، وتجاهد في سبيل الله تعالى لنشر مبادئ العدل وقيم الحقّ، ولم يتحقّق الانتصار، وقد ورثنا الانتظار للانتصار، غير أنّ البعض يؤثر عليه طول الأمد، ولا يستطيع الصبر والتحمّل، فيفرّط فيما اكتسبه، بل ينقل انحرافه عن الصراط إلى غيره، لعدم تحمّله المسؤوليّة والأمانة، ولا يعي مسؤوليّته تجاه من يليه، ويفهم قانون تعاقب الأجيال وتوارث الأقوام.

أثر تقادم الزمان على الإنسان

يؤثّر طول الأمد والزمان على بعض الناس سلبيّاً، وعلى بعضهم الآخر إيجابيّاً، وذلك إنّه كلّما طال الزمان كلّما التفت الإنسان إلى عوامل النقص وإلى السنن التي توجب له التكامل، بالإضافة إلى التفاته أنّ النصر قد لا يتحقّق على يده، وإنّما على يد غيره ممّن يأتي بعده، وسيرة الأنبياء شاهد على ذلك، فبعضهم لم يتحقّق الانتصار على يده -كزكريّا عليه السلام- وبعض الأنبياء تحمّل القتل -كيحيى عليه السلام- ليتحقق إنجاز لمن يأتي من بعدهم كداود وسليمان عليهما السلام، وهذا يجعلنا نعي أنّ من قتل أسهم في الانتصار الذي تحقّق على يد النبيّ الذي بعده؛ لأنّه أوصل الأمانة، وله نفس الثواب الذي تحقّق على يد من أتى من بعده. والمهمّ أنّ على الإنسان أن يعمل ويصبر، والانتصار سوف يتحقّق إمّا على يده أو على يد من يأتي بعده، وينال الثواب لكونه أسهم فيه، وكان يتمنّى أن يتحقّق النصر على يده.

وقد جاء في بعض الروايات أنّ شخصاً دخل على أمير المؤمنين عليه السلام بعد انتصاره في أحد المعارك التي خاضها الإمام فقال: تمنّيت أنّ أخي كان حاضراً معنا.

فقال الإمام عليه السلام: أهو على ما نحن عليه؟

قال: نعم. أي يحبّك يا عليّ، ويحبّ أن يكون النصر لك.

قال الإمام عليه السلام: لقد شاركنا في الثواب.

قال له: عجب، كيف شاركنا في الثواب؟

قال عليه السلام: شاركنا أُناس لم تلدهم أُمّهاتهم بعد، وأُناس تقدّموا علينا، فانتصار الحقّ انتصار لكلّ نبيّ مرسل، ولكلّ صدّيق وشهيد. كما أنّ انتصار الباطل وغلبته انتصار للجريمة والرذيلة للسابقين واللّاحقين.

إنّ طول الأمد يُؤثّر سلبيّاً تارة وإيجابيّاً تارة أُخرى، وعلينا أن نلتفت أنّ طول الفترة لا ينبغي أن يُؤثّر على المؤمن فيترك مبادئه ويتخلّى عن قيمه كما أثّر على

قوم نوح عليه السلام الذين ذكر الله سبحانه وتعالى قصّتهم في القرآن الكريم ، فإنّ نوحاً عليه السلام دعا قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً ، وكان بعضهم يقول : يا نوح ، لقد دعوتنا منذ تسعمائة وخمسين سنة ولم يتحقّق لك شيء ، ولم تحصل على فائدة لدعوتك ، وقد نظر هذا القائل إلى عامل الزمن وقاس تقدّم الأُمّة وتأخّرها ، وانتصار الحقّ أو الباطل ، بالفترة الزمنيّة ، أمّا الإسلام وحركة التاريخ فلا ينظر فيها إلى المدّة الزمنيّة المحدّدة وإنّما ينظر إلى قانون تعاقب الأجيال وتوارث الحضارات ، وعلى الإنسان أن يفكّر في الموازين التي تنطبق على الحقّ فيأخذ بها ، ولا يتأثّر بغلبة الباطل وكثرة أتباعه ، بل ينظر إلى العاقبة الطيّبة بأصحاب الحقّ وإنْ كانوا قلّة ، قال تعالى : ﴿**وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾(١) ، ولينظر إلى تغيّر الزمان وتبدّل الأحوال ، وإمكانيّة تغلّب القلّة على الكثرة ، قال تعالى : ﴿**وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ**﴾(٢) ، فاتّباع الحقّ لا يعني أن يكون الأتباع هم من ينتصر ؛ لأنّ النصر له قوانين إذا تحقّقت تحقّق ، وإذا نظر المؤمن بعين البصيرة أدرك أنّ العاقبة لمن كان مع الله تعالى واتّبع قوانينه ، فالعاقبة الحميدة ستكون له ، قال تعالى : ﴿**وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ**﴾(٣) وهذا درس عمليّ يتعلّمه من سار في الصراط المستقيم فلا يتأثّر بقلّة الأتباع ولا بطول الأمد .

عوامل رقّة القلب وقسوته

﴿**وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾

إنّ لطول الأمد تأثيرات سلبيّة منها أيضاً :

---

(١) سبأ ٣٤ : ١٣ .

(٢) آل عمران ٣ : ١٤٠ .

(٣) الأعراف ٧ : ١٢٨ .

قسوة القلب ، وهو مرض يبعد الإنسان عن الحقّ ، ويقرّبه إلى الباطل ، فلا يوفّق صاحبه للوصول إلى الرشد أو الأخذ بالهدى ، وقد أكّدت الروايات على أهمّيّة أن يكون قلب الإنسان خاشعاً ؛ لأنّ أساس الشقاء بقساوة القلب ، فلا يتأثّر صاحب القلب القاسي ولا يتجاوب مع الآخرين ، فلا يحصل على التكامل الروحانيّ لعدم تأثّره بسماع الحقّ ، فيصبح أشدّ قسوة من الصخر لأنّ الصخر يخشع أمّا القلب القاسي فلا يخشع ، قال تعالى : ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾(١) ، مع أنّ المؤمن ينبغي له أن يخشع قلبه ويصبح وجلاً إذا ذُكر الله تعالى أو تُليت عليه آياته ، قال تعالى : ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ**﴾ ، وقال تعالى : ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾(٢) . إنّ بعض الناس يسمع ذكر الله سبحانه وتعالى أو آيات الذكر الحكيم تتلى عليه فلا يُحْدِث ذلك تأثيراً فيه لقساوة قلبه ، وابتعاده عن قِيَم السماء ، بخلاف الخاشع الذي رقّ قلبه ولان بإظهار عبوديّته لله سبحانه وتعالى .

إنّ الأُمم التي طال عليها الأمد فانحرفت في وجدانها لعدم قدرتها على التحمّل وصبرها على الأذى فأصبح الانحراف جزءاً من شخصيّات أفرادها أُصيبت بنفس الداء الذي أصاب المنافقين ، وأدّى إلى تهيئة عوامل الانحراف السابقة فيهم ، وهناك عامل آخر وهو أنّ قسوة القلب تُوجب الابتعاد عن قيم الرسل والأنبياء ، والنزول إلى الدرك الأسفل بنحو تدريجيّ إلى أن يصل إلى الفسق ﴿**فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ ، والفسق تجاوز وتعدٍّ لحدود الإيمان ، قال تعالى :

(١) الحشر ٥٩ : ٢١ .

(٢) الأنفال ٨ : ٢ .

﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾[(١)]، وهو أيضاً تعدٍّ لحدود الله ﷻ ينتج من العاملَين اللذين ذكرناهما: طول الفترة الزمنيّة، وقسوة القلب، وكلّ من العاملين تأثيره عظيم على نفس الإنسان وقلبه، فإذا قسا القلب نتيجة اقتراف المعصية فإنّ الموعظة لن تؤثّر فيه ولن تستطيع أن ترجعه إلى الحقّ، وهذه إشكاليّة كبيرة يصاب بها المؤمن في أوّل درجات الانحراف ثمّ يتدرّج في الانحراف شيئاً فشيئاً إلى درجة عدم التأثّر بالنصائح والمواعظ والآيات الإلٰهيّة، فيتشكّل له مانع يمنع تأثير التوجيهات في نفسه ووجدانه، وقد ذكرت الروايات بعض العوامل التي تقسي القلب، وأهمّها الذنوب.

وذكرت أيضاً العوامل التي تُرقّق القلب كالصوم ـ خصوصاً صوم شهر رمضان ـ الذي أكّدت الروايات عن الرسول ﷺ وأهل البيت عليهم السلام أنّه من العوامل التي ترقّق قلب الصائم، فإذا رقّ قلبه تذكّر جوع وعطش الفقراء فتجاوب معهم[(٢)]، أمّا الذي لا يخشع قلبه ولا يرقّ فلا يمكنه أن يتجاوب مع الآخرين، لكونه لا يذكر آلاء الله ﷻ وعظمته وقدرته. كما أنّ من عوامل رقّة القلب المشي مع المؤمنين والفقراء والمساكين والتواضع في السلوك، وحينئذٍ يرقّ القلب بنحو طبيعيّ.

أمّا من مشى مع المتغطرسين وأصحاب الثروات المبتعدين عن المنهج الإلٰهيّ فإنّ ذلك يقسي القلب ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، بل قد يخرجه عن الشريعة ويتعدّى عليها.

---

(١) الطلاق ٦٥: ١.

(٢) عن الإمام الصادق عليه السلام في علّة تشريع الصيام: «**لِيَسْتَوِيَ بِهِ الْفَقِيرُ وَالْغَنِيُّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ الْغَنِيَّ لَمْ يَكُنْ لِيَجِدَ مَسَّ الْجُوعِ فَيَرْحَمَ الْفَقِيرَ؛ لِأَنَّ الْغَنِيَّ كُلَّمَا أَرَادَ شَيْئاً قَدَرَ عَلَيْهِ، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يُسَوِّيَ بَيْنَ خَلْقِهِ، وَأَنْ يُذِيقَ الْغَنِيَّ مَسَّ الْجُوعِ وَالْأَلَمِ لِيَرِقَّ عَلَى الضَّعِيفِ وَيَرْحَمَ الْجَائِعَ**» علل الشرائع: ٢: ٣٧٨.

ما معنى الفسق ؟

الفسق هو خروج عن جادة الشريعة والصواب ، والتعدّي على حدود الله تعالى ، أو الإهمال لما افترضه الله تعالى ، كترك الفرائض من صلاة وصوم ، أو اقتراف حرام يرتكبه ويصرّ عليه ، ويقابله التقوى والتي تساوي العدالة ، وهي الالتزام بأداء الواجبات وترك المحرّمات ، فالعادل هو الذي يلتزم بالإتيان بالواجبات ويترك المحرّمات ، والفاسق هو الذي لا يلتزم بذلك ويقترف المحظور ممّا يؤدّي به إلى سوء العاقبة ، قال تعالى : ﴿**ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَىٰ أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ**﴾ .

إنّ المعصية تؤدّي بحياةالإنسان وإيمانه ، قال تعالى : ﴿**فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ**﴾[١] ، والآية تبيّن أنّ الإيمان منه مستقرّ وثابت ومنه عارية ، وإذا لم يرسّخ المؤمن إيمانه بذكر الله ﷻ والطاعات والعمل الصالح ، فقد ينسلخ عن الإيمان وذلك من كان إيمانه عارية فيعيش سنوات زمنيّة ثمّ يرحل الإيمان عنه . جاء في الروايات أنّ بعض المؤمنين لا يستطيع الحفاظ على إيمانه ، وفي وقتنا الحاضر نشاهد أمثلة لذلك والإيمان كالثروة ، يستطيع بعض الناس أن يحافظ على ثروته لكونه حذر ويقظ ، وإذا اعترضته مشكلة بذل قصارى جهده للحفاظ على أمواله ، وبعض الناس لا رعاية له ولا اهتمام بأمواله فيخسر الكثير من الصفقات إلى أن تؤدّي به الخسارة إلى فقد أمواله .

إنّ الإيمان كالثروة والشجرة فالثروة تحتاج إلى استثمار والشجرة تحتاج إلى رعاية ، والإيمان يحتاج إلى ترسيخ لينمو كالشجرة الباسقة ، أو يزول ويذبل بعدم التعهّد له بالعمل الصالح وذكر الله تعالى ، ويصبح الإنسان بعد زوال إيمانه في عداد الفسّاق .

---

(١) الأنعام ٦ : ٩٨.

اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

الحياة والموت في الآية

تتحدّث الآية المباركة عن الحياة والموت، ولا شك أنّ الحياة وجود، أمّا الموت فقد يظنّ بعض أنّه عدم وفناء، غير أنّ القرآن يؤكّد على أنّه نحوٌ من الوجود، قال تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾(١)، أي أنّ الموت في الآية نحو من الوجود كالحياة، وليس هو عدم وفناء كما يتصوّر بعض، وقد جاء في الروايات: «**إِنَّمَا نَتَحَوَّلُ مِنْ دَارٍ إِلىٰ دَارٍ**»(٢)، وأكّد القرآن عندما تحدّث عن الحياة الدنيا بأنّها غرور ومتاع قال تعالى: ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾(٣)، فالحياة الدنيا متاع قليل، والدار الآخرة هي الحيوان وأساس الحياة.

الموت نحو من الحياة؛ إذ أنّ الحياة هي الحسّ والحركة، أو ما ترتّب على الحياة كالعلم والقدرة. فإذا أُريد تعريف الكائن الحيّ بُحث عن آثاره المترتّبة عليه فعُرف بها، وأكبر الآثار القدرة والعلم والحسّ والحركة، ومن اتّصف بذلك فهو موجود حيّ أمّا إذا زالت هذه الآثار فقد انعدمت الحياة.

والحياة سواءً كانت هي الحسّ والحركة، أو ما يترتّب على ذلك كالعلم والقدرة، أو هما معاً، فإنّ الله ﷻ هو الذي أوجد مظاهر الحياة في الموجودات، فهي لم يكن

---

(١) الملك ٦٧: ٢.

(٢) بحار الأنوار: ٥: ٣١٣.

(٣) آل عمران ٣: ١٨٥.

لديها حسّ ولا حركة ، ثمّ إنّ الله ﷻ بقدرته جعلها تحسّ وتتحرّك .

الأشياء كلّها بما فيها الأرض كانت دون حسٍّ ولا حركة أي ميتة ، فأسبغ عليها الله تعالى نعمته وأضفى عليها الحسّ والحركة فجعلها حيّة ، قال تعالى : ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ ، وهذا مظهر من الحياة يوجب الأُنس ، فالإنسان إذا كان يحسّ ويتحرّك ، يجالس ويؤنس به ، أمّا إذا مات وفقد الحسّ والحركة استوحش منه ، وحدث خوف منه لأقرب المقرّبين إليه من الأصدقاء الحميمين ، ويدلّ ذلك على أنّنا ألفنا الحسّ والحركة في الجسد ، ومجرّد زوالهما عنه نستوحش منه ونبتعد عنه ، ويُنبّهنا الله ﷻ على أنّ الجسد الذي لا يتحرّك كالأرض الميّتة التي لا حركة فيها ، قد يُنزل الله ﷻ عليها وابلاً من المطر فتتحرك ، قال تعالى : ﴿**اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾(١) تَدُبُّ فيها الحياة ، والإنسان كذلك قد يكون فاقداً لكلّ مظاهر الحياة ثمّ يمنحه الله تعالى الحياة ، بربطه بعناصر توجب له الحياة ؛ إذ أنّ الحياة لا تكون ذاتيّة له ، فوجود الحيّ واستمراره مرتبطان برابط حاجته لغيره من عناصر توجب له الحياة ـ كالهواء والغذاء ـ فهما أساسيّان لاستمرار حياته وإذا انعدما مات الحيّ .

يرتبط الإنسان في وجوده بما حوله من الأشياء ، يتأثّر بها ويؤثّر فيها ، والله ﷻ ينبّه الإنسان على هذا الارتباط والتأثّر ليس بين المادّيّات والمحسوسات فحسب ، بل يشمل الأُمور غير المحسوسة والمعنويّات ، فحياة القلب المعنويّة ترتبط بذكر الله ﷻ ، كارتباط الحيوان والنبات بالماء ، فذكر الله تعالى يحي القلب ويطمئنه ، قال تعالى : ﴿**أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ**﴾(٢) .

والآية الكريمة تتمّة وتكملة لآية السابقة ، وهي قوله تعالى : ﴿**أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا**

---

(١) الحجّ ٢٢ : ٥ .

(٢) الرعد ١٣ : ٢٨ .

أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ ﴾.

معاني إحياء الأرض في الآية

لإحياء الأرض بعد موتها معانٍ:

الأوّل: هو ما تقدّم من تحقّق مظاهر الحياة من حسّ وحركة، فالأرض حياتها بمعنى أن تكون حيّة وصالحة للحياة كما إذا نزل عليها المطر فاخضرّت بعد جدبها، قال تعالى: ﴿**وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ**﴾(١).

الثاني: أنّ إحياء الأرض يكون ببسط العدل وإزالة الظلم. ورد في الروايات عن أئمّة الهدى عليهم السلام تطبيقاً للآية المباركة على الإمام المهدي عليه السلام، وتؤكّد بعض الروايات أنّ قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ يشير إلى حياة الأرض ببسط العدل ودفع الظلم والجور، وهو تطبيق وكناية عن أنّ الكثير من النفوس تتأثّر وتموت، غير أنّ الله تعالى يحييها بتهيئة الأُمور للإمام المهدي عليه السلام فتحيا الأرض بعد موتها ببسط العدل بين الخلائق.

الثالث: إنّ المقصود من إحياء الأرض بعد موتها إحياء نفس الإنسان بتقوى الله سبحانه وتعالى، والسير على منهاج الصلاح؛ لأنّ نفس الإنسان ميّتة بارتكاب المعاصي والذنوب، وبعد تذكّر الإنسان لربّه وخوفه من ذنبه تحيا نفسه، ويكون إحياء نفسه بالسير على جادة الصواب والهدى.

وهذا تطبيق آخر يغاير التطبيق الأوّل، ويختلف عن المعنى الثاني؛ لأنّ المعنى الثاني طُبّقَ على بسط العدل الاجتماعيّ لكلّ الناس، أمّا هذا ـ أي المعنى الثالث ـ فهو تطبيق على بسط العدل والسير على جادة الصواب في الجانب الأخلاقيّ

---

(١) الحجّ ٢٢: ٥.

والتربويّ لبناء نفس الإنسان الذي يُشكّل لَبِنَة لبناء المجتمع الصالح.

والمعنى الثاني ـ الإحياء ببسط العدل وإزالة الظلم ـ يشمل المعنيين الأوّل والثالث. وعلى هذا الأساس قال العلماء: إنّ المجتمع إذا سار على العدل فإنّ ذلك سوف يُؤثّر على سلوك أفراده إذا كانت نفوسهم لديها الاستعداد للسير على الهدى. وليس هذا خاصّاً بالإمام المهدي عليه السلام، لكونه عليه السلام المظهر الأكبر للعدالة الإنسانيّة، وإنّما يشمل غيره عليه السلام، فكلما وجد المقتضي لهداية النفس وصلاحها وبسط العدل سوف يتحقّق صلاح الناس، ويهتدي الخلق لطريق الحقّ والرشد.

ورد في الروايات عن النبيّ صلى الله عليه وآله: «**إقامة حدٍّ من حدود الله خيرٌ من مطر أربعين ليلة في بلاد الله عزّ وجلّ**»(١)، فإقامة الحدّ على من يشرب الخمر أو يرتكب الزنا أفضل عند الله سبحانه وتعالى من نزول المطر وسقي الأرض بالغيث أربعين مرّة، فإنّه يعود إلى أنّ تأثير إقامة الحدّ الشرعيّ أكبر من الناحية الوضعيّة في عالم الخارج؛ إذ أنّ تطبيق الحدود يوجب استقامة الناس وعدم انحرافهم عن الهدى والصواب، فيكون المعنى الثاني الذي ذكرناه ـ والذي طُبّق في الروايات ـ على أن إحياء الأرض بعد موتها إنّما هو بإقامة العدل، ويكون شاملاً للمعنى الأوّل، فاخضرار الأرض الجدباء بنزول المطر عليها، وشاملاً للمعنى الثالث أيضاً، وذلك أنّ إحياء نفس الإنسان بالتقوى مصداقه الواضح إقامة العدالة الكاملة على الكرة الأرضيّة، وهناك مصاديق أقلّ وضوحاً كإقامة العدل في بقعة من بقاعها.

إذن تطبيق العدالة الإلٰهيّة وجعل الناس يسيرون على منهاج الله سبحانه وتعالى يوجب الاستقامة والهدى، ويوجب البركة، فتكون الأرض يانعة الثمار مخضّرة، وبهذا الإحياء تكتمل النفوس.

وهناك تعبير جميل للعرفاء يقول: «إنّ المؤمن يكون كمالاً لنفسه وكمالاً لغيره»،

---

(١) سنن ابن ماجة: ٢: ٨٤٨.

أي أنّ من يسير على منهاج الله ﷻ لا يُكمّل نفسه فحسب بل يُكمّل الآخرين ويوجب الخير والهدى لكلّ من يشاركه في الإنسانيّة، ويعمّ هذا الخير الكون بأكمله يستفيد الجميع من خير هذا الإنسان المؤمن. قال تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾.

توحيد الربوبيّة في الآية

ونشير هنا إلى مطلبٍ عميقٍ في قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾، يرتبط بـ ﴿**اعْلَمُوا**﴾؛ إذِ العلماء يقولون: إنّ هذا أمر إرشاديّ، فالله ﷻ يأمرنا أن نعلم بأنّ الحياة هي منه، ويؤكّد العلماء على أنّ هذا الأمر الإرشاديّ يشير إلى توحيد الربوبيّة لله ﷻ، فالربّ هو الله ﷻ وجميع عالم الوجود يستمدّ ما لديه من نِعَمه ﷻ.

الأدلّة على توحيد الربوبيّة

وقد أقام العلماء منذ القديم على هذا المطلب براهين متعدّدة:

الأوّل: برهان العلّيّة.

ويقوم هذا البرهان على أساس أنّ الله ﷻ هو علّة العلل، بمعنى أنّ جميع العلل التي تؤثّر في عالم الوجود لها علّة هي الله ﷻ، وهو تعالى إمّا علّة بلا واسطة كما في إيجاده الصادر الأوّل، الذي عُبّر عنه في الروايات: «قُلْتُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَوَّلُ شَيْءٍ خَلَقَ اللهُ تَعَالىٰ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: **نُورُ نَبِيِّكَ يا جابِرُ**»(١)، أو في إيجاده بقيّة الأشياء بوسائط، كالماء واسطة في إنبات الزرع، ونهاية المطاف ترجع إلى الله ﷻ.

---

(١) بحار الأنوار: ١٥: ٢٤.

إذن قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تأكيد منه تعالى على أنّ علّة حياة الأرض وعلّة جميع عالم الوجود وما فيه من موجودات هو الله تعالى، وهذا الدليل مشهور لدى الحكماء.

الثاني: وقد أقام بعض علمائنا دليلاً آخر يَقرُب من هذا الدليل، غير أنّه يتّصف بدقّة أكبر، وينسجم مع آي الذكر الحكيم بنحو أقرب، وهو أنّ الله تعالى مبدأ لكلّ موجود في الكون، وجميع الموجودات في الكون ليس لها استقلال حتّى يكون بعضها علّة للبعض الآخر، فلا توجد علّة تامّة في التأثير بالاستقلال من دون استناد إلى شيء آخر سوى الله تعالى، فهو المؤثّر بنحو مطلق، وما سواه تعالى يحتاج في تأثيره إليه تعالى، فالشمس لها مجموعة من الخواصّ وجميع خواصّها إنّما تكون باستنادها إليه تعالى، ولولا أنّ الله تعالى يعطيها الخواصّ لم تتّصف بالصفات الخاصّة والمميّزة لها عن غيرها، وكذا القمر وبقيّة الموجودات كالماء فإنّ خاصيّته الإرواء وذلك بالاستناد إلى الله تعالى، وكذلك القدرة على الإحياء لبعض الأنبياء ترجع إليه تعالى، قال تعالى: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ﴾[1]، أي أنّ الجميع في تأثيره في عالم الكون يستند إليه تعالى، النار في إحراقها تستند إلى الله تعالى، فتحرق بإذن الله، ولولا أنّ الله أعطاها خاصيّة الإحراق لم تؤثّر، قال تعالى: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَىٰ إبراهيم﴾[2]، والأمر يشمل جميع الموجودات، فكلّ موجود منها يؤثّر بإذن الله تعالى، ولا يوجد مؤثّر بالاستقلال دون الله تعالى.

وخلاصة الدليلين هي أنّ الأوّل منهما يبيّن أنّ بعض الموجودات تُؤثّر في بعضها الآخر، ونهاية التأثير ترجع إلى الله تعالى، أمّا الثاني فيؤكّد أنّ التأثير إنّما يكون بإذن الله والأشياء تستمدّ تأثيرها ووجودها منه تعالى.

---

(١) آل عمران ٣: ٤٩.

(٢) الأنبياء ٢١: ٦٩.

والدليل الثاني أدقّ وأعمق من الدليل الأوّل، فعالم الوجود يستند إلى الله ﷻ، وما عدا الله ﷻ يفتقر إليه، وعند تطبيق هذا المبدأ على عالم الإنسان نرى ذلك جليّاً بيّناً قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾(١)، الله ﷻ هو الغني والناس هم الفقراء. والكون بكلّ ما فيه يفتقر كلّ موجود فيه إلى الموجودات الأُخرى، فالحيوان والنبات لا يعيشان دون الأوكسجين والغذاء والشمس والقمر، ولولا أنّ الأرض تحتوي على المقوّمات الأساسيّة للعيش فيها لما استطاع أحد البقاء عليها، فوجود الحيوان والنبات يرتبطان بسلسلة، وكذا الحال مع بقيّة الموجودات الأخرى، كلّ موجود منها يُؤثّر في غيره ويتأثّر بغيره، ويفتقر في تأثيره وتأثّره إلى الله تعالى.

قال العلماء: إنّ الموجودات في عالم الكون يفتقر بعضها إلى بعضها الآخر إلّا الوجود الحقّ تعالى فلا يفتقر إلى شيء. وقد أبان الله ﷻ هذه الحقيقة، قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، والآية تفصح عن توحيد الربوبيّة الذي لا بدّ من الوصول إليه باليقين، فلا يكون الإنسان موحّداً لله ﷻ إلّا إذا اعتقد بذلك، مضافاً إلى الاعتقاد بوحدة الذات، فمن اعتقد بوجود مؤثّر مستقلّ التأثير من دون الله تعالى فقد أشرك بالله تعالى في توحيد الربوبيّة؛ لأنّ توحيد الربوبيّة هو الاعتقاد بأنّ الله ﷻ الواحد الفرد الصمد الذي لا مؤثّر في عالم الوجود بالاستقلال غيره.

ولا بدّ من التأكيد على كلمة (بالاستقلال) التي تميّزنا عن غيرنا من الذين يعتقدون أنّه لا يوجد مؤثّر مطلقاً، ويسلبون تأثير الأشياء بنحو مطلق، أي حتّى التأثير بغير الاستقلال لا يكون للأشياء، وهذا كلام غير صحيح، فإنّ الله ﷻ هو المؤثّر الحقيقيّ في عالم الوجود، ولكنّه جعل نحواً من التأثير للموجودات بإذنه تعالى،

---

(١) فاطر ٣٥: ١٥.

فجعل للماء خاصيّة الإرواء فهو علّة للإرواء بإذن الله تعالى ، أي أنّ الله ﷻ هو الذي جعل له هذه الخاصيّة ، لذا نجد أنّ الإنسان قد يشرب الماء ولا يرتوي كالمصاب بداء العطاش فلا يرتوي ؛ لأنّ الله ﷻ سلبه خاصيّة الإرواء وجعل الماء لا يؤثّر فيه .

إيضاح الآيات

قال الله تعالى : ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ . الآيات هي الدلالات والعلامات ، وفي عالم الكون دلالات تشير إلى المعاني الثلاثة التي ذكرناها سابقاً .

المعنى الأوّل: هو اخضرار الأرض الجدباء بنزول المطر عليها ونراه عياناً ؛ إذ نشاهد الأرض اليابسة القاحلة إذا نزل عليها المطر تحيا ، بشرط أن يكون لها استعداد وقابليّة للحياة ، أمّا إذا كانت صخريّة لا ينبت فيها النبات حتّى لو نزل عليها المطر ، لقساوتها فلن ينبت شيء فيها ، ولذا نبّهنا الله تعالى على أن تكون قلوبنا خاشعة كي تنبت فيها الحكمة والإيمان . وهناك آيات وعلامات في الخارج تُدلّل على أنّ الأرض الجدباء إذا نزل عليها المطر حدث لها تغيّر عبّر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[(١)] .

والمعنى الثاني: هو الإحياء ببسط العدل وإزالة الظلم ، وليس هناك شخص لا يستشعر أنّ العدل هو أساس التقدّم وأساس الحياة السليمة التي فيها رفاه لكلّ المجتمع الإنسانيّ ، بل رفاه للطبيعة ، فإنّ الاستفادة من الطبيعة تتوقّف على التعامل بعدل معها ، وكذلك العدل في تطبيق القانون وممارسة المسؤوليّة ، فمن كان مسؤولاً عن جماعة إنْ مارس العدل مع أفرادها فإنّ التقدّم والرفاه سيتحقّق لا محالة ، وإنْ مارس الظلم مع أفرادها ، فإنّ ذلك يكون بداية لتفاقم المشاكل حتّى يؤول الأمر إلى اختلال النظام بأكمله . جاء في الروايات عن المعصومين ﷺ :

---

(١) الحجّ ٢٢ : ٥ .

«**الْمُلْكُ يَبْقىٰ مَعَ الْكُفْرِ وَلَا يَبْقىٰ مَعَ الظُّلْمِ**»[١]. إذن من نتائج تطبيق العدالة دوام السلطان والمُلْك مع الكُفْر والعدل ولا يدوم الملك مع الظلم ، والكفر وإنْ كان من الظلم ولكنّه ظلم يخصّ صاحبه ، فإذا عدل الكافر وبسط العدل فذلك يوجب استمرار حكمه وبقائه في سلطانه ، بالإضافة إلى وجود تأثير كونيّ عامّ يترتّب على العدل وإعطاء كلّ ذي حقٍّ حقّه ، ويرشد إلى ذلك افتخار النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه ولد في زمان سلطان عادل وهو النجاشيّ أو كسرى .

كما أنّ العدل لا تختصّ آثاره الوضعيّة بعالَم الدنيا ، بل تنعكس على ذلك السلطان العادل بنحو إيجابيّ في عالم الآخرة ، فالله تعالى لن يعذّبه في عالم الآخرة وإنْ كان لا يدخل الجنة التي يدخلها المؤمنون ولكنّه يرفع عنه العذاب ، وهذا تأثير إيجابيّ كبير .

وينبغي أن نلحظ أنّ المعنى الشامل للإحياء الذي أشارت له الآية : ﴿**اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا**﴾ ونطبّقه على الحياة الكاملة التي تتحقّق على يد إمامنا المهدي عليه السلام ، وقد أشارت إليها الروايات القائلة : إنّ حياة الأرض بعد موتها بإقامة العدل بعد الجور ، والقسط بعد الظلم « **يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً** » ، ويتحقّق ذلك بنحو كلّيّ يشمل الكرة الأرضيّة ، ويتحقّق أيضاً بنحو جزئيّ في مجتمع مصغّر يسوده العدل ، فيتحقّق فيه لذلك تقدّم ورفاه مطّرد على كلّ الأصعدة ، أي على الصعيد الاقتصاديّ والاجتماعيّ والفكريّ والثقافيّ وبقيّة الأصعدة . ويشير إلى هذا المعنى قوله تعالى : ﴿**قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ**﴾ .

إذن هناك دلائل وعلامات واضحة للجميع وشاملة لنفس الإنسان التي تموت بالظلم ، الذي يقترفه من خلال ارتكابه للذنوب والمعاصي ، فإذا التفت إلى نفسه

---

(١) شرح اُصول الكافي : ٩ : ٣٠٠.

وبدأ بسقاية أرض نفسه الجدباء بذكر الله تبارك وتعالى والتوبة والاستغفار والعمل الصالح فإنّ نفسه تحيا من جديد.

أقسام الناس في رؤية الآيات

قال تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ إنّ بعض الناس يستفيد من الآيات والدلائل ويعقلها ويأخذ العبرة منها، وبعضهم الآخر يغفل عن ذلك، ويمرّ بالآيات دون أن يستفيد منها أو يعرض عنها، والآية المباركة لا يعقلها كلّ إنسان، وإنّما يعقلها من التفت إليها وهم أصحاب الألباب والعقول الذين عُبّر عنهم بمن يعقل، والعاقل هو من يلتفت إلى الأشياء ويقارن بينها ويدرك ما يترتّب عليها من الآثار.

ويعلم العاقل أنّ الله تبارك وتعالى هو الذي يعطي الحياة، وأنّ الحياة متعدّدة أهمّها حياة القلب، وتتحقّق بذكر الله تبارك وتعالى.

معنى العقل

قال تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ أي لعلّكم تستفيدون من الآيات بالمعاني الثلاثة المتقدّمة للإحياء، وتطبّقون ذلك على أنفسكم من خلال ما تمتلكونه من عقل، والعقل في اللغة مأخوذ من عقلت البعير أي منعته من الانطلاق إذا لم يوجد له مرشد، وعقل الإنسان كذلك هو الذي يربط الإنسان عن الوقوع في المحذور، ويبعده عن الغيّ، جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام عندما سُئِل عن العقل فقال عليه السلام: «**مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ، وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجِنَانُ**»[1]، العقل يعبّد الإنسان لله تبارك وتعالى ويكسبه الجنة إذ يجعله يتقدّم دائماً إلى الأمام مستمدّاً

(١) الكافي: ١: ١١. المحاسن: ١: ١٩٥.

من الله تعالى الهداية الموصلة إلى الخير. ثمّ قيل للصادق عليه السلام: فَالَّذِي كَانَ فِي مُعَاوِيَةَ؟ فمعاوية كان ذكيّاً يستفيد من كلّ شيء ويسخّره لصالحه في عالم المادّة وفي مصالحه الشخصيّة، فقال عليه السلام: **تِلْكَ النَّكْرَاءُ، وَتِلْكَ الشَّيْطَنَةُ، وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِالْعَقْلِ وَلَيْسَتْ بِعَقْلٍ**»(١)، أي أنّ الذي يستفيده معاوية هو الشيطنة لأنّه يبيع آخرته بدنياه، وهذه ليست الاستفادة الصحيحة من العقل في إصلاح الدين والدنيا.

والعقل الذي تحدّثت عنه الآية هو ما فُسِّر في روايات الأئمّة عليهم السلام أي ما عُبد به الله تعالى واكتسب به أرفع الدرجات في الدنيا والآخرة.

والنتيجة التي نصل إليها هي أنّ الناس على قسمين في الاستفادة من الآيات:

الأوّل: هو الذي يتعقّلها ويعتبر بها، وهم القلّة. قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**ما أَكْثَرَ الْعِبَرَ وَأَقَلَّ الاعْتِبارَ**»(٢) قليل من الناس هم الذين يستفيدون من الآيات لتطبيقها على واقعهم بالأنحاء الثلاثة التي ذكرت في معنى الإحياء.

الثاني: هم الذين لا يستفيدون من الآيات مع أنّهم يسمعونها غير أنّهم لا يبالون بها ولا يتأثّرون بما تحويه من عِبرة وحكمة، لتبلّد إحساسهم تجاه الآيات، فهم المصداق لقوله تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِنْ آيَةٍ فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ**﴾(٣)، لا يستفيدون من تلك الآيات لإعراضهم أو غفلتهم.

الأحياء الذي يحقّق الرقيّ

إنّ ما ذكرناه في المعنى الثاني للإحياء ـ أي بسط العدل وإزالة الظلم ـ هو الذي يؤدّي إلى رقيّ المجتمع في كلّ جوانبه في الجانب الاقتصاديّ والاجتماعيّ

---

(١) الكافي: ١: ١١. المحاسن: ١: ١٩٥.

(٢) نهج البلاغة: ٥٢٨ (صبحي الصالح).

(٣) يوسف ١٢: ١٠٥.

والثقافيّ، وغير ذلك من الجوانب ولا شكّ في ذلك، فمنذ بداية عهود الإنسانيّة إلى يوم الناس هذا نجد أنّ كلّ مكان ينتشر فيه العدل تُسرع وتيرة التقدّم على الأصعدة المختلفة، ويستفيد الإنسان إذا طبق الخير واستقام على الهدى، ويجد آثار البركة لاستقامته لا تخصّه وحده بل تشمل من معه وتتعدّاه إلى نسله ويصبح كالغيث عندما ينزل تعمّ فائدته جميع الأراضي.

إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

أهمّيّة الإنفاق

ورد التوكيد في هذه السورة المباركة أكثر من مرّة على الإنفاق والبذل في سبيل الله، كما ذكرنا ذلك في الآية العاشرة وهي قوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلّٰهِ مِيرَاثُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾، وهذه الآية تؤكّد على الإنفاق أيضاً.

مفردات الآية.

المصدّقين جمع للمتصدّق، والمُصدّقات جمع للمتصدِّقة، والصدقة هي العطيّة التي تُدفع من الإنسان لغيره من أجل تحقيق هدف كرفع حاجة الغير ورفع العوز عنه، أو توكيد أواصر الصداقة والمحبّة، أو لدفع البلاء، وما إلى ذلك من الأُمور.

وأمّا القرض في الآية ﴿**وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً**﴾ فهو إعطاء المال للغير للاستفادة منه، ومن ثَمّ يُرجعه بعد ذلك. والقرض يوصف بالحَسَن باعتبار أنّ القرض بُني على عدم الزيادة فيه، أي لا يأخذ المُقرِض من المقترِض زيادة

ولذلك وصف بالحسن .

وُصِفَ بذل المال في سبيل الله بالقرض الحسن ، أي أنّ المال الذي دُفع في سبيل الله هو قرض لله ﷻ اقترضه مِمّن دفعه وسوف يُرجعه الله ﷻ إليه أضعافاً مضاعفة ، ولا يَرجع المال أضعافاً مضاعفة فقط بل أكثر من ذلك ، فالله يعطي من أقرضه الأجر الكريم ﴿وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ ، والأجر الكريم فسّر بتفسيرات متعدّدة ، منها أنّه الثواب والجزاء الذي لا يعلم به إلّا الله ﷻ .

الأبحاث الهامّة في الآية

في الآية أبحاث هامّة تتعلّق بالإنفاق في سبيل الله تعالى نسلّط الضوء عليها .

الأوّل : العطاء الجماعيّ .

إنّ أوّل أمر يلفت نظرنا في قوله تعالى : ﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ** ﴾ هو صيغة الجمع في المصدّقين والمصدّقات الذي يريد الله تعالى به التأكيد للأُمّة على أنّ البذل (العطاء) ينبغي أن يكون بصورة جماعيّة ؛ لأنّ العمل الجماعيّ هو القادر على حلّ مشاكل المجتمع . والإنسان عندما يقوم بعمل بمفرده فإنّ الله ﷻ سيعوّضه ويعطيه ، ولكن إسهام الفرد لا يستطيع أن ينتشل الواقع المتردّي للمجتمع ككلّ ؛ لأنّ الخلل الذي يحدث في المجتمع يرتبط بالمجتمع كلّه .

الفوارق الطبقيّة في المجتمع

الثاني: هناك مشكلة اجتماعيّة ترتبط بالمجتمع ككلّ ، وهي مشكلة واجهتها الإنسانيّة طوال تاريخها ، وهي مشكلة الفوارق الطبقيّة بين الناس في تفاوتهم في امتلاك المال ، وهذه مشكلة يريد الله ﷻ أن يحدّ منها للآثار السلبيّة المترتّبة عليها ، وما نشاهده في عصرنا من آثار سلبيّة كبيرة تترتّب على التفاوت في امتلاك الثروات هناك شعوب تعيش الفقر والفاقة والعوز والمسكنة وشعوب تعيش الرفاه الاقتصاديّ

الكبير ، وتقوم بإتلاف الكثير من الأطعمة في سبيل أن لا ينقص سعر ذلك الطعام ، بينما تتضوّر شعوب أُخرى هي بأمسّ الحاجة إلى لقمة العيش .

الفوارق الطبقيّة في ظلّ النظريّات المتعدّدة

إذن هناك مشاكل تواجهها الأُمم والمجتمعات كمشكلة الفوارق الطبقيّة ومشكلة الترف الماليّ المؤدّي إلى الإسراف والتبذير ، بينما يعيش الآخرون الفقر بسبب فقدان الطعام ، والقضاء على هذه الفوارق كان من الأهداف لكثير من المفكّرين الذين قالوا بنظريّات متعدّدة على امتداد التاريخ الإنسانيّ من أجل هذه المشكلة المعقّدة ، وأهمّ النظريّات في عصرنا :

النظريّة الشيوعيّة

التي عُدِّلت فيما بعد إلى الاشتراكيّة ، وتتمحور هذه النظريّة في إلغاء ملكيّة الفرد ، وحصر الملكيّة للدولة فقط ، فهي التي تملك دون الأفراد . والهدف من هذه النظريّة إزالة الفوارق الطبقيّة بين الناس . وقد سقطت هذه النظريّة لأنّها أغفلت جانباً هامّاً في شخصيّة الإنسان وهو الملكيّة الشخصيّة ، فإنّ الله تعالى فطر الإنسان على حبّ التملّك وجعل ذلك غريزة فطريّة لا يستغني عنها كالأكل والشرب وممارسة الجنس وما إلى ذلك ، وكلّ من يحارب هذه الفطرة ويكبّلها سوف يفشل ، وهذا ما حدث مع النظريّة الشيوعيّة والاشتراكيّة .

النظريّة الرأسماليّة

ثمّ حاولت النظريّة الرأسماليّة أن تحافظ على الملكيّة بأقصى حدودها ، فأتاحت للإنسان أن يملك ما يشاء كيف شاء ، أي أنّ للإنسان أن يُنَميٍّ أمواله بأي طريق في سبيل تحقيق غريزة التملّك ، وحاول أصحاب هذه النظريّة أن يقضوا على الفوارق الطبقيّة بمشكلة البذل ، أي تشجيع بذل الإنسان لأخيه الإنسان ومساعدته

الآخرين ، وقالوا إنّ مساعدة الآخرين أمر فطريّ ، إلّا أنّه حتّى لو ساعد الثريّ غيره فلن يستطيع حلَّ مشكلة الطبقيّة ، وذلك أنّ كثيراً من الناس لن يعطيَ ولو أعطى بعض الرأسماليّين وبنى مستشفى أو أسّس داراً للأيتام فلن تستطيع القلّة التي تجود بأموالها أو ببعضها حلّ مشكلة الفوارق الطبقيّة بين الناس ، ولن تسطع جعل المجتمعات الإنسانيّة تعيش في وئام وانسجام .

النظريّة الإسلاميّة

أمّا النظرية الإسلاميّة فتبتني على أساس أنّ الله ﷻ افترض حقّاً في مال الغني للفقير . بالإضافة إلى تشجيع البذل والإنفاق في سبيل الله تعالى ، وقد جاءت الآيات القرآنيّة لحضّ الإنسان على البذل والعطاء ، قال تعالى : ﴿**وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً**﴾[١] .

وقال تعالى : ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ** ﴾[٢] .

ووبّخ من لم ينفق قال تعالى : ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلّهِ مِيرَاثُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ ، تبين الآية لماذا لا يبذل المال في سبيل الله والحال أنّه ليس بملك للإنسان ، وإنّما هو مخوَّل وله التصرّف فيه ، فإذا لم يعطه في سبيل الله تعالى فسوف يخرج من يده ؛ لأنّ الله ﷻ سوف يرثه ، أمّا من أعطاه لله تعالى فقد ملكه وسوف يحصل على العوض والجزاء من عند الله ﷻ ، إنّ زوال المال لكونه يميل عن صاحبه ، ويخرج عن يده ، إمّا بالإرث أو بالغصب أو بالخسارة والتلف .

قال رسول الله ﷺ : **أيّكم ماله أحبّ إليه من مال وارثه ؟** قالوا : يا رسول الله ، ما

---

(١) مريم ١٩ : ٣١.

(٢) البقرة ٢ : ٢٦١.

منّا أحد إلّا ماله أحبّ إليه من مال وارثه ، قال : **اعلموا ما تقولون** ، قالوا : ما نعلم إلّا ذاك يا رسول الله ، قال : **ما منكم من أحد إلّا مال وارثه أحبّ إليه من ماله** ، قالوا : كيف يا رسول الله ؟ قال : **إنّما مال أحدكم ما قدّم ، ومال وارثه ما أخّر**[١] .

قال تعالى : ﴿**وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ . إنّ الله تعالى هو الوارث الذي يرث جميع ما في السماوات والأرض ، وهو تعالى يشوّق الإنسان على البذل في سبيله ليحصل على رضاه ، وقوله تعالى : ﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً**﴾ نوع من التشويق لمن يعطي المال في سبيله تعالى ، وبيان أنّه إنْ لم يعطه في سبيله فإنّ الله تعالى سيرثه منه قال تعالى : ﴿**وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ .

إنّ هذا اللطف الإلهيّ والتشويق من أجل جعل المؤمن يعطي في سبيل الله بلا حدود ، وقد علّمنا الأئمة من أهل البيت عليهم السلام على البذل الذي لا يختصّ بالغنيّ من الناس ، وإنّما يشجّع على الإنفاق حتّى الفقير ، وما جاء في زكاة الفطرة من عدم وجوبها على الفقير مع التحبيذ والاستحباب له أن يخرج صاعاً من الطعام ثمّ يديره على عائلته ، بحيث يتصدّق به كلّ فرد على الآخر ثمّ يُعطى للأجنبيّ . والرسول صلى الله عليه وآله والأئمّة عليهم السلام يعلّمون الفقراء البذل في سبيل الله تعالى حتّى إذا كانوا لا يجدون المال فلا ينبغي لهم التردّد في إنفاق بعضه ، وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلمة رائعة يعلم الناس فيها كيف يعطون ، قال عليه السلام : « **مَنْ يُعْطِ بِالْيَدِ الْقَصِيرَةِ يُعْطَ بِالْيَدِ الطَّوِيلَةِ** »[٢] ، أي إذا أعطيت القليل وخفت على المال فسوف يأتيك يوماً يُنفقُ عليك ، أمّا من أعطى الكثير فالله تعالى يجعله مصدراً للعطاء ويخلف عليه ويرزقه من حيث لا يحتسب ، ويكون محبوباً لله تعالى إذا كان مصدراً للبذل والكرم والجود ،

---

(١) كنز العمّال : ٦ : ٥٨١ ، الرقم ١٧٠٠٥ .

(٢) نهج البلاغة : ٥٠٩ (صبحي الصالح) .

فإنّ الله يحبّه ويعطيه الخير والعوض في الدنيا والآخرة وذلك أجر كريم. قال تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ**﴾، لا يستطيع أحد أن يعرف الجزاء الإلهيّ كيف يتحقّق، وبأيّ نحو من الأنحاء سيكون عوضاً عمّا بُذل في سبيله تعالى: ﴿**وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ**﴾، لعلّ أفضل تفسير للأجر الكريم ما جاء عن النبيّ ﷺ وأهل البيت عليهم السلام من أنّ الإنسان له في الآخرة: ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على خيال بشر»، أي أنّ العقل الإنسانيّ غير قادر على إدراك ما أعدّه الله سبحانه وتعالى له في عالم الآخرة.

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

أُصول الدين ثلاثة وهي: الإيمان بالله سبحانه وتعالى، والإيمان بالرسالة، والإيمان باليوم الآخر، أي يوم القيامة، هذه أُصول الدين.

وعندنا ـ نحن الإماميّة ـ يضيف العلماء اثنين هما: العدل والإمامة، غير أنّ العدل يندرج في التوحيد والإيمان بالله تعالى؛ وذلك أنّ العدل من صفات الله عزّ وجلّ والإيمان به يستلزم الإيمان بصفاته، أمّا الإمامة فهي استمرار للتطبيق السليم للرسالة والنبوّة، ولذا استدلّ العلماء بأدلّة عقليّة لإثباتها كدليل اللطف، وهو دليل عامّ يدلّل على الإيمان بالرسالة والإيمان بالإمامة، فيكون الإيمان بالإمامة مندرجاً في الإيمان بالرسالة.

إنّ الإيمان بالله تعالى أكّد عليه بتأكيدات كثيرة، من أهمّها أنّ أعمال الإنسان التي يأتي بها لن تؤهّله للوصول إلى درجات رفيعة في عوالم الغيب ما لم يكن مؤمناً بالله تعالى، أمّا إذا كان من المؤمنين بالله تعالى، وقام بعمل لله تعالى، فإنّه سيجازيه

بجزاء يختلف عمّن عمل عملاً حسناً لكنّه ليس له تعالى، فإنّ من عمل عملاً ليس له تعالى قد يحصل على جزاءٍ في الدنيا؛ وذلك أنّ الله تعالى لا يضيّع عمل عامل أبداً، غير أنّه تعالى قد يبطله، قال تعالى: ﴿**وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً**﴾[(١)]، وإبطاله لا يعني أنّ الله أضاعه، فالله تعالى لا يضيّع عمل أحد لأنّ العمل الذي يأتي به الإنسان له فائدة، غير أنّه قد لا يؤهّله للقرب منه عزّ وجلّ؛ لأنّ القرب منه تعالى، والوصول إلى درجات عالية، يرتبط بالإيمان، قال تعالى: ﴿**فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً**﴾[(٢)]، ومن أراد أن يصل إلى مقام ﴿**النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقاً**﴾ عليه الإيمان بأُصول الدين؛ إذ لا يتأتّى للإنسان مهما عمل من أعمال أن يصل إلى المراتب العالية دون إيمان بالله سبحانه.

جاء في الروايات: «أنّ من لم يؤمن بالله فلا يدخل الجنّة»، ويقصد من ذلك الجنّة المعروفة التي وعدها الله تعالى لعباده المؤمنين، وكذا الحال في الإيمان بالنبوّة، فقد جاء في الروايات: «أنّ من لم يؤمن بالنبوّة لا يدخل الجنّة، وأنّ من لم يؤمن بالمعاد لا يدخل الجنّة».

وجاء أيضاً: «أنّ من لم يؤمن بولاية عليّ وأبنائه المعصومين عليهم السلام لا يدخل الجنّة»، والمقصود الجنّة التي ذُكرت في قوله تعالى: ﴿**فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم**﴾؛ لأنّ الدخول في هذه الجنّة له شرائط، منها الإيمان بأُصول الدين، ولذا نجد اقتراناً وتلازماً بين بعض الشروط والجنّة.

وقد أكّد الإمام الرضا عليه السلام ذلك في الحادثة التاريخيّة المشهورة عندما مرّ على

(١) الفرقان ٢٥: ٢٣.

(٢) النساء ٤: ٦٩.

نيشابور وجاءه المحدّثون ـ وكان بعضهم من أكابر علماء العامّة ـ فقالوا له : يابن رسول الله ، حدّثنا بحديث عن جدّك رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ فأخرج الإمام عليه السلام رأسه من المحمل وقال : « **لَا إِلَهَ إِلّا اللهُ حِصْنِي ، فَمَنْ دَخَلَ حِصْنِي أَمِنَ مِنْ عَذَابِي** » ، ثمّ أسدل الستار عليه ومشى بالهودج ، ثمّ كشف الستار وقال عليه السلام : «**بِشُرُوطِهَا ، وَأَنَا مِنْ شُرُوطِهَا** »[١] ، والمقصود هو أنّ هذه الجنّة التي يدخلها الإنسان لها شرائط من جملتها : الإيمان بالأئمّة عليهم السلام ، لكن ليس معنى ذلك أنّ الإنسان لا يدخل الجنّة مطلقاً ، بل يمكن أنّ بعض الناس لا يعذّب بالنار حتّى مع كونه كافراً بالله تعالى ، ولا يُؤمن به كحاتم الطائيّ ، فالتاريخ يحدّثنا أنّ ابنته سُفانة أسرها المسلمون ووقفت تنتظر رسول الله صلى الله عليه وآله عند ذهابه للمسجد كي يفديها ويفكّ أسرها ، وعند مروره صلى الله عليه وآله بها قالت : يا محمّد ، إن رأيت أن تخلي عنّي فلا تشمت بي أحياء العرب ، فإنّي ابنة سيّد قومي ، وإنّ أبي كان يفكّ العاني ، ويحمي الذمار ، ويقري الضيف ، ويشبع الجائع ، ويفرّج عن المكروب ، ويفشي السلام ، ويطعم الطعام ، ولم يردّ طالب حاجة قطّ ، أنا ابنة حاتم طيّ . قال رسول الله صلى الله عليه وآله : **يا جارية ، هذه صفة المؤمن حقّاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحّمنا عليه ، خلّوا عنها ، فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق ، والله يحبّ مكارم الأخلاق** ، فقام أبو بردة بن نيار فقال : يا رسول الله ، الله يحبّ مكارم الأخلاق ؟ قال : **يا أبا بردة ، لا يدخل الجنّة أحد إلّا بحسن الخُلق** »[٢] ، اتّصف بصفة من صفات الله تعالى وهي الكرم ، والله لا يعذّب من اتّصف بصفة من صفاته .

الإنسان كريم على الله سبحانه وتعالى لا يعذّبه رغم عدم إيمانه به ، ولا يُدخله جهنّم ،

---

(١) راجع : عيون أخبار الرضا : ٢ : ١٣٥ . ثواب الأعمال : ٧ . معاني الأخبار : ٣٧١ .

(٢) تاريخ مدينة دمشق : ٣٦ : ٤٤٦ و : ٦٩ : ٢٠٢ . وراجع : أعيان الشيعة : ١ : ٢٨٧ ، السيرة النبويّة : ١ : ١٠٩ و : ٤ : ١٣٢ .

غير أنّه لا يذهب إلى النعيم الذي أعدّه الله تعالى للمؤمنين ، بل يعيش في مرتبة يمكن أن تكون أحسن من عالم الدنيا ، هو في جنّة ولكن ليست الجنّة التي يدخلها المؤمنون ؛ إذْ أنّ شرط دخول الجنة غير موجود لدى حاتم الطائيّ ، هو الإيمان .

وهذه الدرجات التي يدخلها أمثال حاتم يدخلها أيضاً المستضعفون من الناس ، فهناك فِئامٌ من الناس يدخلون أمثال هذه الجنّة ، وهذه الجنّة ليست هي المشار إليها في الآيات والروايات ، والتي لها درجات كما أنّ النار لها دركات .

فالجنّة لا يدخلها من لم تتوافر فيه الشرائط حتّى لو أصبح عمله صالحاً في الخارج ؛ لأنّ العمل الصالح يحتاج إلى شرط كالولاية لأهل البيت عليهم السلام ، ولذا أكّد الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام على الإيمان بولايتهم ، والروايات تؤكّد على أنّ من لا يؤمن بالولاية لا يدخل الجنّة ، أي لا يدخل الجنّة التي يشير إليها القرآن الكريم ، ويكون المرء فيها مع الأنبياء والصدّيقين والشهداء والصالحين ، فهذه الجنّة وهذا المقام لا يتحصّل لكلّ أحد وإنّما لمخصوصين .

قوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾ . الصدّيق فعّيل بمعنى كثير الصدق . هذا معناه لغةً ،ومن الناحية المعنويّة الصدّيق هو الذي تطابقت أقواله مع أفعاله ، وأفعاله مع أقواله ، فلا يفعل إلّا الحقّ ، ولا ينطق بشيء ويفعل عكسه ، أمّا من يقول ما لا يفعل فليس بصدّيق ، ويمكن أن يكون المرء صدّيقاً في القول لكنّه ليس بصدّيق في أفعاله . إذن الصدّيق هو الذي يكون قوله وفعله متطابقين مع ما يريده الله سبحانه منه ، وعلى طبق الموازين الإلٰهيّة .

أقسام الإيمان

قال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ**﴾ ، تأكيد على أنّ الإيمان هو القادر على جعل الإنسان صدِّيقاً ، غير أنّ الإيمان على درجات وليس كلّ درجاته ترفع الإنسان إلى تلك الرتبة ، لذا لا بدّ من معرفة أقسام الإيمان .

الأوّل الإيمان النظريّ

وهو إيمان يتوافر لدى أكثر الناس ، فأكثرهم يتحدّث عن إيمانه بالعقائد ، خصوصاً عندما يسأل عنها ، فيبيّن أنّه يؤمن بالله تعالى وبالمعاد والآخرة ، لكنّه لا يعمل الأعمال الصالحة لتكون زاداً للآخرة التي يعتقد بها ، فهو يؤمن إيماناً نظريّاً فقط .

الثاني الإيمان العمليّ

أمّا المؤمن عمليّاً فلا يكتفي المؤمن بالاعتقاد بأُصول الدين فحسب ، وإنّما يطبِّقَ ما يعتقده ، ولعلّ ما جاء في الروايات يوضّح لنا هذا ، ورد عن رسول ﷺ : « **لَا يَزْنِي الزَّانِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ** »(١) ، والحديث لا ينفي الإيمان من الناحية النظريّة ، ولكنّه ينفيه من الناحية العمليّة ، والعمدة في الإيمان هو الإيمان العمليّ ، قال تعالى : ﴿ **وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ** ﴾ لا بدّ أن يقترن الإيمان مع العمل الصالح ، فمن لم يصدر منه العمل الصالح بل صدر منه العمل السيّئ كالكذب والنميمة والحسد والغيبة واقترف الأعمال السيّئة فليس بمؤمن عمليّاً .

يتفاوت المؤمنون في الإيمان العمليّ ، ويرجع التفاوت بينهم إلى تطبيق ما يعتقدون به ، والذي عبّرنا عنه بالصدق أي مطابقة ما آمن به نظريّاً لما يقوم به من ناحية الفعل والسلوك ، وفي هذا المضمار والسياق تتفاوت الدرجات ، والوصول إلى الدرجة العالية من الإيمان العمليّ يتطلّب كدحاً وعملاً دؤوباً وجادّاً ، أمّا الإيمان النظريّ فهو متاح لكثير من الناس ، لكنّه لا تترتّب عليه فائدة الإيمان العمليّ ، فمن يسرق أو يزني ويرتكب الحرام لا يكون مؤمناً حقّاً .

---

(١) وسائل الشيعة : ٢٠ : ٣١٤ ، الباب ٢ من أبواب النكاح المحرّم ، الحديث ٢٤ .

يرجع أساس التفاوت إلى أُمور، منها العزم والإرادة، فمن يريد أن يصل إلى مراتب عالية في السلوك الأخلاقيّ عليه أن يقوّي إرادته ليحصل على التوفيق من الله تعالى، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ**﴾، الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالرسل؛ إذْ أنّ الإيمان بالله ﷻ يلزم منه اتّباع المنهاج العمليّ، ولا يتحقّق ذلك إلّا من خلال الإيمان برسالات الرسل.

ثمرات الإيمان بالله تعالى ورسوله

الإيمان بالله ﷻ والإيمان بالرسالة واليوم الآخر ركائز أساسيّة للوصول إلى المراتب العالية من الكمالات، إلّا أنّ الآية رتّبت على الإيمان به ﷻ والإيمان بالرسالة ثمرتين هامّتين:

الأُولى: تحقّق مرتبة الصدّيق

من آمن بالله ﷻ ورسله سيكون صدِّيقاً، والصدّيق فعِّيل بمعنى كثير الصدق، وهي صيغة مبالغة، وفُسِّرَ أيضاً الصدّيق بمن تتطابق أقواله مع أفعاله، وكذلك تتوافق أقواله مع أفعاله، فالصدق مستولٍ على أقواله وأفعاله، والصدق هنا رُتِّب على الإيمان بالله ﷻ والإيمان بالرسالات السماويّة.

ولا بدّ من الإشارة إلى ما أكّد عليه القرآن الكريم وهو أنّ جميع الرسالات السماويّة أمرها وحدانيّ مشترك، قال تعالى: ﴿**آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِن رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كَلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾(١)، أخذ الإيمان برسالات الأنبياء كأمر وحدانيّ رغم وجود تفاوت بين هذه الرسالات، ككون بعضها أكمل من بعضها الآخر، كرسالة نبيّنا محمّد ﷺ التي هي أعظم وأكمل الرسالات السماويّة،

(١) البقرة ٢: ٢٨٥.

والأمر الآخر أنّ جميع ما جاءت به الرسالات السماويّة واحد، وهو التأكيد على توحيد الله تعالى بكلّ مراتبه والتأكيد على الاتّصال بين الإنسان وبين الله تعالى عبر الرسل، والتركيز على الإيمان باليوم الآخر، هذه حقائق الرسالات السماويّة من أجل وضع منهج للحياة يسير على ضوئه الإنسان، فإذا آمن بالله تعالى عمليّاً والتفت إلى الحساب واليوم الآخر أصبح صدّيقاً.

الثانية: تحقيق مرتبة الشهيد

للشهيد أكثر من معنى:

الأوّل: الشاهد أي المراقب الذي يرى ويشهد على الفعل، ويكون حجّة في رقابته ونظره على الأفعال الصادرة من الآخرين.

الثاني: من يصل إلى مرتبة الشهود والمعرفة لله تعالى، ويكون شاهداً لكونه يستحضر الله ويراه، فيكون معنى الشهيد فَعِيل بمعنى فاعل، أي شاهداً وناظراً لله تعالى.

الثالث: هو من ينظر الله تعالى إليه أو تنظر إليه الملائكة وتحضره، ولذلك طُبِّقَ هذا المعنى على من يستشهد في المعركة، فسُميّ شهيد لأنّ الله تعالى يحضره، ومعنى حضوره تعالى وجود لطفه وعنايته الخاصّة بمن يستشهد في سوح الوغى للجهاد في سبيله تعالى؛ لأنّه وصل إلى مرتبة يكون الله تعالى حاضراً له بلطفه ورحمته لكونه على مرتبة من المعرفة لا يرى فيها إلّا الله تعالى فهو شاهد لله تعالى.

والمعاني الثلاثة تنطبق على من آمن بالله تعالى ورسله في قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾، والمقصود من الإيمان هو الإيمان التطبيقيّ، فالذي تجاوز الإيمان من الناحية النظريّة وأصبح سلوكه تطبيقاً لمراد الشارع يريد ما يريده الله تعالى، ويبغض ما يبغضه الله تعالى، ويحبّ ما يحبّه الله تعالى، ويكون الله تعالى حاضراً وناظراً له وهو حاضر لله تعالى، فسوف يكون شاهداً

على هذه الأُمّة ، لأنّ تصرّفاته طبق الميزان العادل وليس عنده تجاوز ولا حيف ، جميع أعماله على وفق القسطاس المستقيم ، والمعاني الثلاثة تنطبق على من آمن بالله تبارك وتعالى ورسله إيماناً تطبيقيّاً يصبح مشاهداً لله تبارك وتعالى ، قال إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام : « **ما رأيت شيئاً إلّا ورأيت الله قبله وبعده ومعه** » ، هو يرى الله تبارك وتعالى في لطفه تبارك وتعالى وعنايته وذلك هو حضور الله تبارك وتعالى لأفعال المؤمن .

يصوّر بعض العرفاء هذا المعنى من حضور الله تبارك وتعالى وشهادته لأعمال المؤمن بأنّ العالَم كلّه في محضر الله تبارك وتعالى وبين يديه ، فكيف يسوغ للمرء أن يعصي الله تعالى وهو بين يديه ، فمن كان بين يدي إنسان حاضراً له وينظر إليه لا يعصي ويخجل منه فكيف بمن يكون حاضراً بين يدي الله تبارك وتعالى ، فهل يعصيه تبارك وتعالى دون خجل ولا خوف وهو بين يديه ؟

وبذلك يتحقّق التلازم والاقتران بين الصدّيق والشهيد ، قال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾ .

قال بعض المفسّرين : إنّ الواو في قوله تعالى : ﴿**وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ**﴾ استئنافيّة ليس لها ربط بقوله تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ**﴾ ، والآية تتحدّث عن مطلب آخر لا يرتبط بما قبله ، غير أنّ التفسير الصحيح هو التلازم بين الصدّيق والشهيد ، وقد بيّن ذلك الأئمّة من أهل البيت عليهم السلام في رواياتهم ، جاء شخص إلى الإمام الصادق عليه السلام وقال : سَلْ الله تبارك وتعالى أن يرزقني الشهادة ، فقال الإمام عليه السلام : **إِنَّ الْمُؤْمِنَ شَهِيدٌ** ، ثُمَّ تَلَا : ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾»[1] .

وفي رواية أُخرى عن الإمام الصادق عليه السلام ، قال : « **الْعَارِفُ مِنْكُمْ هَذَا الْأَمْرَ** ـ أي الولاية لأهل البيت عليهم السلام ـ مع كونه مؤمناً ومطبّقاً للإسلام كرسالة ونظام **الْمُنْتَظِرُ لَهُ** ،

---

(١) بحار الأنوار: ٢٤ : ٣٨.

الْمُحْتَسِبُ فِيهِ الْخَيْرَ، كَمَنْ جَاهَدَ وَاللهِ مَعَ قَائِمِ آلِ مُحَمَّدٍ ﷺ بِسَيْفِهِ، ثُمَّ قَالَ: **بَلْ وَاللهِ كَمَنْ جَاهَدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِسَيْفِهِ**، ثُمَّ قَالَ الثَّالِثَةَ: **بَلْ وَاللهِ كَمَنِ اسْتُشْهِدَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي فُسْطَاطِهِ**»(١).

وفي رواية عن النبيّ ﷺ طبّق الشهيد أو مرتبة الشهادة على مجموعة من الناس كمن مات غرقاً وهو عارف بالإسلام، أو من أُصيب بداء عضال وهو مسلم ملتزم، أو على المرأة إذا ماتت في حال ولادتها فهي شهيدة، وعندما سأل الرسول ﷺ أصحابه: **مَنِ الشَّهِيدُ مِنْ أُمَّتِي؟** فقالوا: أَ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ مُقْبِلاً غَيْرَ مُدْبِرٍ؟ فقال ﷺ: **إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذاً لَقَلِيلٌ**»(٢) رغم أنّ الذي يستشهد في الحروب كثُر لكنّهم قلّة بالنسبة إلى الأُمّة، يبيّن النبيّ ﷺ معنىً واسعاً للشهادة لمن كان مؤمناً بالله سبحانه وتعالى ورسله.

إنّ الآية الكريمة: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ**﴾ لا توضّح الأجر، بل تقول لهم أجرهم دون بيان الأجر، قال علماء البلاغة (علماء البيان): إنّ عدم بيان الأجر وإضافته إليهم له معنى كنائيّ يدلّل على أنّ الأجر لا يعرفه أحد إلّا الله سبحانه وتعالى، وهو الكرامة التي أشرنا إليها فيما تقدّم، فلا يستطيع أحد أن يتعرّف على كنه هذا الأجر الذي أعدّه الله سبحانه وتعالى لمن آمنوا بالله سبحانه وتعالى ورسله، بل ﴿**وَنُورُهُمْ**﴾ يسعى بين أيديهم، جاء في الروايات أنّ المؤمن إذا صلّى وأحسن صلاته ـ أي أتمَّ ركوعه وسجوده في صلاته ـ فصلاته تكون نوراً يُضيء قبره ويتعجّب من نور صلاته، ومن صام صوماً صحيحاً فلم يغتب ولم ينم، أو لم يعصِ الله تعالى، فلصومه نور، وكلّ عمل من الأعمال الصالحة التي يأتي بها الإنسان لها نور عند الله سبحانه وتعالى يضيء للإنسان ويسعى بين يديه، كما عبّر القرآن.

---

(١) بحار الأنوار: ٢٤: ٣٨ و ٣٩.

(٢) مستدرك الوسائل: ٢: ١٥٩ ـ ١٦٠.

ولعلّ ما جاء في قصّة أويس القرنيّ يدلّل على أنّ العمل الصالح له أثر لا يزول ، بل يبقى إلى يوم القيامة كما هو باقٍ في الحياة الدنيا لأنّه يستمرّ إلى يوم القيامة ، والعمل الطالح كذلك له أثر في الحياة الدنيا ويستمرّ إلى يوم القيامة ، بل يظهر بنحو أوضح فله تجلٍّ وانكشاف تامّ ، قال تعالى : ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً**﴾(١) ، ففي عالم الدنيا يأكلون ناراً ، ولكنّها لا تتبيّن في عالم الدنيا بل تنكشف وتتبيّن حقيقتها في عالم القيامة ، قال تعالى : ﴿**فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ**﴾(٢) .

قال تعالى : ﴿**لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ**﴾ ، وكما أنّ الذين آمنوا لهم الأجر والثواب فالذين كفروا لهم العقاب ، أي العكس من ذلك ، قال تعالى : ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا** ـ أي جحدوا وأنكروا ـ **وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا** ـ أي بالدلائل والمعاجز والعلامات التي وضعناها ـ **أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ**﴾ .

إنّ الكفر له مراتب ، فالكافر هو من غطّت الحجب على عقله فلم يصل إلى معرفة الحقّ ، وقد جاء إيضاح معناه في القرآن الكريم قال تعالى : ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**﴾(٣) ، فالكافر هو الذي غُطِّيَت عليه الحقيقة فلا يدركها ، وهناك قسم آخر منه يكذب وينكر ويحارب معانداً ويجحد مكذّباً ، ويترتّب العذاب الأشدّ على القسم الثاني ، أمّا من غُطّيت عليه الحقيقة فلم يدركها وكان من المستضعفين الذين أُسدل بينه وبين الحقيقة سِتَار فإذا انكشف له بصيص نور وأضاء له تجلّى له الحقّ آمن به فلا يستحقّ العذاب بخلاف المعاند المكذّب الذي يحارب الحقّ .

---

(١) النساء ٤ : ١٠ .

(٢) سورة ق ٥٠ : ٢٢ .

(٣) الحديد ٥٧ : ٢٠ .

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾

العوالم المادّيّة والمجرّدة

تتحدّث الآية عن الحياة الدنيا وهي عالم الامتحان والتكليف، ويعبّر عنها العلماء بعالم الشهود لوجود ثلاث عوالم:

الأوّل: عالم النشأة العقليّة، وهو عالم المجرّدات المحضة.

الثاني: عالم البرزخ، وهو عالم ليس له تجرّد محض، بل فيه بعض آثار المادّة.

الثالث: عالم النشأة المادّيّة، ومرتبته متأخّرة عن عالم البرزخ، كما أنّ عالم البرزخ متأخّر مرتبة عن عالم النشأة العقليّة، فأشرف العوالم هو عالم النشأة العقليّة، ثمّ يليه عالم المثال أو البرزخ، ثمّ عالم النشأة المادّيّة. وبعض العلماء يرتّبون العوالم الثلاثة في العلّيّة، أي أنّ كلّ عالَم هو علّة للعالم الذي يليه، فعالم النشأة المادّيّة معلول لعالم البرزخ، وعالم البرزخ معلول لعالم النشأة العقليّة.

الابتلاء في حياة الإنسان

إنّ عالم المادّة عالم دائم الخروج والتجدّد من القوّة إلى الفعل، والمادّة هي القوّة المحضة التي لها قابليّة التلبّس بالصور النوعيّة المختلفة، فالتفّاحة تتحوّل إلى غذاء يأكله الإنسان، والغذاء يتحوّل إلى مادّة منويّة يخلق منها الطفل، ثم إلى إنسان كامل، ومن ثمّ يموت ويتحوّل إلى تراب، كما أنّه يتكامل في نشأته المادّيّة

حتّى يصبح خلقاً آخر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾(١) وهذه الأدوار المختلفة التي تمرّ على عالم المادّة يُعبّر عنها بالقوّة المحضة، ويعبّر عنها بالهيولى، أي أنّ القوّة المحضة لها قابليّة التلبّس بالصور النوعيّة المختلفة، فتتحوّل من نباتٍ إلى حيوان، ومن حيوان إلى إنسان.

وقد أوجد الله تبارك وتعالى الإنسان في عالم المادّة لغاية حُدِّدَت من قبل، وأفصح عنها القرآن الكريم، وهي وصول الإنسان إلى معرفة الله تبارك وتعالى بسيره على منهاجه تبارك وتعالى، ويُعبّر عن ذلك بعبوديّة الإنسان لله تبارك وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(٢)، فخُلِق العالم كي يسير على وفق عبوديّته لله تبارك وتعالى.

وهذا العالم عالم ابتلاء، فالإنسان يُبْتلى في عالم المادّة بكلّ الابتلاءات، والابتلاء يشمل كلّ أفراد الإنسان حتّى الأنبياء والرسل. والحقّ تعالى يبتلي الإنسان كي يمرّ بمرحلة تمحيص واختبار، ولا أحد في هذا العالم لا يتعرّض للابتلاء، غير أنّ الناس يتفاوتون فهناك فارق بينهم، فالأنبياء والرسل يستطيعون تغيير الابتلاء إلى نِعَمٍ يستفيدون منها، فمن أصابه امتحان وابتلاء وبذل قصارى جهده كي يتلاءم معه، وإنْ لم يستطع ذلك سَلّم أُموره إلى الله تبارك وتعالى ولجأ وجأر إليه لرفع البلاء عنه، والله تبارك وتعالى يشخّص مصلحة العبد، فقد تكون في بقائه مبتلى إلى آخر حياته، وقد تكون في رفع البلاء عنه. والنظام الكونيّ يسير على وفق ضوابط دقيقة يستفيد الجميع منها في عالم النشأة المادّيّة.

وكلّما توغّل الإنسان في العلم أدرك أسرار الابتلاء في عالم النشأة المادّيّة، وهناك أسرار عظيمة قد لا يصل إليها الإنسان، ولذا أشار الإمام المهدي عليه السلام في دعاء الافتتاح الوارد في شهر رمضان فقال: «**وَلَعَلَّ الَّذي أَبْطَأَ عَنّي هُوَ خَيْرٌ لِي لِعِلْمِكَ**

(١) المؤمنون ٢٣: ١٤.

(٢) الذاريات ٥١: ٥٦.

بِعاقِبَةِ الْأُمُورِ» ، فعواقب الأُمور لا يعلم بها إلّا الله عزّ وجلّ . والإنسان قد يدعو ويظنّ أنّ المصلحة في تحقيق دعوته ، والله تعالى يعلم أنّ المصلحة في عدم إجابة الدعوة .

وعند رجوعنا إلى الآية نجد القرآن يسمّي هذه الحياة بالحياة الدنيا ، وسمّيت دنيا لأنّها ـ كما ذكرنا سابقاً ـ أدنى في المرتبة من عالم البرزخ الذي هو بدوره أدنى مرتبة من عالم النشأة العقليّة . والإنسان مكلّف في هذه الحياة الدنيا أن يسير على وفق النظام الإلٰهيّ ، الذي يجعله في ارتقاء مطّرد ، يتدرّج فيه شيئاً فشيئاً حتّى يصل إلى المرتبة ، التي يُعبِّر العلماء عنها بمرتبة التجرّد المحض ، والتي يسمّى فيها عقل الإنسان بالعقل المستفاد ، وهو يضاهي عقل الإنسان في عالم النشأة العقليّة ، ويصبح لدى هذا الإنسان إحاطة بمعارف عظيمة وكثيرة لا حدّ لها .

ويقول العلماء : إنّ ذلك لا يتاح لكلّ أحد ، وليس هو شرعة لكلّ وارد وإنّما يتاح لأُناس يتعرّضون لامتحان شديد وعظيم في هذه الحياة الدنيا ، وهو ما تشير إليه بعض آيِّ الذكر الحكيم ، التي تحدّثت عن موسى عليه السلام ﴿**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**﴾[1] ، الله تبارك وتعالى يصنع هذا الإنسان المؤمن ويراقبه على عينه وبلطفه إلى أن يرتقي شيئاً فشيئاً فيصل إلى تلك المرتبة العالية .

لكن ما هي حقيقة هذه الحياة الدنيا ؟

للحياة الدنيا أنماط كثيرة ومتعدّدة تتعلّق بذات الإنسان المُبتلى بها ، فهناك من يستطيع أن يربِطُها بالله تبارك وتعالى ويُحوِّل الابتلاء إلى نعمة ، لذا نجد أمير المؤمنين عليه السلام يمدح الدنيا ، فيقول : « **هي مساجد أولياء الله** »[2] ، أي أنّ الدنيا يمكن أن تتحوّل إلى مسجد لأولياء الله تبارك وتعالى ، وتصبح مكاناً للسير في صراط العبوديّة له تبارك وتعالى ؛ لأنّ المسجد

---

(١) طه ٢٠ : ٣٩.

(٢) شرح الأخبار : ٢ : ٢٢٤.

مكان العبادة، كما أنّ الإنسان يمكن أن يلتفت لهذه الدنيا ويتوجّه لها بكلّ قدراته، ويغفل عن الهدف الذي من أجله أُوجِد فيها، فتتحوّل إلى معبود له من دون الله ﷻ.

الدنيا إذا عُبِّرَ عنها بنوع من الذمّ قُصد بذلك هذا النحو من توجّه الإنسان الذي ينسى فيه ما يُراد به من هذه الحياة الدنيا، والله ﷻ يطلب من الإنسان في هذه الحياة أن يصل إلى هدف وغاية.

الآيات القرآنيّة والأحاديث الواردة عن النبيّ ﷺ وأهل بيته التي تنهى أو تذمّ الحياة الدنيا ناظرة إلى ما ذكرناه. وهو أُسلوب رائع من أجل توجيه قدرات الإنسان وطاقاته لإصلاح دنياه، كي لا ينسى جوهر وجوده، ولا يهمل روحه التي ينبغي أن يكملها باكتساب الفضائل والتخلّي عن الرذائل، ويلتفت إلى أنّ هناك هدفاً وغاية من وجوده في الحياة الدنيا، وأنّه لم يوجد عبثاً، لكن أكثر الناس لا ينتبهون لهذه الغاية إلّا بعد أن يتعرّضوا للبلاء، وهذا سرٌّ من أسرار البلاء به يذكر الإنسان بأنّ بقاءه في هذه الدنيا ليس أبديّاً، وأنّه لا بدّ له أن ينتقل منها إلى غيرها. والإنسان إذا تعلّق بالأحبّة أو الأولاد والأعزّاء الأقارب، فلا بدّ أن يعلم أنّهم لن يبقوا له على الدوام ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾[1]، والعمل الصالح هو الذي يبقى للإنسان، قال تعالى: ﴿**وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً**﴾[2].

حقيقة الحياة الدنيا

الآية التي نحن بصدد تسليط الضوء عليها تعطينا طبيعة الحياة الدنيا من خلال قوله تعالى: ﴿**اعْلَمُوا**﴾، أي كونوا على يقين تامّ بحقيقة الحياة الدنيا، ولا يلتبس عليكم الأمر فتنخدعوا وتقعوا في شِراك مصيدتها، فحقيقةالدنيا في مراتب خمسة:

---

(١) الرحمن ٥٥: ٢٦.

(٢) الكهف ١٨: ٢٦.

المرتبة الأُولى: اللعب.

﴿أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾

اللعب: هو الحركات المنظّمة التي يترتّب بعضها على بعضها الآخر دون ترتّب فوائد كبيرة عليها. نعم، تترتّب عليها بعض الفوائد البسيطة، لذلك تجدون أنّ ألعاب الأطفال منظّمة، لكن الهدف المترتّب عليها ليس له تلك الفوائد الكبيرة، وإنّما فوائد بسيطة ومحدودة، فهي تُسَلّيهم، وترفع من مستواهم، وتنضج عقولهم لأنّهم أطفال، ولكنّها ليست كذلك للكبار، بل مضيعة لوقتهم وتلف لجهدهم.

إذن اللعب وإن كان يصدر وفق حركات منتظمة، لكن ما يترتّب على اللعب فوائد محدودة. وكذلك دورنا في الحياة الدنيا محدود، فنحن نُعمّر الأرض ونُشيّد الأبنية وننشأ علاقات مع الآخرين، وكلّ تلك الأُمور يشبّهها الله ﷻ باللعب.

لكن لماذا تكون الأعمال التي نقوم بها لعب؟

إنّ الأعمال التي نقوم بها إذا لم تكن لوجه الله ﷻ فهي لعب، وإذا أردنا أن نضفي عليها طابع العبوديّة بجعلها داراً ومسجداً لأولياء الله ﷻ، فلا بدّ أن تكون كلّ حركة وسكون مرتبطة بالله ﷻ وهو المقصود بها. إذن اللعب هو المانع عن وصول الإنسان إلى الغايات الأُخروية.

المرتبة الثانية: اللهو.

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾

اللهو هو ما يلهيك عن الوصول إلى أهدافك، فهو يُغفِل الإنسان ويصُدُّه عن هدفه وغايته التي يريد السير إليها. فعندما يكون الإنسان على موعد جِدُّ هامّ مع شخصٍ، ويأتي رجل يحدِّثك بقصّة طريفة وتنسى ذاك الموعد المهمّ، يقال إنّه ألهاك ـ من اللهو ـ حيث أغفلك عن الغاية وعن الموعد المهمّ.

كذلك نحن في هذه الحياة إذا انشغلنا بغير أهدافنا التي وجدنا من أجلها فذلك

لهو. وإذا نظرنا إلى أكثر الناس نجدهم يشتغلون بغير الأهداف التي وُجِدُوا من أجلها، فلا يستفيدون من الطاقات والمواهب والقُدرات والنِّعم والمنح التي أعطاهم الله تعالى إيّاها في الحياة الدنيا، فيعيشون اللهو في حياتهم ويمنعهم ذلك عن الوصول إلى الغايات الأُخرويّة الرفيعة.

المرتبة الثالثة: الزينة.

﴿وَزِينَةٌ﴾

يؤكّد الله تعالى حقيقة الدنيا في كونها للتجمّل؛ إذْ أنّ الزينة نأخذ منها ما يضفي على حياتنا وأعمالنا الطابع الجماليّ، والله تعالى ليس بصدد ذمّ الدنيا وإنّما يكشف عن حقيقتها، ويوضّح لنا كيفيّة استفادتنا منها.

المرتبة الرابعة: التفاخر.

﴿وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ﴾

التفاخر هو رؤية الإنسان لنفسه مزية على الآخرين يفخر بوجودها على غيره، كمن يفخر بامتلاكه أموال كثيرة وأرصدة كبيرة فيفخر بما يمتلكه من ثروة لأنّه يتمتّع بما ليس موجوداً لدى غيره من الناس. ولو تأمّل الإنسان قليلاً سيجد أنّ ما لديه من ثروة ليس ملكاً حقيقيّاً له وإنّما هو ملك من الله تعالى، وهو لا يمتلك شيئاً وما عنده ما هو إلّا إعارة، سوف يتركها يوماً ما وينتهي كلّ شيء.

إذن كيف يفخر الإنسان بما لا يمتلكه وإنّما هو مخوّل في الاستفادة منه؟! واستفادته من هذه الثروة تارةً تكون فيما يعود عليه بالنفع، وأُخرى فيما يعود عليه بالضرر، وثالثة ما يبقيه دون أن يستفيد منه نفعاً ولا ضرّاً. فمن يفتخر بأرصدته المليونيّة وبعقاراته، أو بأسهمه التي يمتلكها، أو بسياراته الأغلى والأحدث، هل سأل نفسه أنّ هذه النعم حصل عليها بجدارته وجهده الشخصيّ فقط ولم يكن لله تعالى في ذلك أي دور؟ فإن كان لديه هذا التصوّر فسوف يضع نفسه في قائمة

الطغاة المنجرفين ، وقد ذكر القرآن أحدهم وهو قارون الذي يمتلك من الثروة شيئاً كثيراً ، قال تعالى : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ ﴾ ، وعندما نصحه قومه ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴾(١) ، لم يستجب لنصحهم ونسب ثروته لنفسه ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾(٢) ، والنتيجة الأخيرة هي خسارته الفادحة ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾(٣) .

المرتبة الخامسة : التكاثر في المال والولد .

﴿وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾

التكاثر هو عدُّ ما لدى الإنسان أكثر من غيره ، وهو نوع من التفاخر ، فيقول : من يكاثر عندي من الأولاد كذا وكذا ، ومن الذرّيّة والأحفاد أو من العشيرة كذا وكذا ، وذلك من التكاثر المذموم ، قال تعالى : ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴾(٤) .

نظريّة الشيخ البهائيّ

تحدّث عن المراتب الخمسة التي ذكرتها الآية الشيخ البهائيّ (يرحمه الله) ـ هو من أكابر علمائنا الأبرار ـ فقال : هذه المراتب تترتّب الواحدة على الأُخرى التي تسبقها ؛ إذْ أنّ الإنسان يتدرّج من مرتبة إلى مرتبة أُخرى ، ففي بدايته يكون طفلاً ، فيشتغل باللعب ، ثمّ يصبح شابّاً يافعاً فيشتغل باللهو ، وعندما يكبر قليلاً يشتغل بالتجمّل والزينة ، فإذا أصبح كهلاً اشتغل بالتفاخر على غيره بما أُوتي من

(١) القصص ٢٨ : ٧٦.

(٢) القصص ٢٨ : ٧٨.

(٣) السورة المتقدّمة : الآية ٨١.

(٤) التكاثر ١٠٢ : ١.

نِعَم، وعندما يصبح في مرحلة الشيخوخة يبدأ بالتكاثر في الأموال والأولاد.

وكلامه جميل، وفيه شيء من الوجاهة والمتانة، لكن الله سبحانه وتعالى لا يريد أن يبيّن لنا حقيقة الدنيا بالأدوار المختلفة التي تمرّ على الإنسان، وإنّما يريد الحقّ سبحانه وتعالى أن يبيّن أنّ كلّ فعل يقوم به الإنسان لا بدّ أن تنطبق عليه إحدى هذه المراتب الخمس؛ لأنّ الفعل الصادر من الإنسان إمّا أن يكون لعب لكونه شيئاً منظوماً، لكن ما يصدّك عن الهدف الكبير إمّا أن يكون لهو، وإمّا أن يكون زينة، وإمّا أن يكون تفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد.

ولا يريد الله أن يقول إنّ هذه المراتب التي تمرّ علينا مرتبة بنحوٍ تكون كلّ منها تالية لما بعدها، وإنّما يريد أن يقول: إنّ كلّ عمل نقوم به ينطبق عليه واحدة من هذه المراتب حتّى لو كانت من دون ترتيب بينها، وهذا المعنى يظهر من الآية، وإن كان كلام الشيخ البهائيّ لا بأس به.

بعد أن ذكرت الآية المراتب الخمسة في حقيقة الدنيا انتقلت إلى تشبيه الدنيا بمثال رائع وفي منتهى الجمال، فقالت: ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾، شبّه الله سبحانه وتعالى هذه الحياة بمثال جميل ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ**﴾، الغيث هو المطر، غير أنّه ليس كلّ مطر يسمّى غيثاً، وإنّما الغيث قسم من المطر وهو المطر النافع؛ لأنّ المطر قد يكون ضارّاً، فيشكّل سيولاً جارفة تترتّب عليها آثار وأضرار جسيمة، وتارة يكون نافعاً كما لو نزل في مكان مُجدب، فإنّه نوع من الإغاثة فيكون غيثاً.

إذن الغيث هو ما يترتّب عليه فوائد كبيرة جدّاً، يُعجبُ الفلاحين، لأنّه سوف يُنبت زرعهم، ويضفي على الطبيعة رونقاً وجمالاً، من خلال نموّ الأشجار والنباتات الخضراء والأزهار المختلفة الألوان، وذلك له أكبر الأثر في بعث الارتياح النفسيّ لدى الرائي لها، وهو ما أكّده القرآن في قوله تعالى: ﴿**اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن**

كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴾(١).

إذن المطر إذا نزل على الأرض ترتّب عليه فوائد كثيرة. ويريد الله ﷻ أن يوضّح أنّ حقيقة الحياة الدنيا كالمطر الذي ينزل ثمّ تترتّب عليه تلك النباتات الجميلة التي تأخذ بألباب وأبصار الزُّراع، فيقفون مدهوشين يملأهم الإعجاب من ذلك الجمال الأخّاذ. تقول الآية: ﴿**كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ**﴾ الكفّار هم الزُّرّاع لكونهم يقومون بتغطية البذور في الأرض، وأصل كلمة الكفر بمعنى التغطية، ومنه الكفر بمعنى الجحود لكونه تغطية للحقائق كتغطية توحيد الله ﷻ ورسالات الأنبياء والحقائق الدينيّة الأُخرى.

الزرع الذي يعجب الزُرّاع ينتقل إلى مرحلة أُخرى تعبّر عنها الآية ﴿**ثُمَّ يَهِيجُ**﴾، والهَيَاج في اللغة الحركة التي تتحقّق بدفع وقوّة، نقول: هاج البعير، بمعنى أنّه قام مندفعاً، وفسّر الهياج في المعاجم اللغويّة بمعنى ما يترتّب عليه، فقيل: هاج الزرع بمعنى ذَبُلَ، والتفسير ليس بصحيح، وإن ذُكر في المعاجم اللغويّة؛ لأنّ الذبول هو نتيجة لانتهاء الحركة، أي يتحرّك الشيء بقوّة، ثمّ يصل إلى مداه، وفي نهاية حركته القويّة ينتج الذبول.

وبعد مرحلة الذبول ينتقل إلى مرحلة أُخرى ﴿**فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً**﴾، يتغيّر فيها لون النبات الذابل ويصبح أصفراً بشكل تدريجيّ حتّى يستولي اللون على جميع أجزاء النبات، استعداداً للمرحلة الأخيرة التي يصبح فيها حطاماً، أي ييبس ثمّ يتكسّر ويتهشّم، وبعد ذلك يتلاشى بالرياح التي تعصف به وتشتّته.

المثل في الآية يعبّر عن واقع الحياة

ذكرنا سابقاً أنّ كلّ شيء يقع في الحياة الدنيا له فوائد، خُلِق وفق حكمة إلهيّة

(١) الحجّ ٢٢: ٥.

ونظام دقيق ، وأنّ الله تعالى لا يخلق شيئاً عبثاً ، وإذا تأمّلنا في هذه الحياة ونظامها نجد حالنا نفس حال الفلاحين ، نتعجّب ممّا يترتّب على الحياة من فوائد ، فالإنسان يبدأ طفلاً ، ثمّ يصبح فتى ، وبعد ذلك ينتقل إلى مرحلة الشباب ، ثمّ الكهولة ، وأخيراً يتراجع ويذبل ، كالنبات الذي يهيج ثمّ يصفرّ ثم يصبح حطاماً ؛ لأنّ الذبول سوف يتلوه اصفرار ، والاصفرار تتلوه مرحلة الحِطام وهو اليبس فيبدأ بالتكسّر والتهشّم ، فتذروه الرياح مبعثرة له .

كلّ مفردة من المفردات في الحياة تمثّل لنا هذا الواقع ، والكون الفسيح من الذرّة إلى المجرّة يعيش هذه المعادلة التي ذكرناه ، ولا يستثنى منها شيء ، حتّى النجوم التي تعيش ملايين السنين أو مليارات السنين ، فإنّها تنطفئ وتنتهي بعد ذلك ﴿**فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ**﴾(١) ، لذلك يُؤكّد علماء الطبيعة على أنّ عالم المادّة سوف يتلاشى وينتهي مهما طال وامتدّ زمانه .

فائدة المراتب الخمسة التي تمرّ على الإنسان

بعد أن أوضح الله تعالى حقيقة الدنيا في المراتب الخمسة التي مثّلها بالزرع الذي نهايته التلاشي ، قال تعالى : ﴿**وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ**﴾ ، فيبيّن الله تعالى في المقطع من الآية أنّ هذه المراتب ليست عبثاً ، بل لها فوائد كبيرة تترتّب عليها في عوالم الغيب ، إذا انتقل إليه الإنسان ، وليس لدينا القدرة على إدراك العالم الغيبيّ واستيعابه ، وإنّما يأتي الأنبياء والرسل ليحدّثوننا عنه ، ومن هذه الفوائد العذاب الشديد لمن حوّل هذه الدنيا وهذه المراتب الخمسة التي يمرّ بها إلى إله ومعبود من دون الله تعالى فوظّف كلّ قدراته في كسبها وجعلها كعبة لتوجّهه لكلّ شيء يقصده ، ولم يجعلها وسيلة للوصول إلى غايته ومقصده ، بهذا الوجه نفسّر الآيات والروايات

(١) المرسلات ٧٧ : ٨ .

التي تذمّ الدنيا.

بعد ذلك بيّنت الآية الجانب الإيجابيّ للمراتب الخمسة ﴿**وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ**﴾، فمن قصد من الدنيا ومراتبها التي ذكرناها وجه الله تعالى، وحوّلها إلى مسجد كما قال أمير المؤمنين عليه السلام عنها أنّها مسجد أولياء الله، وأصبح الله تعالى هو الغاية والهدف له، فعند ذلك سوف يحصل على فائدة كبيرة في عالم الغيب هي الرحمة الإلٰهيّة التي تدرك الإنسان بالتجاوز والمغفرة عنه، أمّا إذا لم يكن لديه قصد إلٰهيّ حقيقيّ في أعماله أو اختلط فيها القصد الإلٰهيّ بغيره فلن يصل إلى الرضوان والمغفرة التي يتهيّأ المؤمن لاستحقاقها، أمّا من كانت دنياه كلّها لله تعالى فلن يحتاج للمغفرة وسيدخل في رضوان الله مباشرة؛ إذ الرضوان هو اللقاء الكامل مع الله سبحانه وتعالى وهو العرفان الحقيقيّ، فهو وصول ومشاهدة لله سبحانه وتعالى ومعرفة كاملة وتامّة به، ولا توجد لذّة في عالم الآخرة كلقاء الله عزّ وجلّ، ومعنى اللقاء المعرفة الشهوديّة ﴿**يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ**﴾[1]، وتلك المعرفة والحبّ توأمان مع الشهود؛ إذ به يدرك الجمال المطلق لله عزّ وجلّ.

خلاصة الآية في ختامها

ثمّ يختزل الله تعالى لنا كلّ الحقائق المتقدّمة التي تجعل الإنسان يحوّل الدنيا إلى معبود من دون الله سبحانه وتعالى في مقطع ﴿**وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ**﴾، أي أنّها تتحوّل إلى مصدر لغرور الإنسان، نحن نستعمل الغرور في البيع فنقول: باع زيد المتاع على عمرو فخدعه، أي باعه المتاع بغير قيمته الواقعيّة، المخدوع هو الذي لا يعرف الحقيقة، والله تعالى يقول إنّ الحياة الدنيا متاع للإنسان الذي يغترّ بها، أمّا إذا كان على معرفة بها فلن تكون له متاع الغرور، بل طريق ووسيلة للوصول

(١) المائدة ٥: ٥٤.

إلى هدفه، والآية تطرح مجموعة من الحقائق الهامّة والكبرى التي لو فكّر الإنسان في مفردة منها لاستفاد منها دروساً رائعة غير قابلة للنفاد.

ولهذا نؤكّد على أنّ الله تعالى عندما يقول: ﴿اعْلَمُوا﴾ في أوّل الآية فهو يركّز علينا كي نصل إلى العلم واليقين بحقيقة هذه الدنيا، وأنّها حقيقة ثابتة لا تتغيّر، فمنذ أن وجدت الدنيا جاء أنبياء وملوك وجبابرة، وعاشوا في هذه الدنيا ولم يبقَ لهم فيها من متاع، والذي يبقى ويدوم ويعود بالفائدة على الإنسان هو عمله الصالح ﴿وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[١].

ولذلك نجد أنّ الإمام الكاظم عليه السلام بعث إلى هارون الرشيد عندما كان في السجن فقال له: «**يا هارون انتبه لا يمر عليك يوم في نعيمك إلّا ويمر عليَّ يوم في بؤسي**»، ويريد الإمام أن يلفت انتباه هارون إلى حقيقة تصرّم الزمن، وأنّه لا يدوم لأيّ أحد مهما كان حتّى الإمام نفسه، كلّ شيء في الحياة ينتهي ويتلاشى ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً﴾، فلا قيمة لهذه الدنيا، لأنّها ﴿مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾.

سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١)

التسابق إلى الحياة الأُخرويّة

بيّن الباري سبحانه وتعالى في الآية السابقة حقيقة الحياة الدنيا والمراتب المتعدّدة لها، وفي هذه الآية يوضّح تعالى ما ينبغي للإنسان أن يسلكه ويسير عليه في هذه الحياة،

---

(١) الكهف ١٨: ٢٦.

أي الحالة العمليّة التي ينبغي أن يكون عليها الإنسان، وهي المسابقة.

والمسابقة لغويّاً مفاعلة يراد بها السباق بين اثنين يشتركان في التسابق للوصول إلى الهدف.

والهدف هو ﴿**مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ**﴾، أي هو الوصول إلى المغفرة من الله، والهدف الثاني ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ**﴾، الهدف الآخر تلك الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض معدَّة من قِبل الله عزّ وجلّ، وفي الآية إشارة إلى وجود الجنة فعلاً، ﴿**أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ**﴾، فالذين آمنوا بالله ﷻ ورسله لهم الجنة.

﴿**ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ**﴾، أي أنّ الجنة التي عرضها كعرض السماء والأرض لن تنالوها بعملكم، وإنّما بتفضّل من الله عزّ وجلّ، ﴿**ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾.

ذكرنا المعنى اللغويّ للمسابقة وهو المشاركة بين اثنين، لكن لا يراد بالسباق هنا المشاركة بين اثنين والمفاعلة، وإنّما يُراد بها قطع الطريق والمسافة للوصول إلى الغاية، هذا مسابقة أيضاً، فهناك أنواع من المسابقة كمسابقة الجري في العدو التي يشترك فيها شخص واحد، كي يقطع مسافة في فترة زمنيّة محدّدة، قد تكون دقيقة واحدة أو جزءاً من الدقيقة التي هي مجموعة من الثواني، كذلك الأمر في الحياة الدنيا التي يتعرّض فيها الإنسان للامتحان والاختبار كما أوضحت ذلك الآية السابقة.

وإذا أراد الإنسان أن يسير في المسار الصحيح فإنّ عليه أن يَجدّ السير ويقطع المسافة للوصول إلى الغاية، ثمّ إنّك في سيرك قد تكون خلطت عملاً صالحاً بآخر سيّئ، وهنا ينبغي لك التلافي لذلك التقصير الذي صدر منك كي تحصل على النتيجة وهي مغفرة من الله عزّ وجلّ، أمّا لو لم تقصّر في سيرك ولم تخلط عملاً صالحاً بسيّئ فستكون من الذين قال عنهم الحقّ تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ** *

﴿أُولٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾(١)، هؤلاء لم يُقَصّروا، ولذا أعدّ الله تعالى لهم جنّة خاصّة. وقد أشرنا سابقاً إلى أنّ الجنّة لها منازل ومراتب حتّى للذين لا يحصلون على المغفرة لأنّهم لم يذنبوا، فلهم أيضاً جنّة ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾.

سبب ذكر عرض الجنّة في الآية

قال بعض المفسّرين: إنّ الله تعالى ذكر في الآية عرض الجنة: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّماءِ وَالْأَرْضِ﴾ ولم يُبن طول الجنّة؟

وهناك عدّة احتمالات لذلك:

الأوّل: هو أنّ العرض إذا كان كعرض السماء والأرض فهو يعني أنّ الطول سيكون أكبر وأعظم.

الثاني: أنّه لم يبن طول الجنة لأنّه لا يعلم به إلّا الله تعالى.

الثالث: أنّ العرض هنا لا يراد به ما يقابل الطول وإنّما يراد به السِعة، نظير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ﴾(٢)، أي ذو دعاء واسع وكبير، فإنّ الإنسان إذا أُصيب بمصيبة يتوجّه إلى الله تعالى ويدعوه بدعاء عريض وواسع.

كذلك الأمر هنا، فقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا﴾ لا يُريد بالعرض ما يُقابل الطول، وإنّما قصد به أنّ الجنة سعتها كبيرة.

وسعة الجنة لا يعلم بها أحد إلّا الله عزّ وجلّ، جاء في بعض الروايات: أنّ جبرئيل عليه السلام أراد أن يتعرّف على طول الجنة فسأل الله تعالى عن ذلك فقال له الله تعالى: تفضّل فسلك طريقاً وطار ثلاثين ألف سنة ثمّ تعب جبرئيل تعالى وسأل الله المدد، فأمدّه الله عزّ وجلّ، فطار أيضاً ثلاثين ألف سنة ثمّ تعب فسأل الله تعالى المدد،

(١) الواقعة ٥٦: ١٠ و ١١.

(٢) فصلت ٤١: ٥١،

فأمدّه الله ﷻ فطار ثلاثين ألف سنة فتعب، فبانت له حوريّة من الحور العين فخاطبته عليه السلام قائلة: يا جبرئيل، ماذا تريد؟ فقال لها: أُريد أن أصل إلى طول الجنّة، فقالت له: كلّ هذه السنوات الطويلة التي قطعتها ما زلت في ملكي، فنجد أنّ هذا المُلك الكبير لحوريّة واحدة أعدّها الله ﷻ لواحد من المؤمنين الأتقياء الصالحين.

والرواية فيها معنى كنائيّ، وهو أنّ الأئمّة عليهم السلام يريدون أن يوضّحوا أمراً عميقاً أشارت إليه الرواية وهو أنّ الإنسان أعظم من الملائكة، فالمَلك ـ أي الملائكة ـ مهما جَدَّ به السرّاع وأراد قطع مسافات طويلة، لأنّه خُلق من نور دون شهوة، وخلق الإنسان من عقل وشهوة، فإذا تغلّب عقله على شهواته أصبح يمتلك قدرات أكبر من الملائكة، وكأنّ الرواية تشير إلى هذا المعنى الكنائيّ، أي أنّها تريد أن تبيّن أنّ الإنسان بسعة امتداداته في عوالم الغيب لا تستطيع الملائكة أن تصل إلى قدراته، وكلّما استطاع الإنسان أن يتغلّب على شهواته استطاع أن يسلك طريق العبوديّة لله ﷻ.

إنّ الله تعالى عندما يقول عن الجنة ﴿**أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ**﴾، أعدهاللذين آمنوا بالله ﷻ ورسله، والسؤال: أي إيمان هذا؟

الإيمان الذي ألمحنا إليه وأشرنا إليه فيما تقدّم هو الإيمان العمليّ؛ لأنّ هناك من يؤمن نظريّاً لكنّه لا يطبق عمليّاً، والإيمان النظريّ شيء والعمليّ شيء آخر، والله يفصح لنا: أنّ الجنة الواسعة أعدّها لمن آمن بالله ﷻ ورسله، أي سار على منهج الله ﷻ وعلى طريق الرسل، ويعني ذلك التطبيق الكامل للرسالات السماويّة التي جاءت من قبله عزّوجلّ. إذن الإيمان بالرسالات معناه السير على منهج الرسل.

وهو التطبيق الكامل الذي لا يتحصّل إلّا للقليل لأنّه دقيق جدّاً، لذا قالت الروايات إنّ الناس في الحياة الدنيا يبتلون بقدر إيمانهم بالله ﷻ وبقدر التزامهم بمنهج الرسالات السماويّة، الأمثل فالأمثل، والأقرب إلى الله ﷻ فالأقرب،

أي يتعرّض إلى نوع من الجَهد المركّز والبلاء العميق إلى أن يصل إلى تلك المقامات التي لا يصل إليها أيّ شخص. والبلاء أُعدّ لمن آمن بالله ورسله، فلا يكفي أن يقول الإنسان آمنت بالله سبحانه وتعالى وبالرسل بلسانه وتنتهي القضيّة، فإنّ الأمر ليس كذلك، بل تترتّب على الإيمان أنواع من الابتلاءات والتمحيص لا بدّ أن يتعرّض لها المؤمن، قال تعالى: ﴿**أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ**﴾(١).

لذلك أكّد الأئمّة عليهم السلام على الدور التمحيص والبلاء في حياة المؤمن، جاء أحد أصحاب الصادق عليه السلام فقال له: يا أبا عبدالله، هل المؤمن يبتلى؟ قال له الإمام عليه السلام: **وهل البلاء أعدّ إلّا للمؤمن**»(٢)، يُركّز الإمام عليه السلام على أنّ البلاء أعدّه الله سبحانه وتعالى للمؤمن، وأنّه لا بدّ أن يتمحّص حتّى يخرج جوهره ومعدنه الذي يظهر فيه حقيقة عبوديّته لله سبحانه وتعالى بعد مروره بتقلّبات مختلفة. وذلك ما حصل لإبراهيم عليه السلام عندما ابتلاه الله تعالى: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إبراهيم رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ**﴾(٣)، فقد ابتلاه أوّلاً، ثمّ بعد ذلك أوصله إلى المقام المحمود والعظيم، وكلّ الأنبياء تعرّضوا إلى ابتلاءات عظيمة وكبيرة، وكذلك المؤمن يتعرّض إلى ابتلاءات إلى أن يصل إلى مقامات عالية.

معاني الفضل في الآية

في نهاية المطاف يوضّح لنا الحقّ تعالى مطلباً جميلاً بقوله: ﴿**ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾، وله عدّة معاني:

الأوّل: الفضل الإلٰهيّ لا يُنال بالاستحقاق.

---

(١) العنكبوت ٢٩: ٢.

(٢) المحاسن: ٢: ٣٢٦.

(٣) البقرة ٢: ١٢٤.

يشير المقطع إلى أنّ الجنّة والمواهب العظيمة اللدنيّة التي يفيضها الله ﷻ ويعطيها لعباده، لا يأخذونها باستحقاق، أي أنّ الأمر لا يرتبط بترتّب الجزاء على العمل، فإذا قام المؤمن بعمل سوف يقايضه عزّ وجلّ، فلا مبادلة بين العمل وبين ما يعطيه الله تعالى، وإنّما هو تفضّل منه ﷻ مشروط بالعمل، قال العلماء: إنّ دور العمل تأهيل الإنسان لتلقّي الفيض الإلٰهيّ.

وإذا أردنا توضيح ذلك بنحو أفضل فنقول: إنّ العطاء الإلٰهيّ لا يمكن أن يكون لكلّ أحد؛ لأنّ العطاء يكون لمن له قابليّة واستحقاق وأهليّة، ومثاله: إذا رأيت شخصاً كريماً يعطي رجلاً لا يعرفه ولا تربطه أي علاقة معه، نصف أمواله أو كلّ أمواله، فسوف تتّهمه بعدم الفهم، وأنّ تصرّفاته في غير محلّها، لكنّك لو رأيته على علاقة كبيرة مع إنسان محترم يعمل الخير وقدّم له نصف أمواله، فعند ذلك ستقول: إنّه إنسان يعرف أين يضع أمواله، وقد أعطاها لمن يستحقّها.

والفيض الإلٰهيّ لا يكون من الله ﷻ للجميع، وإنّما لمن لديه القابليّة والأهليّة يُفاض عليه العطاء الجميل، وقوله ﷻ: ﴿**ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾، إشارة إلى هذا المعنى.

إذن المؤمن لا ينال المنح الإلٰهيّة باستحقاقه لها، وإنّما ينالها بفضل الله تعالى ﴿**ذٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ**﴾، أمّا الآيات الأُخر التي تشير إلى ارتباط الجزاء بالعمل، كقوله تعالى: ﴿**وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾(١)، فهي لا تعني وجود مقايضة بين الجزاء والعمل، وإنّما ترتّب بينهما، فمن عمل العمل الصالح ترتّب عليه العطاء الإلٰهيّ الجزيل، ومعنى ذلك أنّ الله ﷻ لا يفيض جوده على من ليس له قابليّة لتلقّي فيضه.

الثاني: دوام الفضل الإلٰهيّ واستمراره.

---

(١) الصافّات ٣٧: ٣٩.

يشير قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ إلى دوام الفيض واستمرار العطاء اللّامتناهي، أي أنّ اللهﷻ بعد أن يعطي المؤمن القدرات والمنح فسوف تدوم، ولن يتوقّف العطاء الإلـهيّ، قال تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾(١). إذن العطاء الإلـهيّ لا يعتريه نقص، بل هو في ازدياد دائم ومستمرّ.

مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾

بعد أن بيّن الباريﷻ حقيقة الحياة الدنيا، وما ينبغي للإنسان أن يكون عليه فيها من المسابقة للوصول إلى مغفرة ربّه وجنّة عرضها كعرض السماء والأرض أعدّها الله لمن آمن باللهﷻ ورسله، أشار إلى العقبات التي تعترض المؤمن في طريقه.

العقبات التي تمنع الإنسان من الوصول إلى أهدافه

تتحدّث الآية عن العقبات التي تمنع الإنسان من الوصول إلى غاياته وأهدافه، وأنّها متعدّدة، أكبرها المصائب التي يصاب بها الإنسان في الحياة الدنيا، والمصائب مأخوذة من إصابة السهم للهدف، ثمّ عمّمت الكلمة واستخدمت بتوسّع في معناها، أي أنّ المصيبة استعملت في اللغة العربيّة في إصابة الخير والشرّ، ثمّ نُقِل الاستخدام اللغويّ إلى إصابة الشرّ، يقال: مصيبة إذا أُصيب الإنسان بسوء، بينما المصيبة في اللغة هي إصابة خير أو سوء وشرّ من دون فرق من الناحية اللغويّة، لكنّ الاستعمال خصّص الكلمة وجعلها في إصابة السوء والشرّ.

لعلّ كلّ ما يُصاب به الإنسان في الحياة الدنيا يعتبر مصيبة من ناحية أنّه ابتلاء

(١) سورة ق ٥٠: ٣٥.

للإنسان قد يصدُّه عن الوصول إلى أهدافه في عالم الدنيا أو الآخرة.

وكي تتّضح الفكرة نُعطي مثالاً، فمن يُريد أن يكون عالِماً في أحد التخصّصات العلميّة، قد تواجهه موانع تمنعه من الوصول إلى هدفه، والموانع تارة تكون خيراً له وأُخرى يراها شرّاً.

من الموانع التي يراها الإنسان خيراً حصوله على ثروة طائلة، بأن يرزقه الله تعالى مالاً، مع رغبته في أن يتخصّص في الرياضيات مثلاً، رغم أنّ المال يتطلّب جهداً كبيراً من فكر الإنسان ووقته لإدارته واستثماره بنحو يؤدّي إلى المحافظة عليه وإنمائه، وذلك يمنع الإنسان من الوصول إلى هدفه. إذن المال قد يصدّ عن الهدف، وقد لا يؤثّر، فهناك أُناس إذا أعطاهم الله تعالى المال لا يصدّهم ذلك عن الوصول إلى أهدافهم المخطّطة والمرسومة، يشتغلون بالمال ضمن حدود لا تؤثّر على مسيرهم ووصولهم إلى أهدافهم، لكنّ الكثير من الناس ينسى هدفه، ولا يدري أنّ له هدفاً يسعى من أجل تحقيقه.

الموانع التي يراها الإنسان شرّاً تتمثّل فيما يصيبه من سوء، قد يرتبط به شخصيّاً، أو يرتبط بمن يتعلّق به، كأن يُصاب في ماله فيفقده، أو في ولده أو صديقه، وهذه المصيبة تكون كبيرة بالنسبة لبعض الناس، تُؤثّر على فكرهم وتنسيهم الهدف، لذا نجد بعض الناس إذا أُصيب بمصيبة يصل إلى حالة سيّئة، يندب حظّه، ويبقى يُردّد ما وقع عليه بشكل سلبيّ يؤثّر على مسيرته.

بينما نجد بعض الناس إذا أُصيب في نفسه أو في ماله وولده لا يؤثّر ذلك على إيمانه، بل يرى أنّ المصائب التي تحدث في الكون قانون إلٰهيّ يُرجع الأمر فيه إلى الله عزّ وجلّ، قال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلهِ وإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ * أُولٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِن رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ**﴾(١)،

(١) البقرة ٢: ١٥٦ و ١٥٧.

وهذا القسم من الناس يُحدّد لهم الله ﷻ الإطار العام الذي ينبغي أن يسيروا عليه في المسابقة، ﴿سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، إذن ينبغي للإنسان أن لايلتفت إلى ما يُصيبه من مصائب، فما يحدث في الحياة الدنيا مُدوّن مكتوب بحكمة من لدُن الله عزّ وجلّ، وذلك يجعلنا نتعامل مع ما يحدث بطريقة لا تُشكّل عقبة في وصولنا إلى الأهداف.

قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾، أي أنّ جميع المصائب بقضاءٍ وقدرٍ من الله عزّوجلّ، تُصنّف المصائب بأصناف متعدّدة، منها ما يحدثه الإنسان في حركته وسيره في الحياة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[(١)]، أي أنّ بعض ما يُصاب به الإنسان يترتّب على حركته غير الصحيحة، فيبتليه ﷻ ليُذكّره بما يجب أن يكون عليه.

الابتلاء لا يكون ضدّ الإنسان كما يتصوّر بعض، بل قد يكون بما يعود عليه بالخير، كإعطائه المال والولد أو الصحّة والعافية، كي يرى الله ﷻ ماذا يعمل بهذه النعم!!

معنى الكتاب في الآية

﴿مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾

ما هو الكتاب؟

هناك عدّة آراء في ذلك:

الأوّل: قال بعض العلماء تبعاً لنظريّات بعض الفلاسفة: إنّ في بدء الكون هناك ما يُسمّى بالصادر الأوّل، أي المخلوق الأوّل الذي صدر منه عزّ وجلّ،

---

(١) الشورى ٤٢: ٣٠.

وعُــبِّرَ عـن المـخلوق الأوّل بأنّـه الكـتاب الذي دُوِّنَ فـيه جـميع مـا يـحدث فـي الكون ، وهي نظريّة فلسفيّة فيها أبحاث طويلة ذكرت في علمي الكلام والفلسفة .

الثاني : يرى أنّ نفس الرسول ﷺ لكونه أكمل الموجودات وأعظمها هو الكتاب الذي دوّن فيه ما يكون . إذن الصادر الأوّل هو الرسول ﷺ ، لما إشارت إليه بعض الأحاديث منها : «**نُورُ نَبِيِّك ـ يَا جَابِرُ ـ خَلَقَهُ اللهُ ، ثُمَّ خَلَقَ مِنْهُ كُلَّ خَيْرٍ**»[١] ، لكنّ هذه الآراء لا دليل عليها ، بل هي مجرّد احتمالات ؛ إذ نعلم بأنّ الله ﷻ دوّن بنحو لا نعرفه ، ولا نحيط بكيفيّته ، فهو ﷻ دوّن جميع ما يحدث في عالم الكون في كتاب ، لعلّه لكتاب الذي تأخذ الملائكة منه ما يحدث من اُمور في الكون .

والمهمّ أنّ جميع ما يحدث في الكون حتّى ما يحدث بسوء تصرّف الإنسان ينطبق عليه قوله تعالى : ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾[٢] ، والله ﷻ يعلمنا ذلك قبل حدوثه ، فهو مدوّن عنده ؛ لأنّ الإنسان لا يعمل شيئاً إلّا وهو ﷻ عالم به ، ومحيط بكلّ شيء .

وإذا كان الله ﷻ عالم بكلّ شيء ومطّلع عليه قبل أن يقوم به الإنسان فينبغي أن لا يؤثّر أيّ حادث من الحوادث في عالم الدنيا ، سواءً كان خيراً أو سوءاً أو شرّاً يظنّه الإنسان كالمصائب التي يصاب بها في نفسه أو في ولده أو ما يتعلّق بشؤونه على حركته وسيره في صراط عبوديّته لله ﷻ .

يتعجّب بعض الناس من أنّ هذه الحوادث الكثيرة كيف يسعها ذلك الكتاب ؟

ونُؤكّد هنا على أنّ ذلك الكتاب ليس كتاباً مادّيّاً ، بل هو كتاب معنويّ ، فيه ما شاء الله ممّا يحدث ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿**إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ ، أي أنّ هذا لا يمثّل إلّا جزءاً بسيطاً ممّا دُوِّنَ فيه من العوالم

---

(١) بحار الأنوار : ١٥ : ٢٤ .

(٢) الشورى ٤٢ : ٣٠ .

والكائنات الأُخرى التي قد يكون لها ربط في عالم التكوين.

وبيّن ﷻ في بعض آي الذكر الحكيم ما ذكرناه آنفاً قال تعالى: ﴿**وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ**﴾(١)، والآية تؤكّد على أنّ جميع ما يحدث في هذا العالم والكون وفيما يتعلّق بشؤوننا من الحوادث لا يصدّنا عن مسارنا وهدفنا، المتمثّل في المسارعة والسير بجدّيّة كاملة للوصول إلى مغفرة الله عزّ وجلّ، أي التزكية، قال تعالى: ﴿**قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾(٢)، وللوصول إلى مراتب عظيمة، قال تعالى: ﴿**سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾.

لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾

استعرضنا الآية السابقة: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ**﴾ التي كانت بصدد لفت انتباه الإنسان إلى أنّه لا ينبغي أن تتكأّده العقبات وتقف في طريقه الموانع وبالتالي تكبو به الخُطى فلا يستطيع أن يواصل سيره في الحياة الدنيا إلى الهدف المحدّد من قِبل الله عزّ وجلّ، المتمثّل في المسارعة إلى مغفرة الله ﷻ والوصول إلى الدرجات العليا التي أشار إليها قوله تعالى: ﴿**وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾.

(١) الأنعام ٦: ٥٩.

(٢) الشمس ٩١: ٩.

والنتيجة التي نصل إليها هي أنّ الآية السابقة تتحدّث عن رفع الموانع التي تتمحور في المصائب التي تؤثّر على سير الإنسان وتمنعه من الوصول إلى أهدافه وغاياته ، والله ﷻ يقرّر أنّ هذه المصائب مكتوبة ، أي أنّها بقضاء الله ﷻ وقدره ؛ إذْ لا تكون المصائب إلّا بإذنه ﷻ لكونها موجودة في كتاب تدوينيّ يشتمل على كلّ مفردات عالم الكون . إذن كلّ ما يحدث في عالم الكون فإنّه ﷻ قد سجّله في اللوح المحفوظ ، أو في الكتاب المبين ، أو في الكتاب الذي قبل أن يوجد هذا الخلق الذي عبّرت عنه الآية : ﴿**مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا**﴾ ، أي من قبل أن نوجدها .

وإذا كان كلّ ما يحدث في عالم الوجود مدوّن في ذلك الكتاب فماذا ينبغي أن يكون عليه الإنسان من الناحية النفسيّة والسلوكيّة ، أو بالأحرى من الناحية المعرفيّة ؟ أي على ماذا ينبغي أن يعقد الإنسان قلبه وعزائم أمره في توجّهه إلى الله عزّ وجلّ ؟

توضّح الآية التي نحن بصددها هذا الأمر ؛ لأنّ الله ﷻ في الآية السابقة ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ**﴾ بيّن أنّ كلّ ما يحدث في عالم الوجود مدوّن في كتاب عند الله ﷻ قبل إيجاد الخلق ، ثمّ جاءت بعدها هذه الآية : ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾[1] كي تُؤكّد أنّ الهدف والغاية من الناحية السلوكيّة والنفسيّة أن لا تأسَ على ما فاتك ولا تفرح بما أتاك ؛ لأنّ الحزن والغمّ إذا استولى على الإنسان عندما يصاب بمصيبة في الأرض أو في نفسه وولده أو في جميع ما يتعلّق بشؤون حياته ، فإنّه لا يستطيع أن يواصل نشاطه الطبيعيّ في القيام بواجباته على مستوى الحالة المعرفيّة التي يريدها الله تعالى ، والتي ينبغي أن يكون عليها الإنسان المتعلّق بالله ﷻ ، وهي أن

(١) الحديد ٥٧ : ٢٣.

لا يأسى على ما فاته.

والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**لِكَيْلَا تَأْسَوْا**﴾؛ لأنّ هذا الأسى يمنع الإنسان من مواصلة سيره وديمومة نشاطه الذي يصل به إلى الله سبحانه وتعالى.

وإذا كانت المصائب بمعنى عامّ هي في صالح الإنسان من ناحية الخير، أي إذا أتاه الله سبحانه وتعالى المال أو الجاه أو المنصب أو الصحّة والعافية، وما إلى ذلك من الأُمور، ينبغي أن لا يفرح بذلك؛ لأنّ هذا الفرح سوف يوقعه في الخيلاء فيصبح متكبّراً، وسوف يفخر على الغير بما أتاه الله عزّ وجلّ.

إذن تركّز الآية المباركة فكر الإنسان في مساره من الناحية النفسيّة والسلوكيّة والأخلاقيّة على أن لا يحزن على المصائب التي تصيبه، ويرجع هذا إلى صفات أولياء الله سبحانه وتعالى التي تشير إليها بعض آي القرآن الكريم: ﴿**أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾(١)، فعندما لا يخاف الإنسان ولا يحزن فذلك علامة على كونه وليّاً لله سبحانه وتعالى.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلّ كلماته حكمة، قال عليه السلام: «**جُمِعَ الزهد في القرآن الكريم في هذه الآية المباركة ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾**»(٢)، يريد عليه السلام من هذه الكلمة الرائعة أن يشير إلى أنّ قلب الإنسان يدور بين أمرين: إمّا أن يتعلّق بالله سبحانه وتعالى أو يتعلّق بغيره، فإن تعلّق به سبحانه وتعالى ـ والتعلّق له درجات ـ سوف يقلّ ارتباطه بما عداه عزّ وجلّ، لذا قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «**ماذا وَجَدَ مَنْ فَقَدَكَ، وَمَا الَّذي فَقَدَ مَنْ وَجَدَكَ**»، أي أنّ من وجد الله سبحانه وتعالى لم يفقد شيئاً ومن فقده سبحانه وتعالى لم يجد شيئاً.

إذن بيّن الإمام عليه السلام حقيقة الزهد بشكل واضح، مع أنّنا نجد البعض يتصوّر

---

(١) يونس ١٠: ٦٢.

(٢) راجع نهج البلاغة: ٥٥٣ (صبحي الصالح).

أنّ حقيقة الزهد هي في لبس الرَّثّ من الثياب ، أو أن لا تمتلك شيئاً في الحياة الدنيا ، والأئمّة عليهم السلام كانوا يشجّعون على التخفيف من المظاهر الدنيويّة ؛ لأنّه يساعد على السير والسلوك إلى الله تعالى ، لكن لا يعني ذلك أن لا تمتلك شيئاً ، بل المهمّ هو أن لا يملكك شيء .

والزهد معناه أنّ الأشياء في الحياة الدنيا لا تسيطر عليك وإن كان التخفيف من الارتباط بالمظاهر الدنيويّة يساعد الإنسان في سيره وسلوكه إلى الله تعالى ، غير أنّ الأمر الهامّ هو أن لا تسيطر الأشياء على الإنسان ؛ لأنّه بمقدار ما يتعلّق قلبه بها سوف يَقُلّ ارتباطه بالله تعالى ؛ إذْ أنّ القلب إذا تعلّق بشيء وارتبط به سوف يشتغل به ، وبالتالي يصبح ذلك الأمر همّه ولا يتعلّق بشيء آخر سواه .

ولهذا نجد بعض علمائنا الأبرار يُبيّن حقيقة الزهد من الناحية العمليّة والسلوكيّة من خلال تطبيقه للآية ، وذلك ما قام به الأمير ورّام (صاحب كتاب مجموعة ورّام) ، فقد كان أميراً على مجموعة من القرى أو المدن في زمانه ، وكان يمتلك قصوراً متعدّدة ، وحياته من الناحية الظاهريّة تلفت نظر الآخرين ، ويضعون علامات استفهام كثيرة تجاه هذا الأمير ، بالخصوص من قِبل الزهّاد الآخرين ، حتّى أنّ أحدهم سأله : أنت زاهد وعندك كذا من المال ، أين الزهد مع هذه الأملاك والقصور ؟

التفت إليه الأمير ورّام وقال له : أُريد أن أخرج معك كي نتحدّث حول ما يتعلّق بأُمور الدنيا والآخرة ، بالفعل مشى الأمير مع ذلك الزاهد ، وانشغلا بالحديث ، ولمّا ابتعدا عن القرية أو المنطقة التي يُدير أُمورها وشؤونها الأمير ورّام تذكر الزاهد أنّه نسي عصاه ، فقال للأمير ورّام : لا بدّ أن نرجع لأنّ عصاي لا أستطيع أن استغني عنها ، قال له الأمير : دع العصا الآن ، فنحن خرجنا واشتغلنا بما هو أهمّ منها ، قال : أبداً أنا لا أسير إلّا بها .

فقال له الأمير : إذن هذا فراق بيني وبينك ، فأنت لا تستطيع أن تمشي إلّا بالعصا ،

وأنا تركت ما عندي من الأموال والقصور.

والإنسان إذا دعاه ملك الموت فلا يتعلّق قلبه بغير الله تعالى، فإذا دعي فإنّه سوف يُسلِّمُ أمره إلى الله تعالى ويرضى بقضائه وقدره، ومن أحبّ لقاء الله تعالى، فإنّ الله تعالى يُحب لقاءه. وهذا معنىً أوضحه أئمّة أهل البيت عليهم السلام عمليّاً في سلوكهم، فالإمام الباقر كان بديناً ـ أي جثّته ضخمة كما نُعبّر ـ وكان يخرج في بعض أيّام الصيف القائض مُتّكئاً على بعض غُلمانه وعبيده، وفي ذلك الوقت التقى به بعض المتصوّفة، فقال: شيخ من شيوخ قريش في هذه الساعة، أي في ذلك الوقت الحارّ يخرج لطلب الرزق، فما تقول لو جاءك ملك الموت وأنت على هذه الحالة؟ فأجاب الإمام عليه السلام قال: **لَوْ جَاءَنِي ـ وَاللهِ ـ الْمَوْتُ وَأَنَا فِي هَذِهِ الْحَالِ جَاءَنِي وَأَنَا فِي طَاعَةٍ مِنْ طَاعَاتِ اللهِ، أَكُفُّ بِهَا نَفْسِي عَنْكَ وَعَنِ النَّاسِ**(١)، أي لديّ هدف وغاية، ولذا فأنا على أتمّ الاستعداد والتسليم لأمر الله عزّ وجلّ، حبّذا لقاء ملك الموت بهذه الحالة.

إنّ الإنسان إذا كان على طاعة الله فإنّه يحبّ لقاء الله، لذلك نجد الإمام عليه السلام أجابه أنّه ليس لديه مانع في أن يلقى الله تعالى على تلك الحالة، لكنّنا لو طبّقنا هذا الأمر على أنفسنا ودعانا ملك الموت فهل نُسلّم الأمر إلى الله تعالى أم إنّنا سوف نتمسّك بالبقاء والارتباط بالحياة الدنيا؟

الجواب واضح، سوف نتمسّك بالبقاء بهذه الحياة، وذلك لشدّة تعلّقنا بها، وبالتالي يصعب علينا لقاء الله تعالى.

إنّ الإنسان إذا ارتبط بالله تعالى وقَوي ارتباطه فإنّه سوف يحبّ لقاء الله تعالى في أي لحظة، لذا قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام: «**وَاللهِ ما فَجَأَني مِنَ الْمَوْتِ وَارِدٌ كَرِهْتُهُ**»(٢)،

---

(١) الإرشاد: ٢: ١٦١ و ١٦٢.

(٢) نهج البلاغة: ٣٧٩ (صبحي الصالح).

أي أنّ الموت لو جاءه في أي لحظة فلن يفاجئه لأنّه سلّم أمره إلى الله تعالى ، وجميع الأُمور تسير فيما يريده الله تعالى.

إذن إذا تعلّق القلب بالله تعالى فإنّه سوف يؤدّي جميع الأُمور في الحياة الدنيا من منطق إلـهيّ وربّانيّ ، وبالتالي إذا دعاه ملك الموت سوف يجيب بسرعة ؛ لأنّه سلّم أمره إلى الله عزّ وجلّ ، ومثل هؤلاء يحبّ الله تعالى لقاءهم وهم يحبّون لقاءه ، وهذه هي حقيقة الزهد ، أي التعلّق بالله تعالى وعدم الارتباط بما عداه ، كثير من الناس لا يفهم هذا المعنى ، ويتعلّق بغير الله تعالى ، قد يتعلّق قلب بعضٍ بامرأة ويظلّ مشغولاً بها طوال حياته ، أو بمال جمعه ويظنّ أنّ كلّ شيء في الحياة الدنيا هو المال ، فيسعى جاهداً لجمعه ، وقد يتعلّق قلبه بالمقام والجاه فيسعى بكلّ ما أُوتي من قوّة في صنع ذلك ، وهناك أُنموذج من الناس يريد رضا الله تعالى في سيره وسلوكه ويعرف أنّ جميع الأُمور إنّما تكون بقضائه تعالى وقدره ، ومع ذلك يسعى جادّاً وكادحاً ﴿**يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ**﴾(١) هذا الإنسان يسعى إلى ما فيه الخير لنفسه ولغيره ، لأنّنا أشرنا إلى أنّ كمال الإنسان ليس لنفسه بل لها ولغيره.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾

المختال : مأخوذ من الخيلاء ، ويراد به هنا الكِبْر والتكبّر على الآخرين ؛ ذلك أنّ البعض إذا أتاه الله تعالى المال أو العلم أو المنصب يصبح مختالاً ، أي متكبّراً إذا نظر إلى ما يملك واستشعر في نفسه أنّ الله تعالى ليس له دور فيما وصل إليه فسوف يطغى ويتكبّر ، ويمكن أن يصل به طغيانه إلى التكبّر على بارئه وخالقه تعالى.

لذا قال العلماء : إنّ التكبر والكبر ليس على الإنسان فقط ، بل يمكن أن يكون على الله تعالى ، فمن أغدق الله تعالى عليه بالنعم المتعدّدة قد يبدأ بالتمرّد على

(١) الانشقاق ٨٤: ٦.

القوانين الإلـهيّة، ويشكّك فيها، بل قد يُخطّئها أو ينكر بعضاً منها، وهو أُسلوب قد يخرجه عن ربقة العبوديّة تدريجياً إلى أن يصبح كفرعون الذي قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[١].

قد توجد عند إنسان مزيّة دون الخلق، ويرى أنّ له فضلاً دون بقيّة الناس، لكنّه لا يتكبّر. فالصدِّيق يوسف عليه السلام قال: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾[٢]، أي أنّه يرى لنفسه مزيّة ولكنّ ذلك ليس من التكبّر بالنسبة إليه عليه السلام، لكونه يستند فيما لديه من نِعَم إلى الله سبحانه وتعالى، بمعنى أنّه لا يرى أن كونه حفيظاً عليماً من لدن ذاته ونفسه، وأنّ ذاته تستدعي التفوّق على غيره دون أن ترتبط بالله عزّ وجلّ، إنّ من يرى أنّ القدرات الفائقة هي من ذاته فقط فهو مثل قارون الذي قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[٣]، يسند ما لديه وما حصل عليه إلى ذاته، وينكر الدور الإلـهيّ في ذلك.

أمّا من رأى أنّ الله سبحانه وتعالى هو الذي منحه وأعطاه وأنعم عليه كي يبتليه أيشكر أم يكفر، كما قال سليمان عليه السلام في بعض آي الذكر الحكيم: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾[٤]، فإنّ ذلك لا يكون من الكبر والتكبّر؛ لأنّ المنح والنعم لا تنفصل عن الله عزّ وجلّ، أي أنّ كلّ النعم الماديّة والمعنويّة ـ ومنها السجايا الأخلاقيّة لمن أتاه الله سبحانه وتعالى خُلقاً كريماً، ورأى أنّ ذلك الخُلُق وجد عنده لصفة ذاتيّة ـ تستند إلى ذاته من دون تعلّق وارتباط بالله سبحانه وتعالى، فإنّ ذلك تكبّر وخيلاء، بخلاف من يسند جميع ما لديه

(١) النازعات ٧٩: ٢٤.
(٢) يوسف ١٢: ٥٥.
(٣) القصص ٢٨: ٧٨.
(٤) النمل ٢٧: ٤٠.

من مواهب ونعم إلى الكبير المتعال، الغنيّ المطلق (الله تبارك وتعالى)، فإنه قد برّأ نفسه من الخيلاء والكبر؛ لأنّ التكبّر يوجب الانفصال عن الله تبارك وتعالى.

ولهذا يَكلُ الله المتكبّر إلى نفسه وقدراته، وفي النهاية تكبو به الخُطا، وتَزِلُّ قدمه ويتلاشى وجوده وعكسه المتواضع لله تبارك وتعالى الذي يرى أن ما لديه هو من الله عزّ وجلّ.

يتلبّس المتكبّر بصفة مختصّة بالله تعالى لا تكون لغيره، لذلك ورد في الحديث القدسيّ: «**الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي فِي شَيْءٍ مِنْهُمَا قَصَمْتُهُ**»(١)، وذلك يعني أنّ الله تبارك وتعالى يُوكل الإنسان المتكبّر إلى نفسه ويقطع عنه المدد الإلٰهيّ. ولهذا كرّر النبيّ صلى الله عليه وآله هذا الدعاء: «**وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَداً**»، ففي رواية: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللهِ عليه السلام يَقُولُ وَهُوَ رَافِعٌ يَدَهُ إِلَى السَّمَاءِ: **رَبِّ لَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَداً**، ...، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: **يَابْنَ أَبِي يَعْفُورٍ، إِنَّ يُونُسَ بْنَ مَتَّى وَكَلَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلىٰ نَفْسِهِ أَقَلَّ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ فَأَحْدَثَ ذَلِكَ الذَّنْبَ**. قُلْتُ: فَبَلَغَ بِهِ كُفْراً أَصْلَحَكَ اللهُ؟ قَالَ: **لَا، وَلَكِنَّ الْمَوْتَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ هَلَاكٌ**(٢)، أي إذا لم يستمدّ ما لديه من عطايا ونِعَم من الله عزّ وجلّ سوف يتلاشى وجوده. نعم، قد يبقى وجوده المادّيّ ولكنّه سينهار في وجوده المعنويّ.

عندما نرجع إلى الآية: ﴿**وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾(٣) نجدها تتحدّث عن الفخر، وهو يرجع إلى دائرة الكبر الذي يكون إمّا على الله تبارك وتعالى أو على عباده، وقد ذكر العلماء أنّ للتكبّر على الله تبارك وتعالى موارد متعدّدة منها التكبّر على شرائعه تعالى، وعلى رسله وأوليائه ومنها الكفر بما أنزله تبارك وتعالى. ولذلك ينبغي للإنسان أن يتواضع للأحكام الشرعيّة بمعنى أنّه لو علم بحكم من أحكام الله تبارك وتعالى لا يقول إنّ هذا الحكم

---

(١) بحار الأنوار: ٧٠: ١٩٢.

(٢) بحار الأنوار: ٤٧: ٤٦.

(٣) الحديد ٥٧: ٢٣.

لا نعرف الحكمة منه، أو أنّه لا فائدة فيه، فينكر بعض الأحكام الإلٰهيّة، ويساوي نفسه بالله في التشريع، وقد أبان الحقّ سبحانه أنّ التشريع له، قال تعالى: ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾(١)، ومن رأى أنّه مساوٍ لله ﷻ أو أكثر حكمة منه سبحانه، فهو في حقيقته متكبّر على الله تعالى.

وهناك نوع من التكبّر على الله ﷻ يقوم الإنسان فيه بمحاربة أولياء الله عزّ وجلّ، فإذا رأى نبيّاً من الأنبياء، أو رسولاً من الرسل، أو وليّاً من أولياء الله يدعو إلى الله تعالى، يقف في طريقه ويعارض دعوته ويواجهه بكلّ ما أُوتي من قوّة.

ماذا تعني عدم المحبّة الإلٰهيّة؟

عدم محبّة الله ﷻ تتحقّق بأحد أمرين:

الأوّل: أنّ الله ﷻ يقطع المدد الكلّيّ الذي يمدُّ به جميع المخلوقات التي ترتبط برحمته العامّة لكلّ الوجود، وبالتالي سوف ينهار وجوده ويتلاشى، قال المصطفى ﷺ: «**وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ أَبَداً**»؛ لأنّ ابتعاده عن هذه الرحمة يعني نهايته. وأصل وجود الإنسان واستمراره يتوقّف على هذه الرحمة العامّة التي أشار إليها الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في دعاء كميل: «**اللّٰهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِرَحْمَتِكَ الَّتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ**».

الثاني: أنّ الله عزّ وجلّ يقطع عنه المدد الخاصّ الذي يعطيه للمؤمنين، بمعنى يخرج عن دائرة المؤمنين التي تحوي ألطافاً وعنايات ومنحاً وعطايا وهبات إلٰهيّة، وهذه الدائرة يشير إليها قوله تعالى: ﴿**وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً**﴾(٢).

فهو عزّ وجلّ من رحمته بالمؤمنين يعطيهم بعض العطايا الخاصّة بهم، والتي

---

(١) الأنعام ٦: ٥. يوسف ١٢: ٤٠، ٦٧.

(٢) الأحزاب ٣٣: ٤٣.

يتفاوتون فيها، فبعضهم يعمل عملاً قليلاً، والله تعالى ينمي هذا العمل، فتكون له بركات لا نهاية لها، قال تعالى: ﴿**وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[1]، وبعضهم الآخر يعمل عملاً كثيراً لكن لا بركة فيه، وفوائده محدودة. هذا بالنسبة لأعمال الخير التي تصدر من الناس.

أمّا بالنسبة للأعمال التي تصدر من العلماء، فإنّ بعضهم قد يُؤلّف كتاباً فيكون مباركاً، وينتشر بين الناس فيستفيد منه الجميع، ويعود السبب إلى وجود خصوصيّة فيه عن غيره، هي أنّ العالِم كتبه مع كونه مرتبطاً ارتباطاً خاصّاً بالله عزّ وجلّ، وعنده نكران لذاته ونفسه، والله تبارك وتعالى يبارك في علمه، فيصبح وجوده مصدراً للخير والعطاء، وتترتّب على ذلك آثار لا نهاية لها.

نحن نرى كمّاً هائلاً من العطاء العلميّ في تأليف الكتب المتعدّدة، لكن بعضها لا يماثل ما كتبه الشيخ الأنصاريّ ﵀، فهو كتب بعض الكتب التي أصبحت مصدراً للخير والعطاء، ومحوراً للدراسات الحوزويّة على مدى سنوات طويلة، وما ذلك إلّا لأنّه لم ينظر إلى ذاته بقدر ما نظر إلى الله تعالى ﴿**وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾، ويظهر ذلك على الإنسان في تصرّفاته، فهو من الناحية النظريّة يتحدّث عن خصال الخير، لكنّه في التطبيق العمليّ يريد أن يؤكّد ذاته ويُظهر قُدراته في قِبَال الآخرين، وينظر إلى وجوده في قبال وجود الآخرين، بينما نجد إنساناً آخر لا ينظر إلى وجوده وإنّما ينظر إلى الله ﷻ.

قال بعض العرفاء: إنّني لم أذنب، فقال له آخر: إن وجود هذا التصوّر عندك هو ذنب لا يقاس به ذنب، أي أنّ من نظر إلى وجوده فرأى أنّه أفضل من الآخرين، وقال: أنا كذا وكذا، فهذا قد لا يبارك الله ﷻ وجوده، أمّا إذا نظر إلى الله ﷻ ورأى

---

(١) البقرة ٢: ٢٦١.

أنّ النعم منه تعالى، فإنّ الله تعالى يبارك فيما لديه، ويعطيه الخير، ويُنمّي قدراته، ويزيد في عطائه، سواءً في المال أو الذرّيّة أو في العمل الصالح أو في التأليف والكتابة للعلماء والمتخصّصين.

هناك رواية تتعلّق بقوله تعالى: ﴿**وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ تؤكّد على أنّ الآية لها ارتباط وثيق بالمراتب الأخلاقيّة، وما يترتّب عليها من العطايا، وأنّ الإنسان في بعض الأحيان قد يقوم بعمل مستحبّ أو يترك مكروهاً فيرتّب الله تعالى عليه خيراً كثيراً.

تذكر الرواية أنّ يعقوب عليه السلام وأولاده الأحد عشر أخوة يوسف عليه السلام عندما دخلوا إلى مصر، كان يوسف عليه السلام جالساً على كُرسيّ المُلك، وبنيامين أخوه عن يمينه، ومقتضى الأدب والتعامل مع الأبوين إذا دخل أحدهما أو كلاهما على الابن أن يقوم الابن لهما احتراماً وتبجيلاً، وقد فعل ذلك بنيامين تجاه والديه، بينما بقي يوسف على سرير الملك ولم يقم بهذا الأدب تجاه والديه فترك الأوْلى، فرحّب بهم قائلاً: ﴿**ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ**﴾(١)، وخاطبهم باحترام، ولكنّه لم يقم من مقامه كما فعل بنيامين، وعند ذلك نزل جبريل الأمين على يوسف عليه السلام، وقال له: يا يوسف أيّها الصدّيق إنّ الله تعالى نزع النبوّة من صلبك وجعلها في بنيامين، وذلك لاحترامه لأبويه وبرّه بهما(٢)، أي أنّ لذلك أثر وضعيّ، فإنّ طريقة التعامل لها أثر في اختلاف درجة العمل الصالح، فبنيامين لم ينظر أنّه على كرسيّ مُلْك أو موجود في بلاط الحاكم، فأسرع راكضاً لأبويه ولم ينظر إلى حالتهما وكونهما جاءا من البدو وعليهم وعثاء السفر وما أشبه ذلك، لكنّ يوسف عليه السلام نتيجةً للأعراف الدبلوماسيّة والإطار الرسميّ آنذاك والذي يتطلّب منه البقاء على كرسيّ الحُكم

(١) يوسف ١٢: ٩٩.

(٢) أمالي الصدوق: ٣٢٣. تفسير مجمع البيان: ٥: ٤٥٦.

وعدم القيام لم يفعل ذلك.

وخلاصة القول: أنّه كلّما كان عمل الإنسان وتصرّفاته التي يقوم بها تجاه الناس مرتبطة بالله عزّ وجلّ، كلّما كان أثرها المعنويّ بنفس المقدار على حال الشخص ونفسيّته، فيكون الإنسان كما قال تعالى: ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾، وإذا كان بهذه المثابة فإنّ الله ﷻ يُبارك في علمه ويُغدق عليه من عطائه.

الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

بعد أن بيّن الباري ﷻ أنّه يُجري ويُقدِّر المصائب في الكون، وأنّها مكتوبة قبل خلق الكون، والسبب في تقديرها وكتابتها كي لا ييأس الإنسان على ما فاته ولا يفرح بما أتاه الله ﷻ، بمعنى أنّ المصائب التي تجري على الإنسان تجعله يتعلّق دائماً وأبداً بالباري ﷻ.

أمّا إذا استقرّ حال الإنسان على حال ولم يُصَبْ بمصيبة فإنّ الطغيان والخروج عن صراط عبوديّة الله ﷻ سيكون توأماً وقريناً له.

أي أنّ المصائب هي التي تُنبّه الإنسان وتجعله يعرف أنّ الحياة متقلّبة من حال إلى حال، ولذلك بيّن الله ﷻ في قوله تعالى: ﴿**مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ**﴾، وأنّ الهدف هو الوصول إلى ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾.

إذن دور الابتلاء هو إعادة التوازن الداخليّ عند الإنسان وعدم وصوله إلى حالة الطغيان. ولو استقرّت حالة الإنسان على ما هي عليه ولم يُصب بأيّ ابتلاء

فإنّ ذلك سيؤدّي به إلى الطغيان، ومع أنّنا نجد بعض الناس يصاب بالغرور مع تغيّر الأوضاع وعدم استقرار الأحوال، فكيف سيكون وضعه لو استقرّت الأحوال دون تغيير وزوال؟! فإنّه قد يَفجُر ويَكفُر أكثر ممّا هو عليه سابقاً.

ولذلك يؤكّد العلماء: أنّ المصائب تفيد الإنسان، وهي التي توصله إلى إدراك حقيقة إنسانيّته، كما أنّ لها تأثيراً على فكره وعقله وروحانيّته بل وتقدّمه، بل إنّ أكثر النعم والعطايا التي يُنعم الله ﷻ بها على الإنسان نتيجة للمصائب التي يبتليه بها، والتي توصله إلى قِيَمٍ من المعنى وتقدّمٍ في عالم الروح، ولولا المصائب لما تذكّر الإنسان الله عزّ وجلّ، ونسي مبدأه ﴿**كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ * أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ**﴾[1]، فحال الإنسان لا يدوم، كما قيل: إنّ دوام الحال من المُحال.

بعد أن بيّن الله ﷻ أنّ حال الإنسان في تغيّر وتبدّل، يشير إلى بعض النعم التي يمنحها الإنسان، فهو ﷻ يُعطي الإنسان المال، ولكنّه بدلاً من أن يصرف المال في الطريق الصحيح ويقرضه الله عزّ وجلّ، يتصوّر أن المال هو ملك له، وليس لأحدٍ فيه حقّ أبداً ويبخل به، فلا يُؤدّي الحقّ الشرعيّ، بل ويمنع الآخرين الذين يريدون أن ينفقوا في سبيل الله عزّ وجلّ؛ وذلك لأنّ البذل والإنفاق في سبيل الله ﷻ سيؤدّيان إلى فضح الإنسان المُمسك الذي يبخل بأمواله، وسوف يُلفت نظر الآخرين إلى أنّه لا يعطي ولا ينفق، وسيفتضح أمره وتنكشف حقيقته أمام الناس، ويريد البخيل من الآخرين أن يشاركوه في الاتّصاف بهذه الصفة الذميمة، كي يحافظ على أمواله من جهة، ويحافظ أيضاً على وجاهته ووضعه الاجتماعيّ من جهةٍ أُخرى.

يذمّ الله ﷻ في كثير من آي القرآن الكريم البخل ويبيّن أنّ المال الذي يمنحه للإنسان إنّما هو عارية ومتاع ولا قيمة له إلّا بإنفاقه في سبيل الله، فإن أنفقه خَلُدَ

---

(١) العلق ٩٦: ٦ و ٧.

واستفاد منه ، وصار مالكاً له ، أي أصبح المنفق للمال هو المالك له ، وإن لم ينفقه في سبيل الله أصبح المال هو المتصرّف فيه ، والمسيطر عليه والمالك له والمؤثّر فيه .

لهذا يخاطب الإمام أمير المؤمنين عليه‌السلام كميل بن زياد النخعيّ رضي‌الله‌عنه الذي كان من خواصّه قائلاً : « **يَا كُمَيْلُ ، هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ** »(١) ، يُلفت عليه‌السلام انتباه كميل بن زياد إلى حقيقة رائعة وجميلة وماثلة بين أعيننا هي أنّ الأموال التي نختزنها ونحافظ عليها لها دور في إهلاك جانبنا الروحيّ ونفوسنا الطيّبة في الحياة ، « **هَلَكَ خُزَّانُ الْأَمْوَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ** » ، فهو حيّ يمشي بيننا ، ولكنّه ميّت لا قيمة له ؛ لأنّ جميع قِيَم الإنسانيّة ميّتة في ذاته ، فلا يفكّر في الآخرين بقدر ما يفكّر في اكتناز المال وجمعه ، أمّا العلماء الذين يريدون الله سبحانه‌وتعالى ويتعلّمون لله سبحانه‌وتعالى فهم الباقون ما بقي الدهر .

الإنسان بوجوده قد يموت لكنّه يبقى بعلمه وروحانيّته ، وبما قدّمه للبشريّة من مآثر وقِيَمٍ ومُثُل عالية .

قد نغترّ إذا رأينا ثريّاً من الأثرياء وصاحب مال كبير ، يمتلك الأموال الكثيرة والعقارات الكبيرة ، ويعبّر عنه الناس أنّه من المُلّاك ، ولكن هذا الإنسان المسكين بعد مائة سنة إذا لم يستخدم ماله في شيء نافع وأعمال خيريّة فإنّه سوف ينتهي بموته ، ولن يبقى له ذكر ولا مآثر تُنمى إليه . وقد تعرّفنا في حياتنا على كثير من الأثرياء الذين ماتوا ولم يستفيدوا من أموالهم شيئاً ، وليس لهم أيّ قيمة ، بل قد يكون الفقير أفضل حالاً منهم . كما أنّنا تعرّفنا أيضاً على كثير من العلماء والشخصيّات الكبيرة التي لا تمتلك المال ولكنّها تمتلك العلم ، وصحيح أنّهم ماتوا أيضاً ، ولكن موتهم يختلف عن موت اُولئك الأثرياء ؛ لأنّ تلك الشخصيّات بقي ذكرها يتجدّد بعطائها وبذكر الناس الطيّب لها .

---

(١) نهج البلاغة : ٤٩٦ (صبحي الصالح) .

عندما أقرأ بعض التحقيقات العلميّة التي تحوي بعض الأفكار البديعة والرائعة لعلماء كِبار ومفسّرين ومتخصّصين في التفسير والرجال والفقه فإنّني أترحّم عليهم، واذكرهم وأستفيد منهم، وبعض ما أقوله وأنقله للآخرين إنّما هو من عطاءاتهم وأفكارهم النيّرة.

انظروا إلى الشخص الذي يدفع أمواله في بناء مسجد مثلاً، مع أنّ بإمكانه أن يحتفظ بهذه الحَفْنَة من المال التي يبني بها المسجد، ويحافظ عليها وبالتالي يبقى محافظاً على رصيده الماليّ في أعلى مستوياته، كما يفعل كثير من أصحاب رؤوس الأموال الكبيرة، بينما نجد هذا المسجد الذي نصلّي فيه، والأموال الطائلة التي دفعت لبنائه إلى أن أصبح بهذا الشكل الجميل، وعندما ننظر إلى النشاطات والفعاليّات من الأدعية والصلوات المستحبّة والمحاضرات والدروس الدينيّة نجد أنّ ثواب كلّ عمل من هذه الأعمال الصالحة بشكل مستمرّ ودائم يرجع إلى الشخص الذي وضع أمواله وأنفقها في بناء هذا المسجد. بينما هناك أُناس يملكون الملايين ولم ينفقوها في طريق الخير ووجوه البرّ.

ولقد حدّثني أحد الأشخاص أنّه خَسِرَ خمساً وعشرين مليوناً مع أنّ باستطاعته أن يبني بهذه الأموال خمسة مشاريع خيريّة ضخمة أو يبني بها خمسة مساجد، لكنّه لم يستفد منها.

المال إذا أنفقته في سبيل الله ملكته وانتفع به الآخرون وإن أمسكته وأبقيته خسرته، ولم يستفد منه غيرك، قد يستفيد منه الأبناء والورثة بعد موتك، فتحاسب عليه، وعند ذلك تندم وتتألّم ولكن ولاتَ حَينَ مَندمٍ.

يُبيّن الله تعالى لنا بقوله: ﴿**الَّذِينَ يَبْخَلُونَ** ـ أي أنّهم من أسوأ الناس، لأنّهم لا يأمرون بالخير والإنفاق، فهم في الحقيقة خرجوا عن صراط العبوديّة لله تعالى ـ **وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ** ـ أي يمسكون ولا ينفقون أموالهم ـ **وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ**﴾، أي لا تتصوّر أنّ الله تعالى إذا أمرك بالإنفاق في سبيله فهو محتاج إليك،

وإنّما أنت الذي تحتاج الإنفاق، والله ﷻ يدعوك إلى الاستفادة ممّا أعطاك إيّاه من النعم، وهو الغنيّ الحميد المعطي المهيمن، والأموال آتاك إيّاها للاختبار والامتحان وهو مستغن عنك وأنت المحتاج إلى إنفاق أموالك في سبيله تعالى.

قال العلماء: إنّ هذا دفع دَخْلٍ مقدّر لبعض قاصري التفكير والفهم الذين يظنّون أنّ الله ﷻ عندما دعا الناس إلى الإنفاق في سبيله أو إقراضه فإنّه يحتاج إليهم، فيبيّن الله ﷻ في ذيل الآية المباركة بأنّه ليس بمحتاج لأحدٍ أبداً، وأنّ من ينفق المال هو المحتاج إلى رحمة الله ﷻ وعطائه وفضله وكرمه وجوده، ﴿**وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ هُوَ خَيْراً وَأَعْظَمَ أَجْراً وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾(١)، فهو غنيّ مطلق، وجميع ما في الكون يفتقر إليه وهو ﷻ لا يفتقر إلى شيء، ومن يُعرض لا يستجيب لدعوة الله عزّ وجلّ، والإعراض هو الذي عبّرت عنه الآية: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّ**﴾، يعني من يُعرض فإنّ الله ﷻ يُعرض عنه، ومن يعرض الله عنه، فالباري ﷻ غنيّ عنه.

والمقصود من الحميد، أي المحمود في العطاء والمَنِّ في السرّاء والضرّاء، وفي الشدّة والرخاء، يُحمد على جميع أفعاله عزّ وجلّ، لأنّها تجسّد الحكمة والإتقان.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥)

أهداف بعثة الأنبياء

تبيّن الآية المباركة بعض الغايات والأهداف المترتّبة على إرسال الرسل

(١) المزمّل ٧٣: ٢٠.

وبعث الأنبياء، ومن هنا تأتي مجموعة من التساؤلات نحاول الإجابة عليها، لماذا أرسل الله ﷻ رسلاً وبعث أنبياءً؟، ثمّ إنّ هؤلاء الأنبياء والرسل كيف كانوا يتحدّثون مع الناس؟ وماذا كانوا يمارسون في أُمور حياتهم؟

والآية تتكفّل ببيان مطالب متعدّدة، أهمّها أنّ إرسال الرسل، والذي هو لطف من الله عزّ وجلّ ـ معنى اللطف أنّه يقرّب الناس إلى الطاعة ويُبَعِّدَهُمْ عن المعصية ـ.

إلّا أنّ لإرسال الرسل غايات وأهداف أُخرى، من جملتها ما أشار إليه مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَبَعَثَ فِيهِمْ رُسُلَهُ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِياءَهُ، لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ، وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيِّ نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ، وَيُرُوهُمْ آيَاتِ الْمَقْدِرَةِ**»، وهنا مطالب ثلاثة ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام كأهداف لإرسال الرسل:

الأوّل: «**لِيَسْتَأْدُوهُمْ مِيثَاقَ فِطْرَتِهِ**»، أي يجعلون الناس يسيرون على وفق الفطرة التي فطروا عليها: ﴿**فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[١]، إمامنا أمير المؤمنين عليه السلام يوضّح في كلامه الآية القرآنيّة.

الثاني: «**وَيُذَكِّرُوهُمْ مَنْسِيِّ نِعْمَتِهِ**»، هناك نِعَمٌ نُسِيَتْ نتيجة للغفلة فيأتي الأنبياء كي يذكّروا بالنعم التي امتن الباري ﷻ بها.

الثالث: «**وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ**»، أكثر الناس يهمل عقله ولا يستخدمه في أي شأن من شؤونه، وبالتالي لا يستفيد منه.

ومعنى العقل هو أن تعقل الأشياء وتدركها. تعقلها أي تربطها للاستفادة منها؛ لأنّ أكثر الناس لا يستفيدون من عقولهم ويؤدّي ذلك إلى التراكمات والنسيان، ثمّ تُغطّي سحب كثيفة على إدراكاتهم وعقولهم فلا يستطيعون أن يروا الحقّ،

---

(١) الروم ٣٠: ٣٠.

ولا تبدوا لهم الحقائق واضحة ، ويأتي دور الأنبياء في إزالة الدرَن ، ومسح الأتربة ، والتبعات التي تُغطّي عقول الناس ، لذا قال عليه‌السلام : « **وَيُثِيرُوا لَهُمْ دَفَائِنَ الْعُقُولِ** » ، أي كي يصبح الإنسان له القدرة على الاستفادة من موهبة العقل التي هي أعظم النعم .

الدعائم التي تساند دعوة الأنبياء

بعد أن تعرّفنا على بعض الفوائد المترتّبة على إرسال الرسل وبعث الأنبياء ، نرجع إلى الآية ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا** ـ بماذا ؟ ـ **بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ .

هناك دعائم متعدّدة تساند دعوة الأنبياء تعرّضت لها الآية :

الأُولى : البيّنات

﴿**بِالْبَيِّنَاتِ**﴾

من أقوى الأعمدة التي يستند إليها الأنبياء والرسل المنطق الواضح ، والبيان التامّ ، البيّنات تعني الدلائل الواضحة ، وعندما يستدلّ النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله على دعوته أو يقيم حجّة على مطلبه فإنّ طرحه بمنتهى الوضوح ، ونصاعة البيان ، والدلائل الواضحة هي التي لا يشوبها لَبسٌ ولا يكتنفها غموض ، ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ .

الثانية : الشرائع

﴿**وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ**﴾

أيّد الله تبارك وتعالى الأنبياء بالكتب والشرائع ، والقوانين التي يسير الناس على وفقها

ويستضيئون بنورها. وهذه الشرائع هي من الله ﷻ أوحاها إلى الأنبياء، الذين لا يسيرون على أهوائهم، لأنّ النبيّ ـ كما عبّر عنه القرآن ـ ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ**﴾(١).

الثالثة: الميزان

﴿وَالْمِيزَانَ﴾

الدّعامة الثالثة التي أيّد الله تعالى بها الأنبياء الميزان، وهو الذي نَزِنُ به الأُمور، لذا، ورد في رواية: أنّ جبرئيل عليه السلام أوحى إلى بعض أنبياء الله، أن يأمر الناس باستخدام الميزان في بيعهم وشرائهم كي يسيروا على وفق القانون. والميزان الذي نستخدمه في الأشياء المادّيّة يتألّف من لسانٍ وكفّتين، هو ميزان مادّيّ.

غير أنّه هناك موازين أُخرى ليست مادّيّة، نَزِن بها الأفكار كعلم المنطق وقواعده التي هي ميزان للحجج، بحيث نقيس بها الصواب من الخطأ في كلّ أمر من الأُمور، فنسمّي ذلك ميزاناً، لكونه يفصل بين الحقّ والباطل، ولهذا سمّى العلماء علم المنطق بميزان الفكر.

المنطق مجموعة من القواعد العقليّة التي بواسطتها نصل إلى الصواب، من خلال الاستدلال المباشر وغير المباشر، اللذين يبحثان في القياس والاستقراء والتمثيل والعكس المستوي وعكس النقيض والتناقض، وبهذه الأُمور يستطيع الإنسان أن يزن الفكر كي يتعرّف على خطئه من صوابه، والأنبياء كذلك، عندهم ميزان يزنون به الخطأ في الفكر، والعقيدة، والفَهْم، والسلوك، والمنطق، والاتجاه، بل في كلّ أمر يتعلّق بشؤون الإنسان، وميزانهم هو تلك الحجج البيّنة والواضحة التي لا غموض فيها، لذلك خاطب إبراهيم عليه السلام النمرود بخطاب أفحمه.

---

(١) النجم ٥٣: ٣ و ٤.

فقد سأل النمرود إبراهيم عليه السلام : من إلٰهك ؟ وكأنّه ينكر وجود إلٰه غير نفسه ويدّعي ما ليس له .

فقال إبراهيم عليه السلام : ﴿**رَبِّيَ الَّذِى يُحْيِيْ وَيُمِيتُ**﴾ .

قال النمرود : ﴿**أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ**﴾، فأطلق مسجوناً وقتل إنساناً ، وأراد أن يُشَبِّه على الناس ، ويخدع الحاضرين الذين صدّقوه .

فقال إبراهيم عليه السلام : ليس هذا بإحياء ، ثمّ قال : ﴿**فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ**﴾ ؟ وكان جواب النمرود كما ذكره القرآن : ﴿**فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ**﴾(١) ؛ لأنّ بعض الحجج التي تكون مشوبة بالمغالطة يمكن أن تلتبس على البسطاء ، لكن النبيّ يستطيع أن يقيمها ، ويكشف اللبس والمغالطة فيها .

وعندما نرجع إلى بعض زيارات مولانا أمير المؤمنين عليه السلام نجد فيها إشارة إلى أنّه الميزان ، «**السَّلَامُ عَلىٰ ميزانِ الْأَعْمالِ**»(٢) ، الإمام ميزان الأعمال ، وإذا أردنا أن نعرف أنّ العمل صالح أو غير صالح نَزِنَهُ بعمل عليّ عليه السلام ؛ لأنّ عمله عليه السلام يمثّل الكمال بكلّ مراتبه ، لا عيب فيه ولا نقص ، والله سبحانه وتعالى يرتضيه ويقبله ، وذلك معنى أنّ الإمام عليه السلام ميزان الأعمال .

ولذلك تتبيّن لنا أسرار هذه الزيارات التي نزور بها أئمّتنا عليهم السلام ، والمعارف العالية التي تحويها ، فإذا كان الأنبياء والرسل لديهم ميزان ، فكذلك الأئـمّة عليهم السلام لديهم ميزان .

إذا أردنا أن نزن عمل إنسان نقيسه على عمل عليّ عليه السلام في الإخلاص والتقوى والقرب والفضيلة والنزاهة ، وفي الأُمور التي تمثّل قمّة الكمال . وقد وردت روايات في مصادر الفريقين تبيّن أنّ علياً عليه السلام : «**قَسِيمِ الْجَنَّةِ وَالنّارِ**» ، وهي بالمعنى الذي

---

(١) البقرة ٢: ٢٨٥.

(٢) زياراته عليه السلام المطلقة : الزيارة الأُولى والسابعة .

ذكرناه، في كونه عليه السلام الميزان الذي توزن به أعمال الناس، وبالتالي يتحدّد مصيرهم إلى الجنّة أو النار. وهذا أمر يوصلنا إلى أنّ أيّ عمل يصدر من الإنسان يقاس على عمل المعصوم عليه السلام، كي يحدّد أنّ العمل صائب وصحيح، أو أنّه ليس كذلك؛ لأنّ العمل قد يشاب بباطل، قال أمير المؤمنين عليه السلام: «**فَلَوْ أَنَّ الْبَاطِلَ خَلَصَ مِنْ مِزَاجِ الْحَقِّ لَمْ يَخْفَ عَلَى الْمُرْتَادِينَ، وَلَوْ أَنَّ الْحَقَّ خَلَصَ مِنْ لُبْسِ الْبَاطِلِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَلْسُنُ الْمُعَانِدِينَ، وَلَكِنْ يُؤْخَذُ مِنْ هَذَا ضِغْثٌ وَمِنْ هَذَا ضِغْثٌ فَيُمْزَجَانِ، فَهُنَالِكَ يَسْتَوْلِي الشَّيْطَانُ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ، وَيَنْجُو الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ اللهِ الْحُسْنَىٰ**»(١).

إنّ الإنسان قد يبذل جهداً كبيراً كي يصل إلى الحقّ ويميّز الصواب من الخطأ، مع أنّ الأمر واضح بيّن هو: «**الْحَقُّ مِنْ بَعْدِي مَعَ عَلِيٍّ وَعَلِيٌّ مَعَ الْحَقِّ يَدُورُ الْحَقُّ مَعَهُ حَيْثُمَا دَارَ**»(٢)، ومتى وصل الإنسان إلى ذلك فقد وصل إلى الحقّ.

نعم، قد يصل الإنسان إلى الجواب بعد البحث والتنقيب والتفكير والتأمّل؛ لأنّ تمييز الصواب من الخطأ صعب حتّى بين الأشخاص الذين نتعايش وإيّاهم، كثير من الناس لا يدري من يُمَثِّل الباطل ومن يمثّل الحقّ، وتلك مشكلة كبيرة واجهت الأنبياء والرسل وتحمّلوا الأذى في سبيل إيصال الميزان الدقيق للناس كي يميّزوا بين الحقّ والباطل في العقيدة والفكر والسلوك وفي كلّ أنحاء حياتهم.

الإمام أمير المؤمنين عليه السلام في حرب صفّين عندما رفع جيش معاوية شعار ﴿**إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ**﴾(٣). قال بعض الناس في ذلك الوقت: إنّ أصحاب معاوية طيّبون

---

(١) بحار الأنوار: ٢: ٢٩٠.

(٢) بحار الأنوار: ٣١: ٣٧٦.

وفي رواية: «**الْحَقُّ مَعَ عَلِيٍّ وَعَلِيٌّ مَعَ الْحَقِّ لَا يَفْتَرِقَانِ حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**» بحار الأنوار: ٣١: ٣٢٤.

(٣) الأنعام ٦: ٥. يوسف ١٢: ٤٠، ٦٧.

ويريدون حكم القرآن ، أمّا مولانا أمير المؤمنين عليه السلام فلم تنطلِ عليه تلك المغالطات والأساليب الملتوية ، فأوضح لهم أنّه هو القرآن الناطق عليه السلام ، وأنّ شعارهم الذي رفعوه ما هو إلّا كلمة حقّ يراد بها باطل ، وهذه كلمة رائعة صدرت من عليّ عليه السلام الذي يمتلك الميزان الدقيق الفاصل بين الحقّ والباطل .

﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾

ذكرت الآية ثلاث دعائم تساند دعوة الأنبياء هي : البيّنات وإنزال الكتاب والميزان ، والهدف من ذكرها هو إيصال الناس إلى السير في الخطّ الإلـهيّ كي يقوموا بالقسط والعدل ؛ لأنّ العدل ليس بمحصور في الجانب الاقتصاديّ فقط ، وإنّما يُمثّل الاقتصاد جنبة من جوانب العدل ، وللعدل معنى واسع جدّاً ، يشمل الجانب العلميّ والثقافيّ والاجتماعيّ والسياسيّ والتربويّ والأخلاقيّ والسلوكيّ ، وغير ذلك من الأصعدة المتعدّدة التي يعايشها الإنسان في الاتّجاهات المختلفة .

العدل

هو غاية من الغايات الكبيرة لبعثة الأنبياء والرسل ، فهم عليهم السلام لهم حجج واضحة ومعاجز تدلّل على صدقهم وحقّانيّتهم بالإضافة إلى الشرائع التي أُرسلوا بها لتكون طريقاً لاحباً يوصل الناس إلى الله تعالى ، غير أنّ من أهمّ ما يتوقّف عليه وصول الإنسان إلى الله سيادة القانون بإقامة العدل ، ولولا العدل لما استطاع الإنسان أن يصل إلى كماله ؛ لأنّ الظلم يؤدّي به إلى الفساد المادّيّ والمعنويّ ، ولهذا جُعل الهدف من إرسال الرسل والأنبياء هو إيصال الناس إلى إقامة العدل من الناحية الفرديّة والاجتماعيّة ، أي ليكون الإنسان عادلاً مع نفسه وعادلاً مع أُسرته ومجتمعه ومفردات الكون الأُخرى ، ولا يتحقّق ذلك إلّا بقانون هو الكتاب ، فالكتاب هو الشرائع السماويّة التي أنزلت على الرسل والأنبياء ليسير الناس على ضوئها ، وكي يتّضح لنا أهمّيّة العدل في حياة الإنسان ورقيّه نورد بعضاً من الروايات الواردة :

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**الْعَدْلُ جُنَّةٌ وَاقِيَةٌ، وَجُنَّةٌ بَاقِيَةٌ**»[١].

وقال صلى الله عليه وآله: «**عَدْلُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبَادَةِ سِتِّينَ سَنَةً قِيَامِ لَيْلِهَا، وَصِيَامِ نَهَارِهَا، وَجَوْرُ سَاعَةٍ فِي حُكْمٍ أَشَدُّ وَأَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ مِنْ مَعَاصِي سِتِّينَ سَنَةً**»[٢].

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «**جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ الْعَدْلَ قَوَاماً لِلأَنَامِ**»[٣].

وقال عليه السلام أيضاً: «**إِنَّ الْعَدْلَ مِيزَانُ اللهِ سُبْحَانَهُ الَّذِي وَضَعَهُ فِي الْخَلْقِ، وَنَصَبَهُ لإِقَامَةِ الْحَقِّ، فَلَا تُخَالِفْهُ فِي مِيزَانِهِ، وَلَا تُعَارِضْهُ فِي سُلْطَانِهِ**»[٤].

﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾

قال السيّد الطباطبائيّ (يرحمه الله): «الظاهر أنّه كقوله تعالى: ﴿**وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ**﴾[٥]، وقد تقدّم في تفسير الآية أنّ تسمية الخلق في الأرض إنزالاً إنّما هو باعتبار أنّه تعالى يسمّي ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التي عنده، ومن الغيب إلى الشهادة، قال تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ**﴾[٦]»[٧]، أي أنّ قوله: ﴿**أَنزَلْنَا**﴾ يراد به أنزلنا من خزائننا التي لا تنفد، وقد يكون المراد به حقيقة الإنزال من السماء بمعنى أنّ هذا المعدن أُنزل إلى الأرض لمصلحة الإنسان والكون.

البأس الشديد هو ما يتحقّق بالقوّة، ولذا كانت الحروب وما زالت تعتمد الحديد

---

(١) عوالي اللئالي: ١: ٢٩٣.

(٢) جامع الأخبار: ١١٩.

(٣) غرر الحكم: ٩٩.

(٤) غرر الحكم: ٩٩.

(٥) الزمر ٣٩: ٦.

(٦) الحجر ١٥: ٢١.

(٧) تفسير الميزان: ١٩: ١٧٢.

في وسائلها المتعدّدة لفرض ما تريده بالقوّة ، أمّا المنافع للناس المترتّبة عليه فلا حدّ لها ولا حصر من بناء المساكن والسفر في البرّ والبحر والجوّ ، وغزو الفضاء ، فإنّ للحديد دخلاً في كلّ شؤون الإنسان المختلفة ومنافعه المتعدّدة ، ولولاه لما تمدّن الإنسان وتحضّر وتقدّم في المجالات المختلفة .

﴿وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾

أي ليتميّز من ينصر الله تعالى عن غيره ، وقد جاء هذا المعنى في قوله تعالى : **﴿مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾**(١) ، ليكون في عطاء الله لهم ما يفضّلهم على غيرهم برهان على استحقاقهم بتميّزهم ، ومن البيّن أنّ الله لا يحتاج إلى نصرة أحد ؛ إذْ له القدرة التامّة والهيمنة المطلقة ، ولكنّه يختبر خلقه تكليفاً لهم ليصل من يطيعه إلى مرتبة كماله ، ولهذا ختمت الآية بتبيان ذلك ، بأنّ الله هو القويّ العزيز لدفع إشكال الاحتياج عن ساحة قدسه جلّ وعزّ .

أمّا قوله : **﴿بِالْغَيْبِ ﴾** فهو بيان لإيمان المؤمن المجاهد بأمرين :

الأوّل : لذات الحقّ التي لا ترى وهي غيب مطلق .

والثاني : إيمانه بعالم الآخرة ، وما أعدّه الله للمؤمنين المجاهدين في سبيله ، فإنّ من ينصر الله لرسوخ الإيمان بالحقّ والآخرة في قلبه يقدم على الاستشهاد في سبيل الله تعالى .

تتمّة :

يظهر من الآية الحضّ والحثّ على الجهاد في سبيل الله تعالى ؛ وذلك لأنّ الشرائع السماويّة تواجه الطغاة ، ولا يريدون لها أن تطبق لتحدّ من سلطانهم ،

---

(١) آل عمران ٣ : ١٧٩ .

فاقتضى ذلك حثّ المؤمنين بالله لدفعهم الظالمين عن عباده ، ليتاح للعباد أن يسيروا في صراطه المستقيم ، وآيات الجهاد والأحاديث الواردة كلّها تؤكّد على إخراج العباد من عبوديّة غير الله إلى عبوديّة الله ، ليس بالمعنى الضيق الذي مصداقه الواضح عبادة الأصنام ، وإنّما بالمعنى الواسع الذي من خلاله تطبّق الأحكام الإلهيّة في مجالات الحياة المختلفة ليتاح للعباد أن يتفيّأوا رغد العيش بوفرة الاقتصاد وحلاوة الأمن بتطبيق القانون ، ليهنأوا بالحياة ، ولا يتحقّق ذلك إلّا بالدفاع عن القيم والمبادئ والمثل التي جاءت بها الشرائع السماويّة ، لهذا جاءت الآيات والروايات الكثيرة في فضل الجهاد لما له من أهمّيّة .

قال تعالى : ﴿**لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ**﴾(١) .

وقال تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾(٢) .

وقال تعالى : ﴿**قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾(٣) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : «**خَيْرُ النَّاسِ رَجُلٌ حَبَسَ نَفْسَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ يُجَاهِدُ أَعْدَاءَهُ ، يَلْتَمِسُ الْمَوْتَ أَوِ الْقَتْلَ فِي مَصَافِّهِ**»(٤) .

---

(١) النساء ٤ : ٩٥.

(٢) التوبة ٩ : ٧٣.

(٣) التوبة ٩ : ٢٤.

(٤) مستدرك الوسائل : ١١ : ١٧.

وقال ﷺ: «لَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانٌ فِي جَهَنَّمَ»(١).

وعنه ﷺ: «السُّيُوفُ مَفَاتِيحُ الْجَنَّةِ»(٢).

وقال الإمام عليّ عليه السلام: «إِنَّ الْجِهَادَ بَابٌ فَتَحَهُ اللهُ لِخَاصَّةِ أَوْلِيَائِهِ، وَسَوَّغَهُمْ كَرَامَةً مِنْهُ لَهُمْ، وَنِعْمَةٌ ذَخَرَهَا، وَالْجِهَادُ لِبَاسُ التَّقْوىٰ، وَدِرْعُ اللهِ الْحَصِينَةُ، وَحِصْنُهُ الْوَثِيقَةُ»(٣).

وروي عن الإمام الصادق عليه السلام: «جَاءَ رَجُلٌ إِلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي رَاغِبٌ فِي الْجِهَادِ نَشِيطٌ. قَالَ: فَجَاهِدْ فِي سَبِيلِ اللهِ فَإِنَّكَ إِنْ تُقْتَلْ كُنْتَ حَيّاً عِنْدَ اللهِ تُرْزَقْ، وَإِنْ مِتَّ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُكَ عَلَى اللهِ، وَإِنْ رَجَعْتَ خَرَجْتَ مِنَ الذُّنُوبِ كَمَا وُلِدْتَ»(٤).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾

من لطف الله تعالى على العباد إرسال الرسل وبعث الأنبياء، وهو لطف خاصّ يوصل المكلّف إلى الحقّ تعالى، وقد أوضحه القرآن الكريم في موارد متعدّدة، منها: هذا المورد الذي أبان فيه أنّ نوحاً وإبراهيم عليهما السلام قاما بدورين هامّين وعظيمين لكونهما من الرسل الأوائل الذين يريدون انتشال الإنسان من سيطرة الجانب المادّيّ والغرائزيّ إلى إتباع العقل والسير على النهج الإلٰهيّ، ثمّ يبيّن القرآن الكريم أنّ الناس تجاه دعوة الأنبياء على قسمين:

---

(١) و (٢) مستدرك الوسائل: ١١: ١٣.

(٣) تهذيب الأحكام: ٦: ١٢٣. نهج البلاغة: ٦٩ (صبحي الصالح).

(٤) أمالي الصدوق: ٤٦١ و ٤٦٢.

الأوّل: من انصاع متّبعاً لدعوتهم عليهم السلام وحصل على خيري الدنيا والآخرة.

والثاني: وهم القسم الأكثر خرج عن جادّة الصواب واتّبع الشهوات، وسار مائلاً عن الحقّ، فخسر الدنيا والآخرة، أو ربح شيئاً من حطام الدنيا وخسر الآخرة، وذلك هو الخسران المبين.

ويبيّن القرآن الكريم على أنّ الأنبياء جاءوا من سلالة هذَيْن النبيّين الكريمين، وأنّ الله تعالى امتنّ على الأنبياء والرسل بالكتاب الذي يوضّح مقاصد الشرائع السماويّة، ويفصح عن الهدي الإلهيّ في جميع الأمور، وأنّه كان ينبغي على الناس أن يشكروا ربّهم الذي امتنّ عليهم بهذه النعمة العظيمة لإيصالهم إلى سعادتهم، غير أنّهم تنكّبوا الطريق وابتعدوا عن الخير.

ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾

تستعرض الآيات المسار العامّ لخطّ الرسل والأنبياء للبشريّة جمعاء، وذلك بتبيان مسيرة الأنبياء في دعوتهم مع أقوامهم، وقد ذكرنا في الآية السابقة الدور الذي قام به نوح عليه السلام، وكذلك الدور الفاعل والمؤثّر والكبير الذي قام به إبراهيم الخليل للبشريّة.

أمّا هذه الآية المباركة فتستعرض دور عيسى عليه السلام والحواريّين والأتباع، وقوله تعالى: ﴿**ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ**﴾، أي بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام.

﴿قَفَّيْنَا﴾ وتعني تّبعنا ، ولعلّ التقفية إشارة أيضاً إلى النهاية باعتبار أنّ آخر البيت من الشعر هو القافية ، يقال : قفا فلانٌ فلاناً ، واقتفى أثره ، بمعنى اتّبعه . وقفّينا هنا فيها إشارة لطيفة بأنّ عيسى عليه السلام كان تابعاً وسائراً على الخطّ العامّ الذي سار فيه نوح وإبراهيم عليهما السلام .

إذن معنى الآية : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ أنّ هناك رسل وأنبياء بعد نوح وإبراهيم عليهما السلام ، لكنّ هناك نوع من التأثير الكبير في خطّ الرسالات الذي كان عن طريق عيسى عليه السلام .

كلّ رسالة من الرسالات تتميّز بطابع خاصّ ، فرسالة موسى عليه السلام تعالج الضعف والهوان والذلّة الموجودة في نفوس بني إسرائيل ، وتريد أن تُعلّمهم أن ينتزعوا حقوقهم ، وأن يكون لهم شيمة وكرامة ومواجهة لأعدائهم ، وأن يصنعوا المجد لأنفسهم ، وذلك يعني أنّ موسى عليه السلام كان يُعلّم أتباعه الوقوف بشدّة في وجوه المستكبرين والطغاة ، لأنّه ساد فيهم الخنوع والاستضعاف وعدم المقاومة للباطل ، فجاء موسى عليه السلام ليعالج هذه الجَنبة ويصنع من مجتمع بني إسرائيل مجتمعاً قادراً على الوقوف على قدميه ، بل قادراً أيضاً على قيادة المجتمعات الأُخرى ، ولذلك نجد في نهاية رسالة موسى عليه السلام أن مجتمع بني إسرائيل أصبح له سيادة ، وقد جاءهم من قبل أنبياء لهم قوّة ومكانة كداوود وسليمان عليهما السلام .

إذن كان هناك دورٌ مؤثّرٌ وفاعلٌ لموسى عليه السلام ، لكن مجتمع بني إسرائيل غلب عليه طابع التوغّل في حبّ الدنيا ، وبذلك ابتعد عن الهدف الذي رسمه له موسى عليه السلام في أن يعيش سيادة ذاتيّة وأن تتحقّق له الكرامة المنشودة في التخلّص من عبوديّة الطُّغاة والفراعنة ، لكنّهم ضلّوا الطريق واتّبعوا أهواءهم ، وكانوا بحاجة إلى رسول يعلّمهم الرأفة والرحمة والحبّ والمودّة ، ويُزيل الدرن الذي سببه إشراب حبّ الدنيا في قلوبهم ، هنا جاء عيسى عليه السلام ، كي يبني نفوسهم من الداخل ويصلح ما أفسده تعلّقهم بحبّ الدنيا ، وإن كان كلّ الأنبياء تصبّ رسالتهم في صنع الإنسان

من الداخل ، إلّا أنّ هذه الخصيصة كانت غالبة في رسالة عيسى عليه السلام ؛ لأنّ المجتمع غلب عليه التعلّق بحبّ الدنيا .

وتشير الآية إلى تتابع للرسل : ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ﴾ ، أي أنّ الله سبحانه وتعالى أعطى التوراة لموسى عليه السلام وأعطى الصحف لإبراهيم عليه السلام قبل ذلك ، وأعطى قانوناً ودستوراً هو الإنجيل لعيسى عليه السلام ، الذي تَرَكّز فيه الطابع الأخلاقيّ بشكل قويّ ومُلْفِتْ للنظر .

الفرق بين الرأفة والرحمة

﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً﴾

قيل : إنّهما بمعنى واحد ، وقيل : إنّ معنى الرأفة يختلف عن الرحمة ؛ إذْ معنى الرأفة هو الشفقة لدفع الضرر الحاصل للإنسان ، فإذا دفع الإنسان الضرر الحاصل له أو لغيره فذلك يعني أنّ لديه رأفة بنفسه وبغيره ، أمّا الرّحمة فهي شفقة في جلب النفع لنفسه أو لغيره ، فمن أراد جلب نفع لنفسه أو لغيره فهو رحيم .

غير أنّ بعض العلماء يحصر الفرق في حالة اجتماعهما معاً ، أي إذا وجدا في كلام واحد سيكون للرأفة معنى وللرحمة معنى آخر ، أمّا إذا افترقا ولم يكونا في كلام واحد فلهما نفس المعنى ، فإذا وردتا مجتمعتين فكلمة رؤوف وحدها تعطي دفع الضرر ، وكلمة رحيم وحدها تُعطي جلب النفع ، ولعلّ هذا المعنى هو الصحيح . وذلك مثّل الفقير والمسكين في بعض الأبواب الفقهيّة كالزكاة ، فقد قال الفقهاء : إنّ الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا في المعنى ، وإذا افترقا في الكلام أصبح معناهما واحد .

ثمّ تنتقل الآية إلى مسألة ذات أهمّيّة في الدين المسيحيّ وهي الرهبانيّة :

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾

فما هي الرهبانيّة ؟

التَّرَهُّب هو ترك الملذّات في الدنيا والاشتغال المحض بِعالَمِ القيم والمعنى وعدم التوجّه للذّات الحاصلة في عالم الدنيا، أي توجيه الفكر بشكل أساسيّ للقيم فقط، وعدم التوجّه للاستفادة من اللذّات المادّيّة حتّى وإن كانت موجودة، فالمظهر العامّ للرهبانيّة هو الزهد. والآية المباركة تستعرض الوضع الذي وصل إليه أتباع عيسى ابن مريم عليه السلام، بعد تغلّب الجبابرة والطغاة عليهم، حيث أصبحوا أقلّيّة، وعند ذلك ابتدعوا طريقة في العمل، تقوم على أساس الانعزال عن المجتمع والحفاظ على أرواحهم، وبالتالي الانتظار والتريّث إلى أن تَحين الفرصة المناسبة كي يستطيعوا من خلالها أن يبلغوا رسالات الله سبحانه وتعالى بحقّ. وهذه خطّة ذكيّة يلجأ إليها النشطاء والروّاد في كلّ حركة عندما يتعرّضون لمواجهات، حيث يفكّرون في الحفاظ على المبادئ التي يؤمنون بها، وذلك من خلال ابتكار طرق للعمل الذي يحافظ على وجودهم لئلّا ينهار الخطّ والنهج الذي يتبنّونه ويزول بشكل كلّيّ، من هنا يكون للتخطيط المدروس دور كبير في مسار الطلائعيّين والروّاد في كلّ دعوة من الدعوات، وهذا الحدث التاريخيّ الذي عاشه أتباع عيسى عليه السلام أكّدت عليه الروايات أيضاً ولكن بتفصيل أكثر.

ففي رواية وردت عن النبيّ صلى الله عليه وآله تتحدّث عن الوضع الذي عاشه أتباع عيسى عليه السلام أوضح فيها الأحداث المتعددة التي مرّ بها مجتمع بني إسرائيل، والضغوط الكبيرة التي تعرّضوا لها حتّى كادت أن تقضي على المسيحيّة والمسيحيّين؛ إذ كان بعض ملوك الرومان هم الذين يقودون هذه المواجهة ضد المسيحيّة. ويحدّثنا التاريخ عن القساوة المتناهية جدّاً عند هؤلاء إلى درجة أنّ الملك الرومانيّ وبعض أتباعه يجلسون لفترات طويلة للتلذّذ في مشاهدة المصارعة بين الناس الذين ليسوا رومانيّين على حلبة مُعَدّة لذلك، لتكون نتيجة هذه المصارعات ـ التي يدفعون الناس إليها ـ الكثير من القتلى، وأحياناً يصل إلى عشرة آلاف قتيل، فكانوا يلتذّون بسحق الناس ورؤية دمائهم تسيل.

والرومان كانت لهم سيطرة على البشريّة في ذلك الوقت ؛ لأنّ لديهم حضارة وقوّة ، ولديهم قوانين صارمة ، بل إنّ الكثير من القوانين والأنظمة في الدول الحديثة أخذت من القانون الرومانيّ القديم . وكان لملوك الرومان عداءً شديداً تجاه المسيحيّة والمسيحيّين وسعوا للقضاء عليهم . بينما المسيحيّون كان لديهم تخطيط دقيق من أجل المحافظة على وجودهم ، وذلك باللجوء إلى الترهّب ، فأخذ كلّ شخص منهم مغارة من المغارات في الجبال وبدأ بالتعبّد لله ، وهمّه الوحيد هو أن يحافظ على وجوده . وإذا التقى بشخص في الصحراء دعاه إلى الترهّب بشكل فرديّ ، لخوفه من بطش السلطات الرومانيّة آنذاك ، وكانت هذه الخطّة رائعة وجميلة وهي التي أوجبت بقاء المسيحيّة .

مع العلم أنّ بعض المسيحيّين استغل وجود بعض الملوك الذين يتّصفون بالهدوء كي يتحرّك وينشط في الدعوة إلى المسيحيّة ، بل نجد أنّ بعضهم أخذ يتنقّل في بلاط الملوك كأحد أفراد الحاشية ويدعوهم إلى المسيحيّة ، ومن خلال ذلك آمنت كلّ أوروبا بالمسيحيّة ، فكان التخطيط الذي وضعوه تخطيطاً مدروساً ورائعاً . لكنّ القرآن يقول إنّ هذه البدعة التي ابتدعوها بالرغم من أنّها أفادتهم في ناحية ، لكنّهم لم يعرفوا الهدف من الرهبانيّة ، وتصوّروا أنّ حقيقة الدين المسيحيّ هو هذا الخطّ الإلهيّ والنهج الذي سلكوه . ولذلك نجد في عصر الرسول ﷺ عندما أراد عثمان بن مظعون وبعض الصحابة أن يترهّبوا ويتركوا الملذّات الدنيويّة وقف النبيّ ﷺ من هذا الأمر موقفاً حاسماً وشديداً ، وقال : « ما بعثت بالرهبانيّة وأنّ رهبانيّة اُمّتي الحجّ والصوم والجهاد في سبيل الله ﷻ »[١] ، وقال : « والله لغزوة يغزوها كذا خير من عبادة ستّين سنة »[٢] ، يريد ﷺ أن يوضّح الخطّ العامّ للإنسان

(١) راجع الكافي : ٥ : ٤٩٤ .

(٢) كنز العمّال : ٤ : ٣٠٤ ، الرقم ١٠٦١٨ .

الذي يتمثّل في الممارسة الطبيعيّة مع كلّ الناس ومحاورتهم ومناظرتهم والتحدّث معهم والاستفادة من النعم التي أنعم الله ﷻ بها عليه في هذه الدنيا، كي يردعهم عن تصوّر أنّ الدين أو الخطّ الإلـهيّ هو في ترك كلّ لذّات الدنيا.

إذن حقّق المسيحيّون أهدافاً كبيرة بهذه البدعة الحسنة حيث استطاعوا أن يحافظوا على الدين المسيحيّ وأتباعه، بل أنّهم بعد ثلاثة قرون (ثلاثمائة سنة) استطاعوا بهذه البدعة أن يجعلوا ألدّ أعداء المسيحيّة يعتنقونها، وذلك يدلّ على قدرة فائقة على التخطيط والتفكير، حيث احتووا أعدائهم وحوّلوهم إلى أصدقاء، بل لم يقفوا عند ذلك فحسب، وإنّما استطاعوا أن يجعلوا الأعداء يؤمنون بدعوتهم من خلال صمودهم وثباتهم وتخطيطهم المدروس، ونفسهم الطويل في العمل، والمرونة في التعامل الذي أبدوه حيث كانوا لا ينظرون إلى النتائج في وقتهم الآنيّ، بل انصبّت جهودهم الحثيثة لقطف ثمارها للأجيال القادمة.

وقد بيّن الله ﷻ نجاحهم في قوله: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾.

ونلاحظ أنّ الآية تُقرّر أنّ الترهّب باعتباره حالة تمثّل الانعزال عن الواقع الاجتماعيّ وترك التلذّذ بنعم الدنيا، هو أمر مبتدع، وليس مكتوباً عليهم من قِبل الله عزّ وجلّ: ﴿**مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾.

كيف تكون بدعة والله تعالى يقول عنها: ﴿**مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ**﴾؟

كي تتّضح هذه النقطة لا بدّ من الإشارة إلى أنّ هناك قانوناً عامّاً في الديانات السماويّة هو الزهد في الدنيا الذي مَثَّلَتْهُ آية من هذه السورة، هي قوله تعالى: ﴿**لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾، وهذا القانون العامّ لم يُلزم الله ﷻ به أحداً، لكنّ الإنسان إذا ألزم نفسه بتطبيق هذا القانون بنحو شديد بأخذ العهد والميثاق على نفسه فحينئذٍ يُلزمه

الله ﷻ بما ألزم به نفسه ، فيكون الله ﷻ كتبه عليه باعتبار إلزام الإنسان لنفسه به ، وهذا شبيه بالإنسان الذي ينذر أن يصوم في السفر والحضر ، فإنّ الله ﷻ لم يكتب عليه الصوم في السفر وهو إلزام لنفسه به ؛ لأنّه ليس من الدين ، لكن المكلّف إذا ألزم نفسه بنذر الصوم في السفر ، عندئذٍ يجب عليه ذلك ، ويكون الله ﷻ كتب عليه الصوم في السفر لكونه ألزم نفسه به .

والآية المباركة عندما قالت : ﴿**مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ**﴾ ، أي أنّ الرهبانيّة مُسْتَلَّة من واقع الزهد الذي حثّت عليه الأديان السماويّة ، لكنّ القلّة من النصارى أرادوا الحفاظ على أنفسهم بتطبيق الشدّة في الزهد ، والله ﷻ ألزمهم بما ألزموا به أنفسهم ، كي يوصلهم إلى رضوانه ، ووصول القلّة إلى رضوان الله باعتبارهم يحملون روح رسالة عيسى عليه السلام ويستطيعون أن يبلّغوا هذه الرسالة إلى الأجيال القادمة ، وذلك عندما يتغيّر الظرف السياسيّ الذي يعايشونه ، والذي كان يُمثّل كَبتاً وإرهاباً ومصادرة لحرّيّاتهم ولأرواحهم ، فكانوا يتحيّنون الفرصة التي من خلالها يستطيعون أن يثوروا ويغيّروا ، وبالفعل مكّن الله ﷻ ثلّة منهم حيث استطاعت أن تبلّغ رسالات عيسى عليه السلام إلى الحضارة الرومانيّة التي كانت تحاربهم .

وعليه كان الهدف من الرهبانيّة هو الوصول إلى رضوان الله عزّ وجلّ ﴿**إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ**﴾ ، ومقام الرضوان هو مقام عظيم ، قال تعالى : ﴿**وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾(١) .

ولا بدّ لنا هنا من الوقوف عند نقطة هامّة وردت في الآية وهي ﴿**ابْتَدَعُوهَا**﴾ ، فما هي البدعة ؟

كثيراً ما نسمع عن البدعة ، وأنّ هناك بدعة حسنة وبدعة سيّئة . وقد وردت البدعة في حديث مرويّ عن النبيّ ﷺ ، قال فيه : « **ألا وإيّاكم والمحدثات والبدع ،**

---

(١) التوبة ٩ : ٧٢ .

فإنّ شرّ الأُمور مُحْدَثَاتِهَا، وكلّ محدثة ضلالة»[١]. وبغض النظر عن سند الحديث، فمضمونه صحيح. لكن متى يكون الأمر المُحْدَث بدعة وضلالة؟

عند وصفنا لشيء بأنّه حسن ولآخر بأنّه غير حسن، فذلك ليس بدعة، لكن إذا جئنا بشيء ليس من الدين، وقلنا إنّه من الدّين، ولا بدّ من الالتزام به وأنّه تشريع من الله ﷻ أمرنا باتّباعه، فذلك بدعة وضلالة وصاحبها في النار؛ لأنّه ابتدع طريقة لم يشرّعها الله عزّ وجلّ، والطريقة تارة تكون حسنة وأُخرى سيّئة تؤدّي إلى الضلال.

مثلاً: لو التزم شخص بعد كلّ صلاة فريضة أن يصلّي على محمّد وآله إحدى عشر مرّة، كما نعرف أنّ الصلاة على محمّد وآله أمر مستحبّ ومشروع بعنوان عامّ، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾[٢]، التشريع العامّ موجود، لكن لا يوجد تشريع خاصّ يحضّ الإنسان بعد الصلاة مباشرة أن يصلّي على النبيّ محمّد وآله إحدى عشر مرّة، ولو قلنا: إنّ هناك تشريعاً خاصّاً من الله ﷻ يأمرنا أن نقوم بهذا العمل بعد الصلاة إحدى عشر مرّة، فقد أدخلنا في الدين ما ليس فيه، وهذا بدعة وضلالة، ولو كان من المستحبّات بالعنوان العامّ الذي حثّنا فيه الله تعالى بالصلاة على محمّد وآله والتزمنا بهذا الاستحباب العامّ، فلا يكون محرّماً، ويمكن أن يصبح بدعة حسنة، لأنّه شيء مرغوب فيه، ومطلوب من الإنسان أن يكثر من الصلاة على محمّد وآله، لكن إذا حدّدناها بعدد معيّن بعنوان أنّ الله ﷻ شرّعه، فإنّنا قد نكون أدخلنا شيئاً ليس من الدين وجعلناه من الدين، وهذا بدعة.

والقرآن يؤكّد هذا الأمر، قال تعالى: ﴿**قُلْ آللهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُونَ**﴾[٣]،

---

(١) المعجم الكبير: ٩: ٩٦.

(٢) الأحزاب ٣٣: ٥٦.

(٣) يونس ١٠: ٥٩.

أي أنّ كلّ أمر تشريعيّ، لا بدّ أن يكون فيه إذن من قِبل الله تعالى حتّى يجوز لنا أن نسنده إلى الله سبحانه وتعالى.

فإذا قلنا: إنّ هذا المستحبّ جاء في حديث أو رواية، مع أنّه لا نصّ روائيّ به، ثمّ أسندناه إلى الله عزّ وجلّ، فذلك في الحقيقة افتراء على الله سبحانه وتعالى وكذب عليه. وكذلك لو صلّينا جماعة وقلنا: كلّ شخص يُنهي صلاته فإنّ عليه أن يصافح الآخر ويقول له: غفر الله لك تسع مرّات، ونسبنا هذا الأمر إلى الله سبحانه وتعالى بأنّه شرّعه، فهذا بدعة، بينما لو قلنا: إنّه من الأُمور الحسنة والمحبّبة أن يصافح المصلّي صاحبه بعد الصلاة، ويقول له: غفر الله لك تسع مرّات من أجل تقوية أواصر المحبّة والإخاء، ولم ننسب تشريعه إلى الله تعالى، ففي هذه الحالة يكون العمل من الأُمور الجيّدة والحسنة التي لها آثار اجتماعيّة وأخلاقيّة كثيرة، وليس له ارتباط بالبدعة.

من هنا نستطيع أن نفرّق بين البدعة الحسنة والبدعة السيّئة، فإذا ابتكر الإنسان شيئاً فيه فائدة للناس وطلب منهم أن يمارسوه لكونه حسناً، ولم ينسبه إلى الله عزّ وجلّ، فلا إشكال شرعيّ في ذلك.

من البدع الحسنة التي تحمل أثراً طيّباً، ما نجده هذه الأيّام من تخصيص آخر جمعة من كلّ شهر في المساجد لجمع الصدقات للفقراء، وحثّ الناس على التصدّق في تلك الجمعة، لكن لا نقول إنّ الله تعالى فرض علينا الصدقة بهذه الطريقة الخاصّة والمحدّدة حتّى لا يكون ذلك بدعة، فحقّ التشريع يرتبط بالله سبحانه وتعالى ربّ العالمين ولا يستطيع أحد أن يُبدّل أو يغيّر كيفما شاء.

إذن وصف شيء بأنّه بدعة وضلالة يعني أنّنا نسبناه إلى الدين وهو ليس منه، وجعلناه جزءاً من الدين وذلك حرام؛ لأنّه افتراء على الله سبحانه وتعالى يوجب دخول صاحبه (المفتري) في جهنّم، بل أكثر من ذلك، قال النبيّ صلّى الله عليه وآله: «**مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّداً**

فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»[١].

ونقرأ في كتاب الصوم من الرسالة العمليّة لمراجعنا العظام أنّ من المفطرات في شهر رمضان الكذب على الله تعالى، والكذب على الرسول والأئمّة عليهم السلام، فهذا النوع من الكذب بالإضافة إلى حرمته يترتّب عليه بطلان الصوم إذا وقع في نهار شهر رمضان أو في غيره من أقسام الصوم الواجب أو المستحبّ.

عندما نرجع إلى الآية التي تحدّثت عن البدعة في قوله تعالى: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ**﴾ نجد أنّ الآية تشير إلى البدعة السيّئة التي تعني: نسبة شيء ليس من الدين إلى الدين، أي نسبة شيء إلى الله، أو إلى الرسول، أو إلى الأئمّة، واعتباره من الدين. أمّا لو التزمنا بشيء من دون أن ننسبه إلى الله ولا إلى الرسول، ولا إلى الأئمّة، فهذا ليس من البدعة.

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾

أي أنّهم أو أغلبهم لم يعرفوا كيف يستفيدون من هذه الرهبانيّة الاستفادة الصحيحة، لكنّ الذين استفادوا من الرهبانيّة وأعطوها حقّها من الرعاية هم الذين آمنوا بالنبيّ محمّد صلى الله عليه وآله:

﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ﴾

لأنّ عيسى عليه السلام كان يبشّر بمحمّد صلى الله عليه وآله، قال تعالى: ﴿**وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾[٢]، وكان هؤلاء أيضاً في أشدّ الظروف الحالكة ينتظرون مجيء المخلّص والمنقذ وهو الرسول صلى الله عليه وآله، ولمّا جاءهم بَقِيَ منهم مجموعة كبيرة في نفس ذاك الاتّجاه الرهبانيّ وترك المسار العام لخطّ الرسالات، ولذلك

(١) عيون أخبار الرضا: ٢: ١٩٧ و ١٩٨.

(٢) الصفّ ٦١: ٦.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾، أي ليس الهدف من الرهبانيّة أن يبقى الإنسان محصوراً في زاوية معيّنة لا يتحرّك إلّا منها، ليبقى مكتوف الأيدي حيث لا يتفاعل مع الواقع الذي يعيشه، إنّ الذين طبّقوا قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ هم الذين آمنوا بمحمّد صلى الله عليه وآله: ﴿فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾، وهذا أصحّ التفاسير.

﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

معنى الفسق: هو الخروج عن الخطّ المستقيم الذي رسمه الله سبحانه وتعالى للرسالات السماويّة، ونحن نعرف أنّ الكثير من المسيحيّين وإلى يومنا هذا لم يؤمنوا بالرسول صلى الله عليه وآله، بل اعتبر القساوسة والرهبان ما جاء به النبيّ صلى الله عليه وآله من التعاليم والأحكام أخذ بعضاً منه من المسيحيّة وبعضه الآخر من اليهوديّة، وأنشأ منهما ديناً جديداً، وأنّ الله سبحانه وتعالى لم يوحِ إليه بشيء.

إذن بقي هؤلاء في الأَدْيِرَة والكنائس دون أن يتفاعلوا مع الواقع، أي فسقوا عن الخطّ السماويّ والإلهيّ وهو خطّ الرسالات الذي جاء به الأنبياء والرسل عن الله تعالى.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٨)

نزلت الآية المباركة في حقّ المسلمين الذين آمنوا بالرسول صلى الله عليه وآله وآمنوا بالرسالات السماويّة السابقة، وأكّد القرآن أنّ لهم أجراً مضاعفاً، وهم ليسوا بأقلّ من المؤمنين من أهل الكتاب الذين أثنى عليهم الله سبحانه وتعالى في أنهم يأخذون أجرهم مرّتين، قال تعالى فيهم: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ * وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ * أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم

﴿مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾(١) ، تبيّن الآية أنّ لأهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول ﷺ أجرين ، والسبب في نزولها هو أنّ الرسول لمّا بعث جعفر بن أبي طالب عليه السلام مع سبعين راكباً إلى الحبشة كي يدعو النجاشيّ إلى الإسلام ، استجاب وآمن ، ولمّا أراد جعفر عليه السلام الانصراف والعودة إلى مكّة ، قال أُناس من الذين دخلوا الإسلام حديثاً من أهل الحبشة للنجاشيّ : ائذن لنا فنأتي هذا النبيّ فنُسلّم به ، فأذن لهم النجاشيّ وسافروا مع جعفر ، ولمّا رأوا الفقر والحاجة التي يعيشها المسلمون استأذنوا رسول الله ﷺ وقالوا : يا نبيّ الله ، إنّ لنا أموالاً ونحن نرى ما بالمسلمين من الخصاصة ، فإن أذنت لنا انصرفنا فجئنا بأموالنا فواسينا المسلمين بها ، فأذن ﷺ لهم ، فانصرفوا وأتوا بأموالهم وأعطوها للمسلمين ، فأنزل الله فيهم الآيات السابقة : **﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾** إلى قوله تعالى : **﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾**(٢) ، والنفقة هي ما دفعوه للمسلمين مواساة لهم ، ولمّا سمع بعض أهل الكتاب من الذين لم يؤمنوا بقوله تعالى : **﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾**(٣) افتخروا على المسلمين وقالوا : يا معشر المسلمين ، أمّا من آمن منّا بكتابنا وكتابكم فله أجران ، ومن آمن منّا بكتابنا فله أجر كأُجوركم فما فضلكم علينا ؟

هذا الإعلام المضلّل أثّر على بعض المسلمين ، فذهبوا إلى النبيّ ﷺ وقالوا : يا رسول الله ، كيف نزل فيهم قرآن يتلى ونحن جاهدنا بين يديك ، وآمنّا بالرسل الذين أخبرت عنهم ، وآمنّا بك ؟ فأبان الله تعالى أجرهم وفنّد الإشاعات التي أثارها أهل الكتاب من خلال الآية التي أنزلها الله تعالى في قوله : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**

---

(١) القصص ٢٨ : ٥٢ ـ ٥٤ .

(٢) الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل : ١٨ : ٩٣ .

(٣) القصص ٢٨ : ٥٤ .

اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾، فجعل الله تعالى لهم أجرين وزادهم أيضاً على ذلك النور والمغفرة. هذا أحد أسباب نزول الآية.

وقيل: إنّ الآية نزلت في أهل الكتاب، وذلك يعني أنّها تابعة للآيات السابقة التي تتحدّث عن الرسالات السماويّة السابقة كرسالتي نوح وإبراهيم عليهما السلام، ثمّ اتّباع تلك الرسالتين برسالة عيسى عليه السلام: ﴿**ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ** ﴾، فلا يوجد مانع من أن يكون للآية أكثر من سبب نزول، فهي تُطيّب وتسكّن خواطر المسلمين وأيضاً هي دعوة لإيمان أهل الكتاب بالرسول صلى الله عليه وآله وبالتالي يتحقّق كلا الغرضين.

إذن الآية المباركة التي نحن بصدد الحديث عنها بدأت بهذا المقطع: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾، وهي تخاطب الذين آمنوا بالرسالات السابقة وهم اليهود والنصارى، وتحثّهم على تقوى الله تعالى والإيمان بالرسول صلى الله عليه وآله: ﴿**اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ** ﴾، فما هي التقوى؟

التقوى مأخوذة من الوقاية وهي عدم التعرّض للسخط الإلهيّ بارتكاب ما نهى الله عزّ وجلّ عنه؛ إذِ المكلّف الذي يأتي بالواجبات ويترك المحرّمات، قد جعل بينه وبين سخط الله سبحانه وتعالى وقاية، وهي التي أخذت منها التقوى ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ** ﴾.

ثمّ تقول الآية: ﴿**وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ** ﴾ الآية هنا لا تخاطب أهل الكتاب، بل تخاطب المسلمين، والسؤال هنا كيف يطلب الله تعالى من الذين آمنوا وفُرغ من إيمانهم أن يؤمنوا بالرسول فقد يتوهّم البعض أنّه تحصيل لأمرٍ حاصل؟

وكي نجيب على السؤال لا بدّ من التأكيد على أنّ قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ هو خطاب من الله تعالى إلى الذين آمنوا بالرسالة بشكل ظاهريّ ونظريّ

يحضّهم على الإيمان بالرسول ﷺ إيماناً تطبيقيّاً وعملياً لأنّ الإيمان له مراتب، تارة يؤمن الإنسان بالرسول ﷺ على المستوى النظريّ فقط، وأُخرى يكون إيمانه على مستوى أعلى وأرفع، فيصبح مُجَسَّداً في سَيْرِه السلوك العملي للرسول ﷺ وهو إيمان يسير على الأرض، وتدعو الآية إلى الارتقاء في مراتب الإيمان ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**﴾.

وهنا لا بدّ من إلفات النظر إلى أنّ هناك فرقاً بين الإيمان والإسلام؛ لأنّ الإسلام هو مجرّد التشهّد بالشهادتين، بينما الإيمان هو مرتبة أعلى ترتبط بالاعتقاد بالله تعالى وبمجموعة من الأُمور العقديّة. وقد أشرنا سابقاً في بعض آي هذه السورة أنّ الإيمان بالرسالة على قسمين:

الأوّل: الإيمان النظريّ، فيؤمن بالشيء على المستوى العقديّ لكنّه لا يطبّق ما يؤمن به، أي يشهد للرسول ﷺ بالرسالة نظريّاً فقط.

الثاني: الإيمان التطبيقيّ وهو ما يدعو الله تعالى إليه، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**﴾، وهو إيمان تتجسّد فيه أقوال الرسول ﷺ وأفعاله.

معنى الكفل

﴿**يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ**﴾

معنى الكِفْل هو القِسمة الوافية للإنسان بحظّه، فإذا قسّمت الشيء وكانت هذه القسمة تفي باحتياج الإنسان فعند ذلك تسمّى في اللغة العربيّة كِفْل، ولذا نجد أنّنا نقول: إنّ هذا كفيل لهذا، ومعنى الكفيل، أي أنّه يفي بنفس الالتزام المتعلّق بهذا الشخص.

لكن السؤال هنا ما هو المراد من الكفلين في قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ**﴾؟

كفلين من الرحمة له معنيان:

الأوّل: إنّ الله ﷻ يؤتيكم حظّكم وما تحتاجون إليه في عالم الدنيا والشهادة، وكذلك يؤتكم الله ﷻ حظّكم وما تحتاجون إليه في عالم الآخرة.

الثاني: إن الله ﷻ يعطيك الخير، فهذا كفل من الرحمة، ويدفع عنك الشرّ والبلاء وهو أيضاً كفل من الرحمة.

النور في القرآن الكريم

ثمّ تسترسل الآية في ذكر أجر المؤمنين ﴿**وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً**﴾، ما هو المراد من النور؟

ورد النور في القرآن الكريم بمعان متعدّدة:

الأوّل: هو القرآن.

قال تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾(١).

الثاني: هو العمل.

قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾، فالنور هنا هو العمل الذي يضيء لصاحبه يوم القيامة.

الثالث: هو البصيرة.

أي يجعل لكم بصيرة تستطيعون من خلالها أن تفرّقوا بين الحقّ والباطل، وبين الضلالة والهدى.

بعد ذلك بيّنت الآية نوعاً آخر من أجر المؤمنين:

---

(١) الأعراف ٧: ١٥٧.

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

أي إذا آمنتم بالله عزّ وجلّ فإنّه سوف يغفر لكم ؛ لأنّ الله **﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾** ، يغفر خطايا عباده ويرحمهم ، قال العلماء : إنّ الله سبحانه وتعالى هو مصدر الفيض المطلق ، يعطي سبحانه وتعالى دائماً .

المعاني الباطنيّة للآية

هناك معانٍ خاصّة ودقيقة لهذه الآية الكريمة ، فقوله تعالى : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾** ، نداء فيه تشريف ؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى ركّز خطابه على من آمن به **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ﴾** الخطاب للمؤمنين ، والمطلوب منهم تقوى الله **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ﴾** أي لابدّ أن تتّقوا الله عزّ وجلّ ، وللإمام أمير المؤمنين عليه السلام كلمات كثيرة ، من روائع كلماته ـ وكلّ كلماته رائعة ـ قوله عليه السلام : « **إِنَّ تَقْوَى اللهِ مِفْتَاحُ سَدَادٍ ، وَذَخِيرَةُ مَعَادٍ ، وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ** »(١) .

فإذا أراد الإنسان أن تفتح له أبواب الخير لتوصله إلى المقاصد الحسنة والطيّبة يلزمه التمسّك بالتقوى ، لكون التقوى مفتاح سداد ، وذلك لا يعني أنّه لا يخطئ ؛ لأنّ السداد بمعنى الوصول إلى المآرب ، وذخيرة معاد ، أي أنّ التقوى ذخيرة في عالم القيامة ، « **وَعِتْقٌ مِنْ كُلِّ مَلَكَةٍ ، وَنَجَاةٌ مِنْ كُلِّ هَلَكَةٍ** » ، الإنسان يمكن أن يُمْلَك للغير فيكون عبداً لغيره ، ويمكن أن يُملك الإنسان لغير الإنسان إذا أصبح عبداً رِقّاً لذلك ، كالمال أو الهوى ، قال تعالى : **﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلٰهَهُ هَوَاهُ ﴾**(٢) ، والإمام عليه السلام يوضّح أنّ التقوى عتق من كلّ ملكة ، بمعنى أنّها تعتق الإنسان من ملك الغير ، ومِن ملك الأهواء والمطامع الشخصيّة ، بل من مِلك جميع الأشياء ليبقى

---

(١) بحار الأنوار : ٧٠ : ٨٣ .

(٢) الفرقان ٢٥ : ٤٣ .

مِلكاً لله تعالى: ﴿**إِنَّا لِلهِ وإِنَّا إِلَيهِ رَاجِعُونَ**﴾[١]، فمن يتّقي الله ﷻ يصبح عبداً له فقط، وليس عبداً لهواه أو ملكاً لغيره، «**مذ كم تعبّدتم الناس وقد ولدتهم أُمّهاتهم أحراراً**»[٢]، وحقيقة الحرّيّة هي العبوديّة لله ﷻ والخروج عن عبوديّة أيِّ شيء سواه، وذلك معنى كلمة التوحيد (لا إله إلّا الله) أي أنّ الألوهيّة لله تعالى، فلا يطيع العبد أيّ أحد غير الله عزّ وجلّ.

قوله تعالى: ﴿**وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ**﴾ الإيمان برسالة النبيّ ﷺ من الأسس العقديّة التي تشكّل الدستور الذي يسير على ضوئه الإنسان؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يستقلّ بالاعتماد على عقله؛ لأنّ العقل يحتاج إلى رافد، لذا عندما أرسل عيسى عليه السلام بعض الحواريّين كي يدعو الناس وينصحهم ويوجّههم، ورأى بعض فلاسفة اليونان رسول عيسى عليه السلام يتحدّث لليونانيّين قال: إنّ هذا الكلام لعامّة الناس، أمّا أنا فلا أحتاج إليه؛ إذ لديَّ عقليّة كبرى، غير أنّ الإنسان مهما بلغت قدراته العقليّة فهو بحاجة إلى تسديد وتوجيه من اللطف الخاصّ وهو الرسالة؛ لأنّ العقل غير قادر على الوصول وإدراك العوالم الغيبيّة الدقيقة، كما أنّه غير قادر على فهم الربط بين عالمي الغيب والشهادة، إذن الإيمان بالرسالة يعطينا دستوراً وقانوناً نسير عليه، ويشكّل لنا همزة وصل في الربط بين عالمي الغيب والشهادة، بمعنى عدم استقلال عقولنا في وصولها إلى شاطئ النجاة، وأنّنا دائماً بحاجة ماسّة إلى رسالات الرسل والأنبياء.

إنّ السير في خطّ النبوة العامّ والخاصّ هو الذي ينجي الإنسان ويضمن سلامة حركته في الطريق الصحيح، خطّ النبوّة العامّ هو الخطّ الذي جاء به جميع الأنبياء كإبراهيم ونوح وعيسى وموسى وغيرهم عليهم السلام، وهو موجود في رسالة نبيّنا

---

(١) البقرة ٢: ١٥٦.

(٢) كنز العمّال: ١٢: ٦٦١.

محمّد بنحو أكبر وأعظم وأكمل وأشرف، وقد ألمح النبيّ ﷺ إلى ذلك لمّا رأى بعض الصحابة ينظر في التوراة قال له: «**والله لو كان موسى بين أظهركم ما حلّ له إلّا أن يتّبعني**»(١)؛ لأنّ منهجه ﷺ أكمل المناهج، وناسخ لكلّ منهج سواه.

قوله تعالى: ﴿**يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ**﴾.

تقدّم أنّ المراد بالكفلين من الرحمة أنّ الله تعالى يعطيكم نورين: نوراً تستضيئون به في الدنيا، ونوراً تستضيئون به في الآخرة. فلو حملنا كفلين من رحمته على هذا المعنى يصير ﴿**وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً**﴾ كأنّه عطف تفسير، ولذلك الأفضل أن نحمل ﴿**يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ**﴾ على معنى يعطيكم الخير في الدنيا وهو كِفل، وحظّ لكم أعدَّه الله تعالى لمن آمن به في عالم الدنيا، وأيضاً يعطيكم الخير في عالم الآخرة الذي أعدّه الله ﷻ لمن آمن به في عوالم الغيب وفي القيامة.

الآثار العظيمة للتقوى

أمّا قوله تعالى: ﴿**وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً**﴾ النور من آثار التقوى؛ إذ يؤكّد القرآن على أنّ تقوى الله ﷻ تعطي الإنسان مجموعة من الآثار العظيمة:

الأوّل: الحرّيّة التامّة

وقد ذكرنا من قبل أنّ بالتقوى يصبح المرء حرّاً، لا تسيطر عليه الأهواء والشهوات، ولا يصبح عبداً لغيره، وهذا أهمّ أثر من آثار التقوى، بالإضافة إلى آثارها في عالم الآخرة.

الثاني: البصيرة النافذة

من يتّقي الله عزّ وجلّ يصبح نافذ البصيرة ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَل**

(١) فتح الباري: ١٣: ٤٣٨.

لَكُمْ فُرْقَاناً ﴾[١]، أي أنّه عندما يسمع أحداً يتحدّث يعرف أنّه محقّ أو مبطل من خلال بصيرته وفهمه للحن كلامه، قال تعالى: ﴿**وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ** ﴾[٢]، أي يستطيع أن يميّز المحقّ من المبطل من خلال الحديث أو الكلام الصادر منه، والوصول إلى هذه المرتبة من القدرات الروحانيّة يتأتّى ببركة تقوى الله ﷻ. وهذه بصيرة نافذة تُمكّن الإنسان من التعرّف على الآخرين، وقد يتعامل صاحبها مع كثير من الناس بمقتضى الظاهر لكنّه يدرك طريقة تفكير الطرف المقابل ويفهم نفسيّته، وذلك من خلال الأُمور المرتبطة بالجانب الروحيّ، وكلّما ازداد الإنسان تقوىً ازداد نوراً، وازدادت بصيرته بنحو تصاعديّ حيث يستطيع أن يُشخّص درجات دقيقة، ويستوعب جوانباً معنويّة تخفى على الآخرين، وهذه مرتبة عالية، ليست شرعة لكلّ وارد، وإنّما لأُناس مخصوصين جاهدوا أنفسهم جهاداً مريراً حتّى ارتقوا في مدارج الكمال تدريجيّاً بحيث تزداد إنارة العقل لهم بتطويعهم للهوى، وتزداد قدراتهم على تشخيص الباطل من الحقّ.

وعلى هذا الأساس لا بدّ من التأكيد على أنّ القدرة على التمييز بين الحقّ والباطل لا تتهيّأ لكلّ إنسان، وهذا ما أشارت إليه الآية: ﴿**وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ** ﴾، من الصعوبة بمكان للكثير من الناس الذين تتلبّس عليهم الشبهات الوصول إلى هذه المرتبة الروحيّة، وهذا ما أوضحه أمير المؤمنين ﷺ عندما كان يمشي مع كميل في سكك الكوفة، فمرّا على رجل يقرأ القرآن وهو يبكي، فوقف كميل متأثّراً فقال أمير المؤمنين ﷺ له: دعه عنك، فقال كميل: يا مولاي يقرأ القرآن ويبكي، قال الإمام: اتركه إنه من أصحاب النار[٣].

---

(١) الأنفال ٨: ٢٩.

(٢) محمّد ﷺ ٤٧: ٣٠.

(٣) راجع: إرشاد القلوب: ٢: ٢٤٦. بحار الأنوار: ٣٣: ٣٩٩.

وكلامه عليه السلام لا يستطيع كلّ شخص أن يتحمّله ، بل يحتاج إلى أن يتعلّم ويدرس ويقوّي الارتباط بالله تعالى كي يصل إلى هذا المقام الرفيع ، لكنّ الإنسان يستعجل الأُمور ويفقد الصبر ، ويريد أن يصل دائماً إلى المراتب العالية بنحو سريع ، لذلك بيّن القرآن أنّ الأئمة الذين كانوا يهدون بأمر الله سبحانه وتعالى يرتبطون ارتباطاً وثيقاً بالصبر **﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾**[١] .

ومعنى ذلك : أنّ الوصول إلى الهدف يحتاج إلى صبر ، لذا أكّدت الآية : **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾** .

إنّ الإنسان معرّض في أثناء سيره التكامليّ لبعض الهفوات والسقطات ، غير أنّ عليه مع ذلك أن لا ييأس لأنّه سبحانه وتعالى مَن أكثر مِن طرق الباب أوشك أن يفتح له ، قال الإمام عليّ عليه السلام : « **مَنْ طَلَبَ شَيْئاً نَالَهُ أَوْ بَعْضَهُ** »[٢] ، أي أنّه استطاع أن يدخل وينال الأمر أو ينال بعضه ، يستطيع الوصول إلى ما يصبو إليه ، لكنّه يحتاج إلى صبر وصمود .

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾

المغفرة نحتاج إليها في كلّ آن ، لذلك يعلمنا النبيّ صلى الله عليه وآله المواظبة على الاستغفار في كلّ يوم سبعين مرّة ، ليبيّن أهمّيّة الاستغفار ، وأنّ الإنسان لا غنى له عنه في حياته ، قال أبو جعفر عليه السلام : « **أَمَا إِنَّ أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، نَخَافُ عَلَيْنَا النِّفَاقَ.**

قَالَ: فَقَالَ: وَلِمَ تَخَافُونَ ذَلِكَ ؟ قَالُوا: إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ فَذَكَّرْتَنَا وَرَغَّبْتَنَا وَجِلْنَا وَنَسِينَا الدُّنْيَا وَزَهِدْنَا ، حَتّىٰ كَأَنَّا نُعَايِنُ الْآخِرَةَ وَالْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَنَحْنُ عِنْدَكَ ، فَإِذَا خَرَجْنَا

---

(١) السجدة ٣٢ : ٢٤ .

(٢) نهج البلاغة : ٥٥٤ (صبحي الصالح) .

مِنْ عِنْدِكَ وَدَخَلْنَا هَذِهِ الْبُيُوتَ، وَشَمِمْنَا الْأَوْلَادَ، وَرَأَيْنَا الْعِيَالَ وَالْأَهْلَ، يَكَادُ أَنْ نُحَوَّلَ عَنِ الْحَالِ الَّتِي كُنَّا عَلَيْهَا عِنْدَكَ، وَحَتّىٰ كَأَنَّا لَمْ نَكُنْ عَلىٰ شَيْءٍ، أَ فَتَخَافُ عَلَيْنَا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ نِفَاقاً؟

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: كَلّا إِنَّ هَذِهِ خُطُوَاتُ الشَّيْطَانِ فَيُرَغِّبُكُمْ فِي الدُّنْيَا، وَاللهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي وَصَفْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِهَا لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَمَشَيْتُمْ عَلَى الْمَاءِ، وَلَوْلَا أَنَّكُمْ تُذْنِبُونَ فَتَسْتَغْفِرُونَ اللهَ لَخَلَقَ اللهُ خَلْقاً حَتّىٰ يُذْنِبُوا ثُمَّ يَسْتَغْفِرُوا اللهَ، فَيَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ. إِنَّ الْمُؤْمِنَ مُفَتَّنٌ تَوَّابٌ، أَ مَا سَمِعْتَ قَوْلَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾[١]، وَقَالَ: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾[٢]»[٣].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

تؤكّد الآية على أنّ الله ﷻ يغفر، ويغطي على التبعات، ويستر الهفوات والعيوب، لكونه رحيماً بعباده، بل أنّ رحمته أوسع ممّا نتصوّر، قال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾[٤].

لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

تتحدّث الآية عن أهل الكتاب أي اليهود والنصارى، وقد استعرضنا فيما سبق أنّ الله تعالى عندما قال: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ

---

(١) البقرة ٢: ٢٢٢.

(٢) هود ١١: ٣، ٥٢.

(٣) الكافي: ٢: ٤٢٤.

(٤) الأعراف ٧: ١٥٦.

بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[(١)].

بيّن أنّ من آمن مِن أهل الكتاب بالرسل السابقين، وآمن بالنبيّ ﷺ فله أجران، وذكرنا أنّ بعض أهل الكتاب افتخر على المسلمين من الذين لم يأتوا إلى المدينة ولم يؤمنوا بالنبيّ ﷺ وقالوا: إنّنا آمنا بالرسول فلنا أجران، فنحن أفضل منكم في هذه الجهة، وإن لم نؤمن بالرسول ﷺ فلنا أجر واحد، ونحن وأنتم في هذا الأمر سواء، ولا فرق بيننا وبينكم.

وذكرنا أنّ الآية السابقة التي تقول: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ كانت في معرض تطييب خواطر المسلمين الذين تأثّر بعضهم بافتخار أهل الكتاب عليهم، وبيّنت لهم بأنّ من آمن بالرسول ﷺ وصدَّق به فله كفلان من رحمته، أي أجران، وبالإضافة إلى ذلك فله زيادة، وهي أنّ الله ﷻ سوف يجعل له نوراً يمشي به ويغفر له.

وقد أبطل القرآن الكريم في آيات متعدّدة بعض المقولات الباطلة التي صدرت من اليهود والنصارى، التي تعتبر أنّ الحقّ لهم، وأنّ الله ﷻ فضّلهم وخصّهم بالرحمة المطلقة، قال تعالى: ﴿**وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾[(٢)].

وهذه الآية التي بأيدينا، يردّ الله ﷻ فيها على التصورات الباطلة، ويبيّن أنّ رحمة الله وفضله ﷻ ليس بيد أحد، وليس ملكاً لغير الله حتّى يمكن لأيّ شخص أن يقسمه على حسب أهوائه ومشتهياته، فيعطيه من يشاء ويمنعه عمّن يشاء؛ إذ الرحمة والفضل ملك مطلق بالاستقلال بيد الله ﷻ، وهو الذي يعطي من يشاء

---

(١) القصص ٢٨: ٥٤.

(٢) البقرة ٢: ١١٠.

ويمنع من يشاء ، لذلك ذكرنا سابقاً أنّ الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ﴾ تخاطب المؤمنين بالرسالات السابقة وتوضّح لهم الخطأ في تصوّرهم بأنّ لهم الفضل دون من آمن برسالة النبيّ الخاتم محمّد ﷺ ، وتؤكّد أنّ هذا التصوّر الذي يتصوّرونه يكون صحيحاً عندما يؤمنون برسول الله ﷺ ، عندئذٍ يعطيهم الله ﷻ كفلين من رحمته ، بل ويعطيهم أكثر ممّا يتصوّرون ، بناءً على التفسير الثالث الذي ذكرناه في الآية السابقة .

وقوله تعالى : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ توكيد على أنّ الفضل بيد الله تعالى وليس بيد أهل الكتاب .

﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ﴾ قيل : إنّ (لا) زائدة ، أي ليعلم أهل الكتاب ، قال علماء اللغة : إذا كان هناك نفي يحسن زيادة (لا) لتأكيد المطلب وتثبيته ، كيف يتمّ تأكيد المطلب المتقدّم ؟

إنّ الله ﷻ يريد من أهل الكتاب أن يحيطوا بهذه الحقيقة ، وبدلاً من قول : ليعلم أهل الكتاب ، قال : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ ، كي يؤكّد المطلب الآنف ، بينما إذا جاء نفي وراء نفي يكون إثباتاً ، قال علماء اللغة : « نفي النفي إثبات » ، غير أنّ ذلك ليس بدائم ، قد يكون نفي النفي إثباتاً ، وقد يكون للتوكيد ، أي أنّ (لا) الثانية لا تنفي الأُولى ، بل تؤكّدها ، قال الشاعر :

لا ، لا أبوح بحبّ بثنة إنّها أخذت عليّ مواثقاً وعهوداً [1]

فـ (لا) الثانية هنا تؤكّد الأُولى ، أي أنّه يريد أن يؤكّد عدم بوحه بحبّها .

والآية هنا كذلك : ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللهِ﴾ ، أي أنّ وجود (لا) للتثبيت والتوكيد في أذهان أهل الكتاب ؛ لأنّهم تصوّروا

---

(١) خزانة الأدب : ٥ : ١٥٧ .

أنّ الفضل بيدهم أو لهم مشاركة فيه ؛ وذلك لأنّهم أعطوا لأنفسهم الحقّ في توزيع الثواب بالطريقة التي يريدونها ، فإن هم آمنوا بالرسول ﷺ فلهم أجران ، وإن آمنوا بالرسالة السماويّة السابقة فقط ـ وهي رسالة عيسى عليه‌السلام ـ فلهم أجر واحد ، وبالتالي سيتساوَون مع المسلمين . هذا التصنيف الذي وضعوه غير صحيح ؛ لأنّ الفضل بيده سبحانه وتعالى وإعطاؤه مشروط بالإيمان برسالة النبي ﷺ لقوله تعالى : ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الْإِسْلَامُ**﴾(١) .

بحوث في الآية المباركة

﴿**لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ**﴾ تشير الآية المباركة إلى ثلاثة محاور رئيسيّة :

الأوّل : هو أنّ الله تعالى مصدر الخير والفضل في الدنيا .

تركّز الآية على مبدأ عقديّ هامّ ، هو أنّ الفضل والرحمة والرزق والنعمة وجميع الخير من الله سبحانه وتعالى ، حتّى ما نشاهده في معاملات الناس العادية ، عندما يطلب شخص ـ مثلاً ـ من غيره ويقول له : اجعلني غنيّاً ، أو أعطني ، أو أنعِم علَيَّ ، فهو لا يعتقد أنّ هذا الغير هو إلـه ويعطي ، وإنّما يطلب منه باعتبار أنّ الله سبحانه وتعالى أفاض رحمته عليه ، وسيكون واسطة في إيصال الفضل الإلـهيّ ، أي أنّ الله سبحانه وتعالى أبى أن يجري الأُمور إلّا بأسبابها ، هو سبحانه وتعالى جعل عالم الطبيعة أسباباً ومسبّبات ، لكنّ نهاية الأسباب ومجرياتها بيد الله سبحانه وتعالى ، نقرأ في بعض الأدعية الواردة عن أهل البيت عليهم‌السلام : « **اللّـهُمَّ يَا سَبَبَ مَنْ لَا سَبَبَ لَهُ ، يَا سَبَبَ كُلِّ ذِي سَبَبٍ ، يَا مُسَبِّبَ الْأَسْبَابِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ** »(٢) ، إذن الأسباب بيد الله سبحانه وتعالى .

---

(١) آل عمران ٣ : ١٩ .

(٢) مصباح الكفعميّ : ١٧٠ .

الثاني: العطايا الأُخرويّة بيده تعالى.

يظنّ الإنسان دائماً ويتصوّر أنّه يصل إلى رغباته التي يريدها متى ما أراد ذلك، ولكنّه عند التأمّل يجد أنّ العطايا والمنح التي تكون في عوالم الغيب ـ كرفع الدرجات، وغفران الخطايا، وستر السيّئات، ودخول الجِنَان ـ بيد الله ﷻ لا يشاركه فيها أحد، بل وحتّى من يشفع في عالم القيامة كالنبيّ وأهل بيته، إنّما يشفع بإذن الله ﷻ، ونحن نعتقد أنّ المؤمن يشفع كما ورد في الروايات لأربعين شخصاً، ويَدخل الجنّة ببركات المؤمن أربعون شخصاً من الذين استحقّوا النار، وهذا المؤمن وكذلك النبيّ ﷺ وأهل البيت ﵈ ليس لهم الشفاعة بالاستقلال، هم لا يملكون شيئاً من دون الله، وكذلك كلّ الذين يؤمنون بالله ﷻ والذين تعمّقوا في فهم كلمة (لا إلـه إلّا الله) لا يوجد أحد منهم يؤمن بأنّ هناك استقلالاً في التصرّف لوليّ من أولياء الله، أو لنبيّ من أنبيائه، أو لرسول من رسله، وإنّما المعتقد الذي عليه الطائفة المحقّة أتباع مدرسة أهل البيت ﵈ هو أنّ الشفاعة موجودة، لكنّها بإذن الله ﷻ كما نطق القرآن، وأنّ الفضل الذي اختصّ به النبيّ ﷺ إنّما هو من قِبل الله، فهو ﷻ الذي أعطى ومنح ووهب وأنعم على النبيّ وعلى الأولياء، وكذلك على بقيّة الرسل والأنبياء.

الثالث: تتفاضل الأُمم بمقدار اتبّاعها الرسالة السماويّة.

يبعث الله أي نبيّ ليعالج مشكلة من المشاكل، ويبيّن أنّ الإيمان بالرسالة والارتباط بالمسار الإلـهيّ تترتّب عليه خصائص كثيرة، عندئذٍ يخطئ بعض الناس فيتصوّر أتباع موسى ﵇ أنّه عندما خاطب اليهود الذين يعيشون في مصر بأنّهم يختلفون عن المصريّين أتباع الفراعنة، أنّ الله ﷻ فضّلهم وأعطاهم ومنحهم لوجود خصيصة ذاتيّة لهم ترفعهم عن الأُمم الأُخرى، حتّى لو لم يؤمنوا بموسى ﵇، وذلك تصوّر غير صحيح؛ لأنّ موسى ﵇ عندما أبان لليهود أنّ الله تعالى فضّلهم وأعطاهم ربط ذلك الفضل بسيرهم على نهج الرسالة السماويّة، وليس لوجود

خصيصة ذاتيّة لهم ـ كيهود ـ تميّزهم عن غيرهم، حتّى قالوا ذلك على لسانهم: ﴿**ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ**﴾(١)، وهذا يعني أنّه يمكن لأي يهوديّ أن يفعل ما يشاء في غيره من الشعوب الأُخرى؛ لأنّ الله ﷻ فضّله على بقيّة الأُمم. إنّه تصوّر خاطئ وبعيد عن قيم رسالة موسى عليه السلام، وهذا التصوّر موجود لدى المسيحيّين أيضاً، الذين يرون أنّ عيسى عليه السلام خاطب بعض أتباعه بأنّ من آمن برسالته يستحقّ الغفران والرحمة والفضل والدرجات العالية في عالم الغيب، فتصوّر المسيحيّون أنّ لهم خصائصاً ذاتيّة ترفعهم، متناسين أنّ العطايا التي منحوا إيّاها من قِبل الله ﷻ مشروطة بالإيمان بالخطوط العامّة لرسالة المسيح عليه السلام، والتي منها الإيمان برسالة النبيّ ﷺ، قال تعالى: ﴿**وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ**﴾(٢)، وذلك يعني أنّه لا بدّ من الإيمان بالنبيّ، فإذا لم يؤمنوا به فهم في الحقيقة لم يؤمنوا بكلّ ما هو موجود في رسالة عيسى عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ**﴾ توكيد على أنّ الفضل الذي مُنح للغير أو بُشّر به من قِبل الأنبياء لا يتصوّر أحد أنّ ذلك الفضل والعطاء لاستحقاقٍ ذاتيّ تميّزت به أُمّة من الأُمم على غيرها؛ لأنّ البشريّة سواسية، والاختلاف إنّما يكون باتّباع المنهج الإلٰهيّ، والسير وفق الخطوط العامّة للرسالات السماويّة، قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ**﴾(٣)، والآية واضحة في تبيان المنهج الربّانيّ العامّ، وهو أنّ جميع الأُمم والشعوب متساوية، كما أنّه يوجد تصوّر خاطئ عند بعضٍ في المنهج الخاصّ المرتبط بولاية الإمام أمير المؤمنين عليه السلام؛ إذ يقوم بتفسير الروايات التي تتحدّث

---

(١) آل عمران ٣: ٧٥.

(٢) الصفّ ٦١: ٦.

(٣) الحجرات ٤٩: ١٣.

عن الفضل الكبير والثواب الجزيل لمن والى الإمام عليه السلام بما يتوافق مع ما يريده وأهوائه، فيمارس المعاصي، ويترك الأعمال العباديّة بحجّة حبّ الإمام ومودّته، بينما تفصح الروايات عن خلاف ذلك.

ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: «**وَاللهِ** ـ انتبهوا للقسم ـ **مَا شِيعَتُنَا إِلّا مَنِ اتَّقَى اللهَ وَأَطَاعَهُ**»[1]، من يتشدّق ويقول: نحن ـ ولله الحمد ـ لدينا الولاية وعندنا كذا، ولا يعمل على أساس أنّ له ولاية، فهل يضمن أنّه يموت على ولاية الإمام عليّ عليه السلام مع اقترافه لبعض الأمور المحرّمة أو الفحش والرذائل؟

تؤكّد الروايات على أنّ المحرّمات والمنكرات تؤثّر حتّى على الولاية، وقد يموت الشخص يهوديّاً أو نصرانيّاً، ولا يبقى للولاية وجود أصلاً؛ لأنّ هناك شرائط عامّة قد لا يتاح للإنسان إذا لم يسر على طبقها أن يضمن الدوام على ما آمن به وصدّقه.

﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾

إنّه وحده هو الذي يمنع ويعطي، ولا يمكن لأحد أن يُقسّم رحمته سبحانه وتعالى على حسب أهوائه ومشتهياته، ثمّ يؤكّد سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ على أنّ فضل الله تعالى عظيم؛ إذ يولد الإنسان وهو لا يمتلك شيئاً، ثمّ يبدأ تدريجيّاً يرتقي في المعارف والفهم، والله أعطاه الجوارح التي تمكّنه من الارتقاء في مدارج العلم والمعرفة، ومع ذلك فإنّه يعصي الله سبحانه وتعالى بهذه النعم التي منّ الله سبحانه وتعالى بها عليه، إذن قوله تعالى: ﴿**وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾ تبيان على أنّ كلّ النعم التي لدينا هي منه تعالى، لكنّنا نستخدمها في غير ما يريده الله عزّ وجلّ، ولذلك لا نحظى برحمته وفضله الذي يخصّه ويدّخره لعباده الصالحين.

---

(١) بحار الأنوار: ٧٥: ١٧٥.

مصادر الكتاب

القرآن الكريم

١ • الاحتجاج على أهل اللجاج

الطبرسيّ ، أبو منصور أحمد بن عليّ بن أبي طالب (ـ ٥٦٠هـ) : تـحقيق : إبـراهـيم البهادريّ و محمّد هادي به ، الناشر : دار أُسوة ـ ايران ، الطبعة السادسة / ١٤٢٥هـ.

٢ • الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد

الشيخ المفيد : أبو عبدالله محمّد بن محمّد النعمان العكبريّ البغداديّ (٣٣٦ ـ ٤١٣هـ) : طبع وتحقيق : مؤسّسة آل البيت عليهم‌السلام ـ قم المقدّسة / ١٤١٦هـ.

٣ • إرشاد القلوب

الديلميّ ، أبو محمّد الحسن بن محمّد الواعظ (ـ ٨٤١هـ) : كمال الملك ـ قم المقدّسة / ١٤٢٦هـ.

٤ • أعيان الشيعة

الأمين العاملي ، مـحسن (١٨٦٥ ـ ١٩٥٢م) : دار التـعارف للـمطبوعات ـ بـيروت / ٢٠٠٠م .

٥ • أمالي الصدوق

الشيخ الصدوق ، أبو جعفر محمّد بن عليّ بن الحسين بن بابويه القمّي (٣١١ ـ ٣٨١هـ) : تحقيق ونشر : قسم الدراسات الإسلاميّة ، مؤسّسة البعثة ـ قم المقدّسة ، الطبعة الأُولى / ١٤١٧هـ.

٦ • الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل

الشيخ ناصر مكارم الشيرازيّ : مؤسّسة البعثة ـ بيروت ، الطبعة الأُولى ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م .

٧ • بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمّة الأطهار

العلّامة المجلسيّ ، محمّدباقر بن محمّد تقي (١٠٣٧ ـ ١١١١هـ): دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / ١٩٨٩م.

٨• تاريخ بغداد

الخطيب البغداديّ ، أبو بكر أحمد بن عليّ (٣٩٢ ـ ٤٦٣هـ) : تحقيق : مصطفى عبدالقادر عطا ، دار الكتب العلميّة ـ بيروت ، الطبعة الأُولى ١٤١٧هـ / ١٩٩٧م .

٩• تاريخ ابن عساكر = تاريخ مدينة دمشق

ابن عساكر ، أبو القاسم عليّ بن الحسين بن هبة الله الشافعيّ الدمشقيّ (٤٩٩ ـ ٥٧١هـ) : دار الفكر ـ دمشق / ١٤١٩هـ.

١٠ • تحف العقول عن آل الرسول

ابن شعبة الحرّانيّ ، أبو محمّد الحسن بن عليّ بن الحسين (من أعلام القرن الرابع الهجري): دار الشريف الرضيّ ـ قم المقدّسة / ١٤٢١هـ.

١١ • التفسير المنسوب إلى الإمام العسكريّ عليه السلام

(٢٦٠هـ) تحقيق ونشر : مدرسة ومؤسّسة الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف ـ قم المقدّسة ، الطبعة الأُولى / ١٤٠٩هـ.

١٢ • التوحيد

الشيخ الصدوق : نشر وتحقيق : مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين ـ قم المقدّسة ، الطبعة الثامنة / ١٤٢٣هـ.

١٣ • تهذيب الأحكام

شيخ الطائفة : مكتبة الصدوق ـ طهران / ١٤١٧هـ.

١٤ • ثواب الأعمال وعقاب الأعمال

الشيخ الصدوق : تعليق : الشيخ حسين الأعلميّ ، الشريف الرضي / ١٤١٨هـ.

١٥ • خزانة الأدب ولبّ لباب لسان العرب

البغداديّ ، عبدالقادر بن عمر (١٠٣٠ ـ ١٠٩٣هـ) : مكتبة الخانجي ـ القاهرة / ١٩٨٣م .

١٦ • الخصال

الشيخ الصدوق : نشر وتحقيق : مؤسّسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرّسين / ١٤٢٤هـ.

١٧ • سنن ابن ماجة

ابن ماجة القزوينيّ = أبو عبدالله محمّد بن يزيد (ـ ٢٧٣هـ) : تحقيق : خليل مأمون شيحا ، دار المعرفة ـ بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٨هـ / ١٩٩٧م (٤ مجلّدات + مجلّد الفهرس) .

١٨ • السيرة النبويّة

ابن كثير الدمشقي = عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير (٧٠٠ ـ ٧٧٤هـ) : تحقيق : مصطفى عبدالواحد ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ١٣٩٥هـ / ١٩٧٦م .

١٩ • شرح إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل

القاضي التستريّ ، نور الله بن شريف الدين الحسينيّ المرعشيّ الشوشتريّ (٩٥٦ ـ ١٠١٩هـ): علّق عليه : السيّد شهاب الدين المرعشيّ ﷺ ، مكتبة المرعشيّ النجفيّ ﷺ ـ قم المقدّسة / ١٤١٠هـ.

٢٠ • شرح أُصول الكافي

الشيخ محمّد صالح المازندراني ﷺ : دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٤٢١هـ.

٢١ • صحيح البخاريّ

البخاريّ ، أبو عبدالله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفيّ

(١٩٤ ـ ٢٥٦هـ) : ضبطه ورقّمه : الدكتور مصطفى ديب البُغا ، دار ابن كثير ودار اليمامة ـ دمشق . الطبعة الخامسة ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م (٦ مجلّدات + مجلّد الفهارس) .

٢٢ • الصحيفة السجّاديّة (أدعية الإمام زين العابدين عليّ بن الحسين عليهما السلام)

تحقيق ونشر : مدرسة ومؤسّسة الإمام المهدي عجّل الله فرجه الشريف ـ قم المقدّسة ، الطبعة الخامسة / ١٤٢٣هـ.

٢٣ • عدّة الداعي

ابن فهد الحلّيّ ، جمال الدين أبو العبّاس أحمد بن شمس الدين محمّد بن فهد (ـ ٨٤١هـ) : تحقيق : فارس حسّون كريم مؤسسة المعارف الإسلاميّة ـ قم المقدّسة / ١٤٢١هـ .

٢٤ • علل الشرائع

الشيخ الصّدوق : دار الحُجّة للثقافة ـ قم المقدّسة ، الطبعة الأُولى / ١٤١٦هـ(جزءان في مجلّد) .

٢٥ • عوالي اللئالي العزيزيّة في الأحاديث الدينيّة

ابن أبي جمهور الأحسائي = محمّد بن عليّ بن إبراهيم (ـ ٨٨٠هـ): دار سيّد الشهداء عليه السلام ـ قم المقدّسة ، الطبعة الأُولى /١٤٠٥هـ.

٢٦ • عيون أخبار الرضا عليه السلام

الشيخ الصدوق : تحقيق : الشيخ حسين الأعلميّ ، مؤسّسة الأعلميّ ـ بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٤٠٤هـ.

٢٧ • فتح الباري في شرح صحيح البخاري

ابن حجر العسقلانيّ ، نشر : دار المعرفة ـ بيروت ، الطبعة الثانية •

٢٨ • الكافي

ثقة الإسلام الكلينيّ ، أبو جعفر محمّد بن يعقوب بن إسحاق الرازيّ (٣٢٨ ـ ٣٢٩هـ): مؤسّسة الأعلميّ ـ بيروت ، الطبعة الأُولى ١٤٢٦هـ / ٢٠٠٥م.

٢٩ • كشف الغمّة في معرفة الأئمّة

الإربليّ ، أبو الحسن عليّ بن عيسى بن أبي الفتح (٤٦٧ ـ ٥٣٨هـ) : دار الأضواء ـ بيروت / ١٩٨٥م .

٣٠ • كاشف القناع

البهوتي (١٠٥١هـ) : تقديم : كمال عبدالعظيم العنانيّ ، تحقيق : أبو عبدالله محمّد حسن إسماعيل الشافعيّ ، منشورات محمّد علي بيضون ، دار الكتاب العلميّة ـ بيروت .

٣١ • كنز العمّال في سنن الأقوال والأفعال

المتّقيّ الهنديّ ، علاء الدين عليّ بن حسام الدين (٨٨٨ ـ ٩٧٥هـ) : مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م .

٣٢ • مجمع البيان = تفسير الطبرسي

أمين الإسلام ، أبو عليّ الفضل بن الحسن بن الفضل الطوسيّ الطبرسيّ (٤٦٨ ـ ٥٤٨هـ): تحقيق : السيّد هاشم الموسويّ المحلّاتي والسيّد فضل الله اليزديّ الطباطبائيّ ، دار المعرفة ـ بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ / ١٩٩٨م .

٣٣• المحاسن

البرقيّ ، أبو جعفر أحمد بن محمّد بن خالد (ـ ٢٧٤هـ) : المجمع العالمي لأهل البيت : ـ قم المقدّسة / ١٤١٦هـ.

٣٤ • مستدرك الوسائل ومستنبط المسائل

المحدّث النوريّ ، الحاج الميرزا حسين بن محمّد تقي بن تقيّ الطبرسيّ (١٢٥٤ ـ ١٣٢٠هـ) : مؤسّسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث ـ قم المقدّسة ، الطبعة الأُولى / ١٤٠٨هـ.

٣٥ • مسند أحمد بن حنبل

ابن حنبل ، أحمد (ـ ٢٤١هـ): مؤسّسة الرسالة ـ بيروت ، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م .

٣٦ • مصباح الشريعة ومفتاح الحقيقة (المنسوب للإمام الصادق عليه السلام)

مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الأُولى ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٣٧ • المصباح

الكفعميّ، الشيخ تقي الدين إبراهيم بن عليّ بن الحسن بن محمّد العامليّ الحارثيّ (٨٤٠ ـ ٩٠٥هـ): نشر مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات ـ بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٨ • مصباح المتهجّد

شيخ الطائفة: مؤسّسة فقه الشيعة ـ بيروت، الطبعة الأُولى ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.

٣٩ • معاني الأخبار

الشيخ الصدوق: قدّم له: الشيخ حسين الأعلميّ، تعليق: علي أكبر الغفّاريّ، نشر مؤسّسة الأعلميّ ـ بيروت، الأُولى ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.

٤٠• المعجم الكبير

الطبرانيّ، أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيّوب اللخمي (٢٦٠ ـ ٣٦٠هـ): دار إحياء التراث العربي ـ بيروت / ١٩٩٦م.

٤١ • مناقب آل أبي طالب

ابن شهرآشوب، أبو جعفر رشيد الدين محمّد بن عليّ السرويّ المازندرانيّ (٤٨٨ ـ ٥٨٨هـ): نشر: دار الأضواء ـ بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م.

٤٢ • الميزان في تفسير القرآن (تفسير)

الطباطبائيّ، محمّد حسين (١٢٨١ ـ ١٣٦٠هـ): تحقيق: الشيخ حسين الأعلميّ، الناشر مؤسّسة الأعلميّ ـ بيروت، الطبعة الأُولى المحقّقة ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.

٤٣ • نهج البلاغة

(مجموع ما اختاره الشريف الرضيّ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام)

نشر : دار التعارف للمطبوعات ـ بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م.

٤٤ • نهج البلاغة

(مجموع ما اختاره الشريف الرضيّ من كلام أمير المؤمنين عليه‌السلام)

تصحيح : صبحي الصالح ، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت ، الطبعة الأُولى / ١٣٨٧هـ

٤٥ • وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة

الحرّ العامليّ ، محمّد بن الحسن بن عليّ بن محمّد بن الحسين (١٠٣٣ ـ ١١٠٤هـ): مؤسّسة آل البيت عليهم‌السلام ـ قم المقدّسة ، الطبعة الثانية / ١٤١٦هـ.

مُحتوياتُ الكتابِ

سُورَةُ الفاتِحَة

٩ ـ ١٠٤

المقدّمة ٩

القرآن كتاب هداية ٩

كيف نستفيد من القرآن ؟ ١٠

الأوّل : تزكية النفس ١٠

الثاني : العلم والمعرفة ١١

القراءة التدبّريّة للقرآن ١١

المعارف العقديّة والأخلاقيّة في القرآن ١٢

(١) **البسملة** ١٣

جانب الخلود في البسملة ١٣

باء البسملة ١٤

معنى الاسم ١٥

لفظ الجلالة ١٥

الله اسم للذات المقدّسة ١٦

الاقتران باسم الله ١٦

البسملة قبل زمن نزول القرآن ١٧
العلاقة بين البسملة والاسم الأعظم ١٧
الارتباط بين الاسم والمسمّى ١٨
الرحمانيّة والرحيميّة ١٩
الرحمن صفة لله مختصّة بالذات ٢٠
أثر صفتي الرحمن والرحيم ٢١
أثر الدعاء بالرحمانيّة ٢١
استيلاء الله تعالى على الخلق برحمانيّته ٢٢
الارتباط التكامليّ بالعلم ٢٢
كيف تحقّق آثار الرحمانيّة ٢٣
الفرق بين الاسم والصفة ٢٣
هل الرحمن والرحيم صفات أم أسماء ؟ ٢٤
من أسرار الابتداء بالبسملة ٢٤
الآثار الوضعيّة للبسملة ٢٥
إطلاق الرحيم على غير الله ٢٥

(٢) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ٢٧

معنى الحمد ٢٧
الفرق بين الحمد والمدح ٢٧
الفرق بين الحمد والشكر ٢٧
اللام الجنسيّة واللام الاستغراقيّة ٢٩
فيض الله تعالى وعطاياه اختياريّة ٢٩
حيثيّات الحمد ٣٠

نقطة الافتراق والاتّحاد بين الحمد والشكر ٣١
سرّ التعبير بالحمد ٣٢
العلاقة بين الحمد والكمال التربويّ ٣٢
منتهى الكمال الإنسانيّ إدراك الحمد لله ربّ العالمين ٣٢
النظرة الإيجابيّة للإنسان تؤدّي للتكامل المستمرّ ٣٣
كيف تخلق النظر الإيجابيّة في حياتك ؟ ٣٣
كيف يكون الله مربّياً لجميع العوالم ؟ ٣٤
الاحتمالات في معنى العالمين ٣٤
اللطف الإلـٰهيّ سبب ارتقاء وكمال الإنسان ٣٥
فلسفة حمد الله تعالى ٣٦
العلاقة بين الحمد والعبوديّة ٣٧
الحمد في الروايات الشريفة ٣٧
تجديد واستمراريّة الحمد ٣٧
ارتباط الحمد باستجابة الدعاء ٣٨
التكامل المنسجم مع مراتب عالم الوجود ٣٨
تقاطع الحمد مع الشكر ٤١
الجانب الربوبيّ للمنعم ٤٢

(٣) الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ٤٤
أسرار تكرار الرحمة ٤٤
سرّ نجاح النبيّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ اتّصافه بالرحمة ٤٤
الرحمة مفتاح التكامل الإنسانيّ ٤٥
الرحمة في المجال العباديّ ٤٥

الرحمة في المجال التعليميّ ٤٥

الرحمة في المجال التربويّ ٤٥

الآثار السلبيّة مع فقد الرحمة ٤٦

الآثار الإيجابيّة للرحمة ٤٦

(٤) مالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ٤٧

مالكيّة الله للوجود ٤٧

أقسام الملكيّة: ٤٧

الأوّل: الملكيّة الاعتباريّة ٤٧

الثاني: الملكيّة الحقيقيّة ٤٨

الثالث: الملكيّة القيّوميّة ٤٨

خصائص الملكيّة القيّوميّة ٤٩

ملكيّة الله للعالم المادّيّ ٥٠

الإنسان مسؤول عمّا يصدر منه ٥١

تأثرات الأفعال ٥١

الأوّل: التأثير الوضعيّ ٥٢

الثاني: التأثير الجزائيّ ٥٢

نسيان المسؤوليّة الجزائيّة ٥٢

استشعار الرقابة الإلـهيّة ٥٣

الأنبياء يستشعرون المسؤوليّة الجزائيّة ٥٣

التركيز على المسؤوليّة الجزائيّة ٥٤

الأُولى: الحيثيّة العقديّة ٥٤

الثانية: الحيثيّة التكامليّة ٥٤

العلاقة بين البُعد العقديّ والإيمان المعاد ٥٥
انحصار العبادة في الله تعالى ٥٥
مفهوم العبادة ٥٦
معاني العبادة ٥٧
العبادة بالمعنى الخاصّ ٥٨
العبادة بالمعنى العامّ ٥٨

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ ٦٠
العبادة أمر فطريّ في الإنسان ٦٠
الإعراض عن العبادة ٦٠
أهمّيّة العبادة ٦١
أوّلاً: الوصول إلى الكمال المعنويّ ٦١
ثانياً: استقامة الروح ٦٢
ثالثاً: الوصول إلى اليقين بحقائق عالم الوجود ٦٢
معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ٦٤
حقائق هامّة لا بدّ من الالتفات إليها في العبادة ٦٥
مراتب العبوديّة ٦٩
الفرق بين المراتب الثلاثة ٧٠
الإشارة في كاف ﴿إِيَّاكَ﴾ ٧١
أسرار تقديم الضمير في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ٧٣
العبادة أفضل طرق استقرار مرتبة اليقين ٧٤
العلاقة بين الاستعانة والعبادة ٧٥
نفي الاستقلاليّة الذاتيّة في العبادة ٧٥

الله مفيض للقدرة على عبادته ٧٦
العبادة لا تحصل إلّا بالاستعانة بالله ٧٦
الاستقلال المطلق يتعذّر على المخلوق ٧٧
انحصار الاستعانة بالله تعالى ٧٧
مرجعيّة الاستعانة بالغير إلى الله ٧٨
التجرّد من الأنا والاستقلاليّة ٧٩

(٦) **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ** ٨٠
الهداية وأقسامها ٨٠
الأولى: الهداية التكوينيّة ٨٠
الثانية: الهداية التشريعيّة ٨٠
العلاقة بين الهداية التكوينيّة والتشريعيّة ٨١
معاني الهداية ٨١
الرجوع القهقريّ عن هداية الله ٨٢
ماذا يريد المصلّي بقوله: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ**﴾؟ ... ٨٣
الصراط المستقيم ٨٤
سمات الصراط المستقيم ٨٤
طريق الوصول عبر الصراط المستقيم ٨٥
معاني الصراط المستقيم في الروايات ٨٦
أوّلاً: القرآن الكريم ٨٦
ثانياً: تفسيرات أُخرى ٨٧
المعاني في الروايات من قبيل الجري ٨٧
سرّ صيغة الجمع في ﴿**اهْدِنَا**﴾ ٨٨

الصراط المستقيم واحد ٩٠
مميّزات الصراط المستقيم ٩٠
النموذج التامّ الكامل لروّاد الصراط المستقيم ٩١

﴿٧﴾ **صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ** ٩١
جاذبيّة الصراط المستقيم ٩٤
الصراط هبة من الله ٩٥
سمات نماذج الصراط المستقيم ٩٥
الوصول إلى أعلى مراتب الكمال ٩٧
أُمور ينبغي مراعاتها للوصول إلى أعلى الرتب ٩٨
الضلال عن الصراط المستقيم ١٠٠
آثار الضلال ١٠٢
﴿٧﴾ **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ١٠٢

سُورَةُ الحَدِيدِ

١٠٥ ـ ٣١٤

المقدّمة ١٠٥
طريقة تعرّفنا على أي الكتاب ١٠٦
الأوّل: صحّة نسبة الكتاب لمؤلّفه ١٠٦
الثاني: الأفكار المطروحة في الكتاب ١٠٧
الثالث: مبتكرات الكتاب ١٠٨
الرابع: الهدف من الكتاب ١٠٩

الإضرار بالنفس والتحرّك نحو السعادة ١١٠
طريق الوصول إلى السعادة ١١٠
الأفكار المحوريّة في سورة الحديد ١١٢

﴿١﴾ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ١١٤
آفاق التسبيح ١١٤
كيفيّة تسبيح الموجودات ١١٦
أقسام التسبيح ١١٧
مراتب الإدراك والشعور ١١٨
الإدراك والشعور في الإنسان ١١٩

﴿٢﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٢٠
أقسام الملكيّة ١٢٠
أوّلاً: الملكيّة الحقيقيّة ١٢٠
ثانياً: الملكيّة الاعتباريّة ١٢١
ثالثاً: الملكيّة الحقّة ١٢١
الأبعاد المعرفيّة للملكيّة الحقّة ١٢١

﴿٣﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ١٢٥
أقسام التوحيد ١٢٥
الأوّل: توحيد الذات ١٢٥
الثاني: توحيد الصفات ١٢٦

الثالث: توحيد الأفعال ١٢٦
الرابع: توحيد العبادة ١٢٧
توحيد الصفات في القرآن ١٢٧

(٤) هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّماءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ١٢٩
ماهيّة التوحيد الأفعاليّ ١٢٩
كيفيّة إيجاد عالم الوجود ١٢٩
أسباب خلق الموجودات على ستّ مراحل ١٣٠
الأوّل: إظهار القدرة الإلـهيّة ١٣١
الثاني: أهمّيّة العامل الزمنيّ في طيّ مراحل التكامل ١٣١
معنى العرش ١٣٢
إحاطة الله بعالم الوجود ١٣٤

(٥) لَهُ مُلْكُ السَّماوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ١٣٥
الهدف من تكرار الملكيّة في الآية ١٣٥
المعاد في القرآن ١٣٦
كيفيّة رجوع الأشياء إلى الله تعالى ١٣٧
شبهة إعادة المعدوم ١٣٨
إثبات الشيء بدليله في الآية ١٣٩
أثر الاعتقاد بالآية على الإنسان ١٤٠

(٦) يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ١٤٠

معنى ولوج الليل في النهار ١٤١

مراتب تأثير علم الله على الإنسان ١٤٢

أثر معرفة الإنسان باطّلاع الله عليه ١٤٣

الخواطر التي تخطر على الإنسان ١٤٣

خواطر رحمانيّة وخواطر شيطانيّة ١٤٣

(٧) آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ١٤٥

الملكيّة في الاقتصاد الرأسماليّ ١٤٦

الملكيّة في الاقتصاد الإسلاميّ ١٤٦

الملكيّة في الاقتصاد الاشتراكيّ والشيوعيّ ١٤٧

المقارنة بين الأنظمة الاقتصاديّة الثلاثة ١٤٧

ارتباط الإنفاق بالإيمان بالله تعالى ١٤٨

الإنفاق بين الواجب والمستحبّ ١٤٩

مفهوم المصلحة في الإسلام ١٤٩

طريقة القرآن في الحثّ على الإنفاق ١٥١

(٨) وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ١٥١

اللطف العامّ والخاصّ ١٥١

اللطف العامّ ١٥٢

اللطف الخاص ١٥٢
الهدف من بعث الأنبياء والرسل ١٥٢
الأوّل: المطالبة بأداء ميثاق الفطرة ١٥٣
الثاني: التذكير بالنعم الإلـهيّة ١٥٣
تفسير الميثاق ١٥٦

(٩) هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللهَ بِكُمْ لَرَؤُوفٌ رَحِيمٌ ١٥٧
قاعدة اللطف ١٥٧
إيضاح القاعدة ١٥٧
فائدة اللطف الخاصّ ١٥٨
أسباب الرحمة الإلـهيّة ١٥٩

(١٠) وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَىٰ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ١٦١
أصناف الإنفاق ١٦٣
الأوّل: الإنفاق في الشدّة ١٦٤
الثاني: الإنفاق في الرخاء فقط ١٦٤
المقصود من الفتح في الآية ١٦٥
الإنفاق قبل الفتح وبعده ١٦٦

(١١) مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ..... ١٦٦

ماذا يعني القرض ؟ ١٦٦
نقاط البحث : ١٦٧
النقطة الأُولى : فكرة خلود المال ١٦٧
النقطة الثانية : مواصفات القرض الحسن ١٦٩
الأُولى : حلّيّة المال ١٦٩
الثانية : أن يكون المال من أفضل ما يملك ١٧١
الثالثة : الإنفاق في حال الصحّة والسلامة ١٧١
الرابعة : دفع الصدقة للأكثر احتياجاً ١٧٢
الخامسة : إخفاء الصدقة ١٧٣
السادسة : عدم المنّة في الإنفاق ١٧٣
السابعة : الإخلاص في الصدقة ١٧٤
الثامنة : الإنفاق ممّا يُحبّه الإنسان ١٧٥
التاسعة : استحقار ما يُنفقه ١٧٥
العاشرة : المال لله والإنسان مستخلف عليه ١٧٦
النقطة الثالثة : الجهة المتصرّفة في القرض الحسن ١٧٦
النقطة الرابعة : الآثار الوضعيّة للإنفاق في الدنيا ١٧٧

(١٢) يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ١٧٨
تجسّد الأعمال ١٧٨
الآثار المعنويّة للإنفاق ١٨٠
الفوز العظيم ١٨٣

(١٣) يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ١٨٤

(١٤) يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللهِ وَغَرَّكُم بِاللهِ الْغَرُورُ ١٨٩

أسباب انحراف المنافقين ١٩٠

(١٥) فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ١٩٧

الأوّل: مغايرة عالم الدنيا لعالم الآخرة ...... ١٩٧؟؟؟ أين الثاني

معنى الكفر ١٩٨

(١٦) أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ٢٠١

أصناف الإيمان ٢٠٣

أقسام الذكر ٢٠٧

الأوّل: الذكر اللسانيّ ٢٠٧

الثاني: الذكر القلبيّ ٢٠٧

الثالث: الذكر الاستشعاريّ ٢٠٨

قراءة القرآن تجلب الخشوع ٢٠٩

عواقب الابتعاد عن صراط الله ٢٠٩
أثر تقادم الزمان على الإنسان ٢١٠
عوامل رقّة القلب وقسوته ٢١١
ما معنى الفسق ؟ ٢١٤

(١٧) اعْلَمُوا أَنَّ اللهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ٢١٥

الحياة والموت في الآية ٢١٥
معاني إحياء الأرض في الآية ٢١٧
توحيد الربوبيّة في الآية ٢١٩
الأدلّة على توحيد الربوبيّة ٢١٩
إيضاح الآيات ٢٢٢
أقسام الناس في رؤية الآيات ٢٢٤
معنى العقل ٢٢٤
الأحياء الذي يحقّق الرقيّ ٢٢٥

(١٨) إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللهَ قَرْضاً حَسَناً يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ٢٢٦

أهمّيّة الإنفاق ٢٢٦
الأبحاث الهامّة في الآية ٢٢٧
الفوارق الطبقيّة في المجتمع ٢٢٧
الفوارق الطبقيّة في ظلّ النظريّات المتعدّدة ٢٢٨
النظريّة الشيوعيّة ٢٢٨

النظريّة الرأسماليّة ٢٢٨
النظريّة الإسلاميّة ٢٢٩

(١٩) **وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ أُولٰئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ** ٢٣١
أقسام الإيمان ٢٣٤
الأوّل: الإيمان النظريّ ٢٣٥
الثاني: الإيمان العمليّ ٢٣٥
ثمرات الإيمان بالله تعالى ورسوله ٢٣٦
الأولى: تحقّق مرتبة الصدّيق ٢٣٦
الثانية: تحقيق مرتبة الشهيد ٢٣٧

(٢٠) **اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَراً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ** ٢٤١
العوالم المادّيّة والمجرّدة ٢٤١
الابتلاء في حياة الإنسان ٢٤١
حقيقة الحياة الدنيا ٢٤٤
نظريّة الشيخ البهائيّ ٢٤٧
المثل في الآية يعبّر عن واقع الحياة ٢٤٩
فائدة المراتب الخمسة التي تمرّ على الإنسان ٢٥٠

خلاصة الآية في ختامها ٢٥١

(٢١) **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِن رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ٢٥٢

التسابق إلى الحياة الأُخرويّة ٢٥٢

سبب ذكر عرض الجنّة في الآية ٢٥٤

معاني الفضل في الآية ٢٥٦

(٢٢) **مَا أَصَابَ مِن مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِن قَبْلِ أَن نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ** ٢٥٨

العقبات التي تمنع الإنسان من الوصول إلى أهدافه ٢٥٨

معنى الكتاب في الآية ٢٦٠

(٢٣) **لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ٢٦٢

ماذا تعني عدم المحبّة الإلٰهيّة ؟ ٢٧٠

(٢٤) **الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** ٢٧٣

(٢٥) **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ مَن**

يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢٧٧
أهداف بعثة الأنبياء ٢٧٧
الدعائم التي تساند دعوة الأنبياء ٢٧٩
الأُولى: البيّنات ٢٧٩
الثانية: الشرائع ٢٧٩
الثالثة: الميزان ٢٨٠
العدل ٢٨٣

(٢٦) **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبراهيم وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ٢٨٧

(٢٧) **ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ** ٢٨٨
الفرق بين الرأفة والرحمة ٢٩٠

(٢٨) **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ** ٢٩٨
معنى الكفل ٣٠١
النور في القرآن الكريم ٣٠٢
المعاني الباطنيّة للآية ٣٠٣
الآثار العظيمة للتقوى ٣٠٥

الأوّل: الحرّيّة التامّة ٣٠٥

الثاني: البصيرة النافذة ٣٠٥

(٢٩) لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٣٠٨

بحوث في الآية المباركة ٣١١

مصادر الكتاب

٣١٥ ـ ٣٢١

محتويات الكتاب

٣٢٣ ـ ٣٤٠